



معهد البحوث والدراسات الأفريقية
قسم التاريخ

مكتبة الإسكندرية القديمة

ودورها الثقافي في أفريقيا

مقررة الندوة
د. آمال مصطفى

عميد المعهد
أ.د. السيد فليفل



بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة الدكتورة آمال مصطفى

مقررة الندوة

"مكتبة الإسكندرية القديمة" ذلك الصرح العلمي العالمي الفريد ، الذي تخطى حدود الزمان والمكان ، هي رمز من رموز التاريخ والحضارة ، هي روح الشرق بأفكاره وثقافاته، بدياناته ومعتقداته ، للإنسانية جمعاء ، وهي فكرة ورسالة الغرب، وهي وحلم داعب ملك مقدونيا الشاب لكن الوقت لم يسعفه ، والقدر لم يمهله ليرى الحلم حقيقة تجسد حلمه بالوحدة العالمية . على الأرض الأفريقية . وفي أحضان مصرنا الحبيبة التي أقامت واحدة من أقدم وأعظم الحضارات ، ورثت الديانات وتلقت الرسالات السماوية ، ولا تزال وستظل تضطلع بأهم الإنجازات ، نشأت تلكم المكتبة التليدة .

وها هي تعيد لنا من أمجاد ماضينا وحضارتنا ما أفسدته يد الدمار ، فإذا كانت الحرائق التي نالت من مكتبة الإسكندرية القديمة قد كبدت البشرية خسارة لا تعوض ، فإننا نأمل من هذا المشروع الحضاري الكبير لإحياء مكتبة الإسكندرية أن يكون التعويض المناسب لهذه الخسارة .

وإذا كانت مكتبة الإسكندرية ، أو إذا جازلنا أن نقول جامعة الإسكندرية القديمة ، هي رسالة إنسانية ورمزاً لفكرة ، ربما لم يستوعبها القائمون بها حينذاك ، فإن لقاء علمياً بمعهد ناضم أساتذة أفاضل، هم من أشد المتخصصين بل والمتحمسين لهذا الموضوع كان محاولة لإلقاء الضوء على هذه الفكرة القديمة ، وعلى الهدف من إنشاء مكتبة الإسكندرية.

ولكي نعرف أيضاً إلى أي مدى تم استيعاب هذه الرسالة الإنسانية العالمية التي اضطلعت بها تلك المؤسسة العلمية والتي عبرت عن فكر ووجدان العصر الذي نشأت فيه ، رسالة دعت للسلام ونادت بالوحدة العالمية .

وإذا كانت الصراعات السياسية والمصالح الاقتصادية تفرق بين الشعوب ، فإن الثقافة بلاشك تجمع ولا تفرق .

ومن معهدنا العريق معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، من هذه المؤسسة العلمية المنوطة بشئون قارتنا الإفريقية ، جسر الوصال بين شرق العالم وغربه ومهد أعظم الحضارات، نبعث للعالم بنفس الرسالة .

ولا يسعنا في النهاية إلا أن نتوجه بخالص الشكر والامتنان لكل من ساهم من داخل معهدنا الموقر ومن خارجه سواء بالاشتراك بورقة بحثية أو بالإعداد لأعمال الندوة. ونخص بالشكر السيد الأستاذ الدكتور نجيب الهلالي جوهر رئيس الجامعة السابق على دعمه ورعايته

لهــذه الــندوة ، والأســتاذ الدكتور السيد فليفل عميد المعهد والأساتذة والسادة الزملاء بقسم التاريخ بالمعهد ، ونرحب بأساتذتنا جميعاً ونعتز بلقائهم وبتشريفكم ، ونرجو من الله التوفيق.

وقــد ســعدنا غاية السعادة بأن تشهد الندوة التي خصصت لمكتبة الإسكندرية، تكريم الدكــتور شوقي الجمل أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بالمعهد ، والكلمات الرقيقة التي ألقاها الأساتذة الأجلاء نجيب الهلالي جوهر رئيس الجامعة السابق ومحمد حمدي إبراهيم نائب رئيس الجامعة السابق ، ومحمد عبد الغني سعودي عميد المعهد الأسبق ، وعبد الله عبد الرازق وكيل المعهــد الســابق ، والســعيد البدوي عميد المعهد السابق ، ومحمود أبو العينين أستاذ العلوم السياســية بالمعهد ، وهذا دليل على تقدير أسرة المعهد الكامل لسيادته . فله كل تحية ، ولهم جزيل الشكر .

د. آمال مصطفى

كلمة الأستاذ الدكتور السيد فليفل

عميد المعهد

جـــاء اهـــتمام قسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بعقد ندوة حول مكتبة الإســـكندرية القديمـــة ودورها الثقافي في أفريقيا مصاحباً لذلك الاهتمام العالمي الذي استقطبه افتـــتاح مكتـــبة الإســـكندرية الحديـــثة في ذات مكانها القديم ، وهو ما جعل ماضي هذا الوطن موصولاً بحاضرة ، ليؤكد أن مصر شمس لا تغيب .

فليس من فراغ أنها محور الأداء في الحضارة القديمة ، وأنها درة الإسلام في العصر الوســـيط ، وأنهـــا محررة العرب والأفارقة من الاستعمار في العصر الحديث . وعلى الرغم أن مكتبة الإسكندرية القديمة قد افتتحت على عهد حكم أجنبي وافد إلى مصر ، ينتمي إلى حضارة الإغـــريق ، إلا أن أحداً لم يسأل نفسه : ولماذا كانت مكتبة الإغريق الكبرى على أرض مصر، ولـــيس فـــي أثينا أو اسبرطة ؟ كما أن أحداً لم يسأل لماذا نشأت أول كنيسة في المسيحية في مصـــر ، ولـــيس في فلسطين حيث بعث المسيح ؟ كما أن أحداً لم يسأل : لماذا كان الأزهر – جامعة الإسلام عقيدة وحضارة – على أرض مصر ، وليس في مكة أو المدينة ؟

وأظـــن أن الإجابة على هذه الأسئلة ستؤكد حقيقة أن شمس مصر – مهما كان أمرها مع الحكام والمستعمرين – ساطعة لا تغيب ، حتى لو لم يفهم كثير من الناس ذلك . فالأمل في الحـــياة ، ودروس التعلـــيم المستمر للأجيال وللشعوب ، هي التي تصنع المستقبل ، وتؤثر في الآخـــرين ، وتبنـــي الحضـــارة ، وتجمع الأمم من حولها في ألفة وإخاء ، وليس في تعال أو هيمنة، وتلك هي روح مصر .

ولقـــد يحق لنا أن نتساءل طويلاً عن معنى تجديد شباب مكتبة الإسكندرية وبعثها من مـــرقدها ، فـــي عصـــر يتداعـــى فيه الغرب إلى صراع الحضارات ، ويشهد فيه العصر إنهاء اســـتقلال عـــدد مـــن الدول . إن المعنى يتجاوز أعداد الكتب وصفحاتها وسطورها ، إلى فكرة الـــتعايش الإنســـاني ، وحـــوار البشر ، بكل حضاراتهم وثقافاتهم في هذا الإطار الإنساني . إن الإسكندرية التي كانت قبلة المتعلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، لاتزال تحمل ذات الرسالة، رســـالة مصـــر: إلى عالم واحد أو يجب أن يكون واحداً ، يتواصل فيه البشر ، ولا ينفصلون، ويتكاملون ولا يتصارعون .

ولقـــد وفرت مكتبة الإسكندرية عالماً من الثقافة المتوسطية ، لا هي شرقية ، ولا هي غربية ، آتت أكلها حيناً طويلاً من الزمن . واليوم يأتي ارتباط بعث المكتبة الجديدة بهذه الروح الإنسانية الداعمة ، وتلك الكوكبة المحبة للعلم والثقافة من كافة أنحاء العالم ، لتؤكد دور مصر فـــي التواصـــل الحضاري والحوار الثقافي ، والثبات عند مبادئ التعايش والإخاء التي أرستها

وثائــق الأمــم المتحدة والنظام الدولي عبر مخاض إنساني طويل ، وتريد عصابات من اليمين الصهيوني هنا – في فلسطين – وهناك في واشنطن – أن تقضي عليها وتعصف بها ، وتذروها كالرماد بفعل ريح عسكرة السياسة الأمريكية ، وإهدار الشرعية الدولية .

إن افتــتاح مكتبة الإسكندرية يشكل بعثاً جديداً لضمير العالم ، ويجسد اختيارات مصر الثقافية المنفتحة والمتواصلة مع العالم ليس تواصل الأتباع ، بل تواصل الأكفاء .

ومــنذ شهدت مصر ميلاد مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة ، على أيدي لفيف مــن خيرة الأساتذة من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية تقديراً للدور الحضاري الذي لعبته الإسكندرية بمكتبتها القديمة في مجال العلم والثقافة ، وإيماناً بأهمية العلم في بناء جسر التواصــل بــين الشــعوب المختلفة ، والعالم يهتم بهذا المتغير الثقافي الهام ، ويراجع ماضيه الثقافي كله .

فقــد جعــل الموقع المتميز للإسكندرية على ساحل البحر المتوسط من حلم مؤسسها الإســكندر الأكبــر حقــيقة ، ذلك الحلم بأم تكون الإسكندرية مركزاً لأشهر حضارات عصره ، المصرية والإغريقية وحضارات الشرق الأدنى .

ولا شك أن تأسيس مكتبة الإسكندرية القديمة في بدايات القرن الرابع قبل الميلاد على يد خلفاء الإسكندر ، ملوك البطالمة الذين حكموا مصر من بعده ، كان تأكيداً لتلك الحقيقة . ولا شــك أيضــاً أن ثقافة الإسكندرية قبل تأسيس المكتبة كانت ثقافة إقليمية ، وأن إنشاء المكتبة سمح لهذه الثقافة أن تنطلق إلى إطار العالمية .

ومــن المسلم به أنها كانت أعظم مكتبة في التاريخ القديم على الإطلاق ، وأنها كانت معلمــاً من معالم الحضارة ، كما كانت الأساس الذي ارتكزت عليه أكبر مؤسسه للبحث العلمي في التاريخ القديم وهو المجْمع العلمي وحوله ازدهرت جامعة الإسكندرية القديمة التي أصبحت تضــم المكتــبة والمجمع العلمي ومتحف ملحق ، وذلك على مدى أكثر من سبعة قرون احتلت خلالهــا الإسكندرية مكان الصدارة وحملت مشعل الاستنارة والعلم في العالم المتحضر آنذاك في حــوض البحــر المتوسط والشرق الأدنى، وظلت شهرتها إلى يومنا هذا ، ومازالت تؤلف عنها الكــتب . ويختلف العلماء بشأن المصير الذي آلت إليه أشد الاختلاف وهو الحريق الكبير الذي لحق بها إثر سلسلة من الحروب والصراعات .

ومشــروع إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة هو أصدق دليل على استمرار مصر تولّي الــدور الحضاري القيادي في منطقة الشرق الأوسط ، ومن هذا المنطلق، ومشاركة من جامعة الإســكندرية فــي النهضة العلمية والثقافية في مصر وباقي بلدان الشرق الأوسط ، وتمشياً مع الــتقدم الســريع فــي العلــم والمعــرفة ، وتمكيــناً لحسن تطبيق الحديث والمفيد من العلوم والتكنولوجــيا ، وتقديــراً وتفهماً لدور وفائدة المكتبات الحديثة لتحقيق ذلك ، وتيسيراً للعلماء

والباحثـين في القيام بدورهم البناء في ميادين البحث العلمي ، انطلقت من داخل الجامعة فكرة إنشـاء مكتـبة كبيرة وحديثة تقدم خدماتها لرجال العلم والبحث العلمي في جامعة الإسكندرية وغيـرها مـن الجامعـات ومراكـز البحوث في مصر وباقي منطقة الشرق الأوسط آخذين في الاعتـبار ما كان للإسكندرية من شأن علمي ومركز ثقافي رفيع على مدى العصور وخصوصاً في عصرها القديم .

ومنذ عام ١٩٧٤ حيث بدأ التفكير في هذا المشروع قام أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإسـكندرية من المتخصصين بإجراء الدراسات والبحوث الدقيقة والتحقيقات العلمية عن مكتبة الإسـكندرية القديمـة ، وجـاءت النتائج تأكيداً على أهمية المشروع وضرورة السير قدماً في تنفـيذه علـى أحدث الطرز وبأحدث الإمكانيات حتى يمكن أن تشتمل المكتبة على كافة الأنظمة الحديـثة التـي تمكنها من مواكبة العصر ومتطلباته العلمية إلى أن تبنت منظمة اليونسكو هذا المشروع على الصعيد الدولي في إطار أنشطتها الثقافية .

فقـد توصـلت اليونسـكو خلال عملها الطويل إلى أهمية إدخال شتى الأنشطة ضمن اسـتراتيجية شـاملة ترتكز على مبدأ هام يتمثل في ضرورة العمل على أن تكون حضارة هذا العصـر عالمية مؤثرة كما ننشدها جميعاً ، ومن هذا المنطلق جعلت المنظمة هذا المشروع أحد المشروعات الهامة التي تسعى إلى تحقيقها في إطار العقد العالمي للتنمية الثقافية الذي أعلنته الأمم المتحدة (١٩٨٨ - ١٩٨٩) .

وقد أثار هذا المشروع اهتمام أنصار التنمية في العالم بأسره واجتذب حماسهم ولاقت الفكـرة تـرحيباً كبيـراً من كل دول العالم بفضل الجهود التي بذلتها اليونسكو لتجعل من هذه المكتـبة درّة على جبين الفكر الثقافي لعالم الغد بما سوف تشكله هذه المكتبة من حلقة اتصال هامة في شبكة تضم مكتبات العالم الكبرى في الوقت الحاضر .

ولاشـك أن هـذا المشـروع الذي يقوم على إحياء الفكرة القديمة وبعثها في الزمن المعاصـر دليل على أن الحضارة هي حصيلة ما تقدمه كافة الشعوب وأن تاريخ الشعوب تاريخ مشترك ، وأن ماضي كل شعب هو ماضي للإنسانية جميعها.

وإنـه لمـن دواعـي سرورنا جميعاً أن نجتمع اليوم لنخلد ذكرى هذا الصرح العلمي القـديم الـذي نالت منه نيران الحروب والصراعات ، في ذات الوقت الذي تجري فيه على قدم وسـاق التـرتيبات النهائـية لافتتاح مكتبة الإسكندرية الحديثة في غضون أيام قليلة ولتستقبل مصـر ضيوفها من كل أنحاء العالم داعين للسلام منددين بالحرب والدمار في احتفالية تاريخية عالمية غير مسبوقة .

وإذا كـنا قد أشرنا إلى معنى التواصل الحضاري الذي تجسده مكتبة الإسكندرية ، فإن قسـم الـتاريخ استثمر ندوة مكتبة الإسكندرية ليجسد روح التواصل بين الأجيال ، فكرم نفسه

بتكـــريم رائـــده الكبيـــر الأستاذ الدكتور / شوقي عطا الله الجمل أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، الذي أدى دوراً رائـــداً فـــي الدراسات الأفريقية ، وتتلمذ عليه عشرات من الباحثين ، ويعرف فضله وعلمه وخلقه وعطاءه كل من تعامل معه ، له سمت العلماء والمحققين ، وهدوء المفكرين .

ولقـــد كـــان لي شخصياً شرف العمل مع أستاذي الدكتور شوقي الجمل وتحت قيادته سنوات طوالاً، ولقد ناقشني سيادته في رسالتي للماجستير والدكتوراه واستفدت من علمه ومن آرائـــه وأفكـــاره . غير أنني لم أحظ بأن يدّرس لي ، لكنني تعلمت من كتبه وأساليبه وسلوكه الشـــيء الكثير ، فلقد كان أستاذنا معاراً من عام ١٩٧٣ – ١٩٧٧ ، مما منعني من أن أجلس إلـــيه مجلس التلميذ، لكنني أفدت من بحوثه ودراساته ، وعرفته مما يكتب . إنه باحث مدقق ، وعـــالم جلـــيل ، قاد مسيرة العمل العلمي في قسم التاريخ ، وتخرج على يديه كل أعضاء هيئة التدريس بالقسم تقريباً ، وتعلم منه أغلب من أختص بدراسة الشئون الأفريقية في مصر .

وخـــتاماً أتـــوجه بخـــالص الشكر لكل من شارك في أعمال هذه الندوة ، من الباحثين ورؤســـاء الجلســـات ، وأحيـــي بصفة خاصة كلاً من العلامة الأستاذ الدكتور مصطفى العبادي والعلامـــة الأســـتاذ الدكـــتور لطفـــي عبد الوهاب اللذين تتلمذنا عليهما في الدراسات اليونانية والرومانية بجامعة الإسكندرية ، ولهما من القدوة العلمية والخلقية ومن العطاء في مجال ندوة الـــيوم علـــى الصـــعيد الدراسي والميداني ما نجلّه ونقدره . كما أحيي أستاذنا العلامة الخلوق والإداري الجامعي الرائع واللامع الدكتور محمد حمدي إبراهيم وله في موضوع ندوة اليوم من الصـــولات العلمـــية والجـــولات البحثية ما لا يشق له غبار . كما أحيي الزميلة والابنة الغالية الدكتورة آمال مصطفى كمال مقررة الندوة على ما بذلت من جهد وعطاء في سبيل الإعداد لهذه الندوة ، واستقطاب أساتذتها من كافة الجامعات المصرية للمشاركة فيها .

وخـــتاماً فإنني أحيي الأستاذ الدكتور نجيب الهلالي جوهر رئيس الجامعة السابق الذي رعى مسيرة المعهد ، قدم لنا الدعم متواصلاً ، من أجل دفع الدراسات الأفريقية إلى الأمام ، فله جزيل الشكر والتقدير وأحيي كل قيادات الجامعة في عهدها الجديد، متمنياً كل التوفيق والسداد.

الفهرس



١ – موقع مكتبة الإسكندرية القديمة

أ.د. عزت زكي حامد قادوس
أستاذ الآثار اليونانية والرومانية
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

إنـــه لمـــن حسن الطالع أن يتواكب عقد هذه الندوة في معهد الدراسات الأفريقية مع أكبـــر حـــدث ثقافـــي فـــي العالم ألا وهو افتتاح مكتبة الإسكندرية على مشارف الألفية الثالثة للمـــيلاد، والتي ظلت ردحاً من الزمن حلما يداعب خيال المبدعين ويشحذ همم الباحثين ويتوسد عقـــول المهتمـــين بالإســـكندرية وحضارتها ، تلك المكتبة التي حوت آلاف من لفائف البردي وأخـــرى من أمهات الفكر الإنساني آنذاك فكانت قبلة يولى إليها كل باحث وجهه ويرتحل إليها كـــل مـــن تصـــبو إليه نفسه ليرتشف من وعاء المعرفة وينهل من ينابيع الفكر الذي لا ينضب معيـــنه من علماء وفنانين وطلاب علم ، فكانت الإسكندرية بمكتبتها الشهيرة وجامعتها العريقة عاصـــمة العـــالم الثقافـــي خلال العصرين اليوناني والروماني ليس في مصر فقط بل في جميع أنحـــاء العـــالم القديم آنذاك ، وكانت هذه المكتبة أشبه ببؤرة إشعاع ثقافي تنير ظلمة العالم في تلك الحقبة من الزمن .

يـــرجع تـــاريخ نشـــأة مكتـــبة الإســـكندرية إلى مطلع القرن الثالث ق.م حين استغل بطلمـــيوس الأول – الـــذي حرص على استقدام أعداد كبيرة من الإغريق ليكونوا نواة الدولة الجديـــدة فـــي مصـــر – فرصة وصول ديمتريوس الفاليرى[1] حاكم أثينا إلى الإسكندرية ، وقد اقتـــرح ديمتـــريوس الفاليـــرى على الملك بطلميوس الأول تأسيس مجمع علمي هو الموسيون ويلحـــق بـــه مكتبةً كبرى هي مكتبة الإسكندرية ، تجمع كتبا من جميع أقطار المعمورة . وقد وضـــع بطلميوس الأول مبالغ طائلة تحت تصرف ديمتريوس الفاليرى لاقتناء أمهات الكتب من جميع أنحاء العالم القديم آنذاك[2] .

كان الموسيون[3] جزءا من الحي الملكي في الإسكندرية والذي كان يشغل حوالي ثلث حجـــم المديـــنة وكـــان يســـمى Brucheion[4] وقد زاره المؤرخ استرابون حين حضر إلى الإســـكندرية عام ٢٥ ق.م وأقام به خمس سنوات عكف خلالها على تأليف مؤلفه "الجغرافيا" Geographika ، وقد تحدث استرابون[5] عن هذا البناء قائلا :

"والمتحف أيضا جزء من القصور الملكية وهو يضم ممشى ورواقا خارجيا وبيتا كبيرا فيه منتدى العلماء و المشاركين في المتحف ، وأموال هذه الجماعة مشتركة ولهم أيضا كاهن يشرف على المتحف، كان الملوك يعينونه فيما مضى ويعينه قيصر الآن" .

أمـــا عن شكل المكتبة فلم تحدثنا أي من المصادر عن الشكل الخارجي أو الداخلي لها ولكـــن مـــن المؤكد أن جدران المكتبة من الداخل كانت تحتوى على مشكاوات أفقية مرتبة في صفوف رأسية يمكن الوصول إلى العلوية منها عن طريق سلم خشبي متحرك ، ومن المؤكد أن هـــذه المشـــكاوات كانـــت مناسبة في شكلها لنوعية الكتب التي كانت على شكل لفائف بردية ، وكانت تيجان الأعمدة الحاملة للسقف على الشكل الحتحوري المعروف(٦) .

وتعتبر مكتبة الإسكندرية من أهم المكتبات في العصر الهللينستى وذلك نظراً لاحتوائها علـــى العديـــد مـــن المـــؤلفات الأصـــلية(٧) التي حرص البطالمة بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة على اقتنائها من المراكز الثقافية المعروفة في العالم القديم(٨) .

وقـــد احتوت مكتبة الإسكندرية على حوالي ٢٠٠ ألف كتاب أيام ديمتريوس الفاليرى ووصلت في عهد الملكة كليوباترا السابعة إلى حوالي ٧٠٠ ألف كتاب(٩) ، وقد عوض ماركوس أنطونـــيوس كليوباتـــرا السابعة عن خسارتها للكتب في حريق الإسكندرية أيام يوليوس قيصر بإهدائها ٢٠٠ ألف كتاب من مكتبة برجامة(١٠) .

وكـــان البطالمة يمتلكون وسيلة ضغط هامة على المكتبات المنافسة لمكتبة الإسكندرية وخاصة مكتبة برجامة التي كانت تعتبر المنافس الأول لمكتبة الإسكندرية القديمة ، هذه الوسيلة كانـــت أوراق البـــردي التي كانت مصر تنفرد بإنتاجها وكانت مصر تمنع تصديره إلى المكتبات الأخـــرى إذا دعـــت الحاجة لذلك(١١) .

ورغـــم أن جميع المصادر – خاصة الرومانية منها – تصمت عن الحديث عن مكتبة الإســـكندرية ومـــوقعها وحجمهـــا وعدد الكتب التي احتوتها إلا أننا نستطيع من خلال مناقشة بعض المعلومات التي وردت عند الكتاب القدامى التعرف على موقع هذه المكتبة الكبرى خاصة وأنـــنا نعرف بالتحديد موقع المكتبة الصغرى(١٢) التي كانت بالقرب من معبد السرابيوم على تل الأكروبول الخاص بمدينة الإسكندرية(١٣) .

في كتابه عن الحرب الأهلية De Bello Civile يذكر يوليوس قيصر(١٤) أنه اضطر إلى القـــيام بحـــريق هائل في السفن التي كانت بالميناء والترسانة البحرية وزاد عدد السفن التي

احتـرقت على مائة وعشر سفينة[١٥] ، وهذا العدد – في رأيي – يكفى بأن يدمر مدينة بأكملها إذا امـتدت النيـران إليها – وهذا ما حدث بالفعل أيام يوليوس قيصر حيث امتدت هذه النيران المنبعـثة من السفن إلى المستودعات والمخازن ومنها إلى مكتبة الإسكندرية القريبة جداً من الساحل، ولكن يوليوس قيصر يصمت عن أضرار هذا الحريق تماما .

وقد تناول الكتاب اللاحقون ليوليوس قيصر الأضرار التي لحقت بمدينة الإسكندرية من جـراء الحريق الذي تسبب فيه يوليوس قيصر حيث يقول سينيكا[١٦] – الكاتب الروماني – أن حوالـي ٤٠٠ ألـف كـتاب قد احترقت في الإسكندرية من جراء هذا الحريق . وهذا يعنى أن الحريق امتد إلى أبنية المكتبة الكبرى القريبة من الميناء والمستودعات .

ويذكر ايلوس جيليوس[١٧] الذي عاش في الفترة من ١٢٣ – ١٩٦م أن حوالي ٧٠٠ ألف كتاب قد احترقت في حرب الإسكندرية الأولى .

ويتحدث ديون كاسيوس[١٨] في نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الميلادي عن الـنار التي نشبت في مخازن الكتب التي كانت كثيرة العدد، عظيمة القيمة ، وهو يعنى بالتأكيد خزائن الكتب أي المكتبة الكبرى التي كانت قريبة للغاية من موقع الحريق .

ويذكـر نفـس المقولة المؤرخ اميانوس ماركللينوس[١٩] الذي عاش في أواخر القرن الرابع الميلادي حيث يؤكد أن النار في حرب الإسكندرية – حينما دمرت المدينة زمن الدكتاتور قيصر – قد قضت على ٧٠٠ ألف كتاب كانت مودعة في مكتبة لا تقدر قيمتها بثمن .

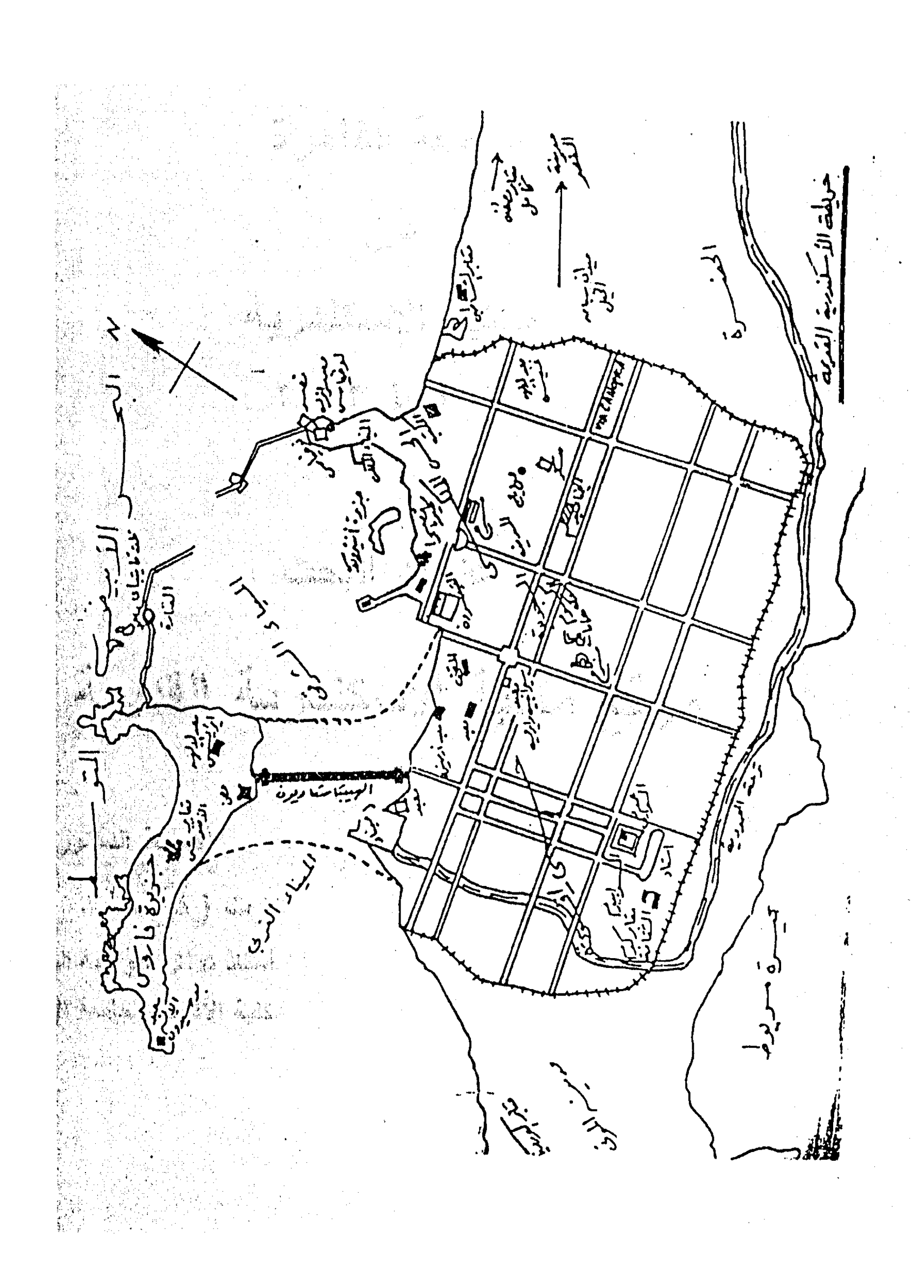
ويظـل التأكيد مستمرا حيث يتحدث المؤرخ أوروسيوس[٢٠] – الذي عاش في القرن الخـامس المـيلادي – عن حرب قيصر في الإسكندرية ، أن الحريق امتد إلى جزء من المدينة أيضـا وأتى على ٤٠٠ ألف كتاب كانت مودعة في بناء قريب وهذا يؤكد أن الحديث كان عن مكتبة الإسكندرية .

وممـا تقدم نرى أن أعداد الكتب التي ذكرها المؤرخون القدامى يتراوح ما بين ٤٠٠ ألـف و ٧٠٠ ألـف كـتاب وهو عدد ليس بالقليل ولا يمكن أن نقتنع أن هذه الأعداد كانت في مخازن الميناء معدة للتصدير والتجارة لأن محتوى مكتبة الإسكندرية في نهاية العصر البطلمى – أي وقـت الحـرب السـكندرية مـع يولـيوس قيصر – كان يقترب من ٧٠٠ ألف كتاب أو مخطـوطة[٢١] . وليس من المعقول أن يكون نفس عدد الكتب الذي تحتويه المكتبة الكبرى قد أعد للتصدير في الميناء ، وعلى ذلك فمن المؤكد أن الحديث كان عن محتوى مكتبة الإسكندرية

الكبـــرى[٢٢] التـــي كانت ليس جزءا من الموسيون وإنما بناء مستقل بذاته ونستشف ذلك من كتابات استرابون[٢٣] عن الموسيون الذي يصفه وصفا تفصيليا ويصمت تماما عن وصف مبنى المكتـــبة الكبـــرى التي كانت قد احترقت أيام يوليوس قيصر ، وما زالت متأثرة بالحريق وقت زيارته لمصر عام ٢٥/٢٤ ق.م[٢٤] .

ونستطيع القول بأن مكتبة الإسكندرية الكبرى كانت تقع في نطاق الحي الملكي وعلى الساحل قبالة جزيرة انتيرودوس الغارقة الآن – والتي تم الكشف عنها في عام ١٩٩٧ على يد بعثة التنقيب المصرية وبعثة المعهد الأوروبي للآثار الغارقة في الميناء الشرقية[٢٥] أي أن هذا الموقع قديما يقابل حاليا المنطقة الواقعة بين مسجد القائد إبراهيم بمحطة الرمل وملاهي كوته فـــي منطقة الأزاريطة . وعلى ذلك فإن الموقع الحالي لمكتبة الإسكندرية (الحديثة) لا يبعد إلا بضـــعة عشـــرات من الأمتار عن موقع مكتبة الإسكندرية الكبرى (القديمة) وبالتالي فقد كانت مكتبة الإسكندرية القديمة قريبة للغاية من المكان الذي عسكر به يوليوس قيصر[٢٦] في مسرح الإســـكندرية البطلمـــي الذي حدده استرابون[٢٧] في كتاباته ، وهى المنطقة الواقعة بالقرب من نـــادى القـــوات المســـلحة والقنصـــلية الإنجليزية سابقا في الجزء الغربي من مستشفى جامعة الإسكندرية (الأميري)[٢٨] .

والأقـــرب إلى التصديق أن مكتبة الإسكندرية كانت تقع في المربع الذي يحده الآن شـــارع ســـوتير شـــرقاً وشارع الجيش (الكورنيش) شمالاً وشارع الإسكندر الأكبر (ش الترام) جـــنوباً ومســـجد القائد إبراهيم غرباً (انظر المخطط) ، وعندما أشعل يوليوس قيصر النار في الأســـطول المصـــري القابـــع علـــى ســـواحل الميناء الشرقية امتدت النيران إلى المستودعات والمخازن ومنها إلى مكتبة الإسكندرية الكبرى مما تسبب في إحداث أضرار بالغة بمبنى المكتبة ــ أكبر صرح ثقافي في العالم القديم ــ مما اعتبره يوليوس قيصر والرومان سبة في تاريخهم، لذا صمتت معظم المصادر القديمة عن تناول سيرة المكتبة الكبرى ووصف مبانيها.


خريطة الإسكندرية القديمة
جزيرة فاروس
الميناء الغربي
بحيرة مريوط

الهوامش

١ – كـــان ديمتـــريوس الفاليـــرى مـــن الشخصيات الفذة التي اشتغلت بالسياسة والفلسفة معا، فقد كان واحدا من الفلاســـفة المشائين الذين أخذوا عن أرسطو نفسه، وله مؤلفات فلسفية وأدبية. وفى مجال السياسة استطاع أن يصـــبح حاكمـــا لأثينا في فترة امتلأت بالفتن والحروب، وبعد سقوط أثينا في عام ٣٠٧ ق.م في يد القائد ديمتـــريوس بـــن انتيجونوس اضطر ديمتريوس الفاليرى إلى الفرار إلى مصر عام ٢٩٥ ق.م ولجأ إلى بلاط الملك بطلميوس الأول الذي اكرم وفادته:

Tarn, W.W., Hellenistic Civilisation, London, 1941, pp. 291f.

٢– Bevan,A.,History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty,London, 1927, pp. 124 ff.

٣– Fraser, P.M., Ptolemaic Alexandria, Vol. I, Oxford,1972, pp. 312 ff.

٤ – عزت قادوس، آثار الإسكندرية القديمة، الإسكندرية، ٢٠٠١، ص ٨٣.

٥– Strabo, Geographika XVII, 8.

٦– Foreman, L.,Cleopatra's Palace.In Search of a Legend,New York, 1999, pp. 49 ff.

٧– Bowman, A.K., Egypt after the Pharaohs, London, 1986, pp. 203 ff.

٨– مصطفى العبادى، مكتبة الإسكندرية القديمة، القاهرة، ١٩٧٧، ص ص ١٢ – ١٦.

٩– Brewer, D.J.& Teeter, E., Egypt and the Egyptian, Cambridge Univ., London, 1999, pp. 188 ff.

١٠– إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة، الجزء الرابع، القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٣١.

١١– Hölbel, G., A Hiotory of Ptolemaic Empire, London, 2001, pp. 50 ff.

١٢– El. Abbadi, M., The life and Fate of the Ancient Library of Alexandria, Unesco, 1990, pp. 91f.

١٣– عزت قادوس، المرجع السابق، ص ١٩٤.

١٤– Caesar, De Bello Civile, III, 111.

١٥– Caesar, De Bello Alexandrino, p.12.

١٦– كتب سينيكا حوالي منتصف القرن الأول الميلادي

Seneca, De Animi. Tranquillitate IX, 5.

١٧– Aulus Gellius, Noct. Attic. VII 17. 3.

١٨– Dio Cassuis, XLII, 38.

١٩– Ammianus Marcellinus,Historia XXII, 16. 13.

٢٠– Orosius, Historiae adversus. Paganos VI. 15. 31.

٢١– Ammianus Marcellinus, Historia XXII, 16. 13.

٢٢– فـــي نهاية حكم الملك بطلميوس الثاني وجد أن المبنى الأصلي للمكتبة الكبرى قد ضاق بما فيه من كتب ومؤلفات مما اســـتوجب إنشـــاء مكتـــبة ثانـــية في معبد السرابيوم (المكتبة الصغرى) وأودع فيها ٤٢،٨٠٠ مجلد، ربما كانت نسخا مكررة رأى نقلها من المكتبة الكبرى أنظر: إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٢٩ وما بعدها.

٢٣– Strabo, Geographika XVII 1. 8.

٢٤- Yoyotte,J., Charvet, P.and Gampertz,S., Strabon. Le Voyage en Egypt, Paris, 1997, pp. 1 ff.

٢٥- Goddio, F. and Others, Alexandria. The Submerged Royal Quarters, London, 1998, pp. 28ff.

٢٦- Caesar, De Bello Civili III 112, 8.

٢٧- Strabo, Geographika XVII 1, 9.

٢٨- Tkaczow, B., Topography of Ancient Alexandria (An Archaeological Map) Travaux du Centre d'Archeologie mediterraneénne de L'Académie polonaise des Sciences, Tome 32, Varsovie, 1993.

٢- القلب والأوعية الدموية وقضية تشريح الأحياء بمدرسة الإسكندرية القديمة

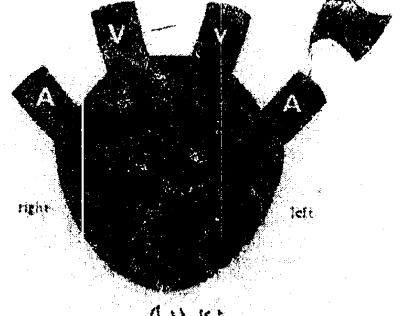
أ.د. محمد صلاح الدين سرور

كلية الطب – جامعة الإسكندرية

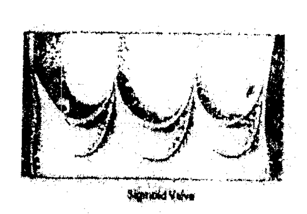
لقد تأثر ايراسيستراتوس بمن سبقه من أطباء – لا سيما براكساجورس – فاعتقد أن الشـــرايين – في الأحوال العادية – لا تحوي دماً بل هواءً – على عكس ما يراه هيروفيلوس– لكـــنه أدرك تناقض هذا المبدأ مع نزول الدم من الشرايين في حالة قطعها أو جرحها ، لذا فسر نزول الدم منها على النحو التالي:

أنـــه عند حدوث الجرح يهرب الهواء من الشرايين تاركاً فراغاً يملؤه الدم القادم من الأوردة المجـــاورة عبـــر الشـــعيرات الدقيقة التي تربط الشرايين بالأوردة التي كانت مغلقة في الظروف العادية وقد أطلق على انتقال الدم من الأوردة إلى الشرايين اسم "الانتقال الجانبي" لكن على الرغم من تبني ايراسيستراتوس لتلك النظرية الخاطئة إلى حد كبير ، فيما يخص محتويات الشـــرايين ، إلا أنه كان لديه فهم أكثر وضوحاً ممن سبقوه لسمات أخرى للنظام الوعائي ولكي نتبين ذلك ينبغي أولاً أن نقدم بكلمة عن المحاولات التي سبقت ايراسيستراتوس لوصف القلب.

لم يكن لدى أبوقراط وسيلة تمكنه من أن يعرف أن القلب عبارة عن مضخة فلم يوجد مـــثل هـــذا النوع من الوسائل في عالمه ولم يكن هناك مثل هذه الكلمة في مفرداته ، ومع ذلك فـــإن عالم تشريح غير معروف – ربما كان يونانياً من صقلية – وله بحث بعنوان "عن القلب" περι καδιας في المجموعة الأبوقراطية وصف فيه تشريحاً أجراه لقلب أحد الثدييات بمهارة غير عادية – حتى أن بعض الباحثين يعتقد أنه قام بتشريح قلب بشري – وعلى الرغم من أنه ذهـــب إلى أن القلب يحتوي على تجويفين فقط– شكل (١-أ) إلا أنه اكتشف فيه مجموعتين من الأغشـــية Sigmoid Valves أو "الصـــمامات السجمية" شكل (١-ب) أسفل الأورطى وكذلك الشريان الرئوي[١] وربما كتب هذا البحث عن القلب في صقلية



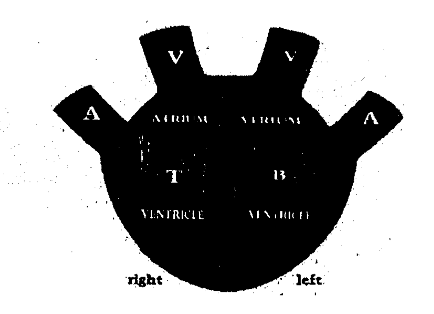
شكل (١ أ)



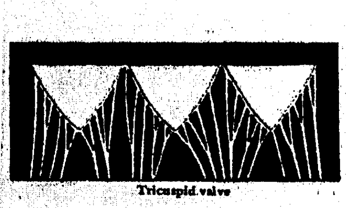
شكل (١ ب)

شريان = A
وريد = V
حوالى عام ٢٨٠ ق.م كان يظن أن القلب بهذه الكيفية الموضحة بالشكل (١أ) وقد اعتقد ذلك عالم تشريح غير معروف؛ والشكل يوضح مقطعاً عرضياً للقلب من الأمام.
المداخل الأربعة تمثل بدايات الأوعية الأربعة الرئيسية ـ الشرايين (A) ـ والأوردة (V) كما كانت معروفة حينئذ؛ ويتكون القلب ـ كما هو موضح بالشكل ـ من جانبين أيمن وأيسر ويفصل بينهما غشاء فاصل إلا أن الانفصال الأفقي لكل جانب إلى أذين وبطين لم يكن معروفاً وكان يُعتقد أن الجانب الأيمن من القلب يحوي الدم والأيسر يحوي الذكاء.
وعند بدايات الشرايين الكبيرة اكتشف عالم التشريح الجيوب الثلاثة والتي تكون "Sigmoid Valve" (الصمام السيجمي) ـ شكل (١ ب) ـ وهو هنا كما يظهر في حالة فتح الشرايين وقد اختبر هذا الصمام بصب الماء فيه.
شكل (١ أ، ب) راجع :
Guido Maino, the Healing Hand Man and Wound in the Ancient World, Cambridge, 1975, fig. 8.15.

وذلك قبل أن يقوم ايراسيستراتوس بنشر بحثه عن القلب ربما حوالي عام ٢٨٠ قبل الميلاد[٢] والمؤلف الآخر الذي جاء بعد أبقراط وقبل ايراسيستراتوس هو أرسطو الذي كان القلب بالنسبة له محل الذكاء وأخطأ حين عد تجاويف القلب الأربعة ثلاثة فقط وفشل تماما في أن يتعرف على الصمامات[٣] لكن الوضع اختلف بمجيء ايراسيستراتوس حيث كان أول من أدرك دور صمامات القلب الأربعة الرئيسية وقد أوضحت مناقشات جالينوس المشتملة على ذلك الجزء من عمل ايراسيستراتوس أنه كان لديه معرفة مفصلة عن كل من تركيباتها ووظائفها[٤] وقد أدرك ايراسيستراتوس وبصفة خاصة أن كل صمام من صمامات القلب الأربعة يعمل في اتجاه واحد؛ لذلك فإن الصمام الثلاثي الشرفات "Tricuspid" في مدخل البطين الأيمن يسمح بدخول الدم لكنه لا يسمح له بالرجوع من الأذين الأيمن والوريد الأجوف ويوجد في قاعدة الوريد الشرياني (الشريان الرئوي) صمام آخر هلالي يسمح للدم بأن ينساب خارجاً تجاه الرئتين لكنه لا يسمح له بالرجوع إلى القلب. بالمثل يوجد صمامان هما -المترالي والأورطي- يتحكمان في السريان داخل الجزء الأيسر من القلب وخارجه وفي رأي ايراسيستراتوس لا يوجد هنا دم يدخل ويخرج بل يوجد هواء (شكل ٢) كذلك أدرك ايراسيستراتوس أن القلب يعمل مثل المضخة ويكون مسئولاً على نحو مباشر عن تمدد الشرايين ؛ وشبّه القلب بمنفاخ ، والشرايين بالأكياس أو الحقائب التي يُضخ إليها الهواء.[٥]



شكل (٢ أ)



شكل (٢ ب)

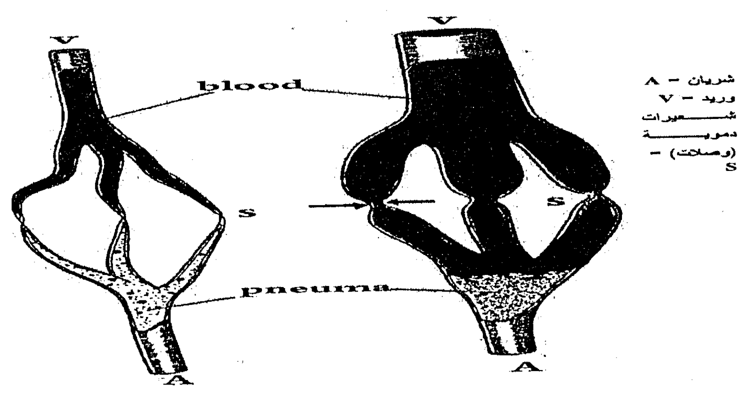
حـــوالى عام ٢٧٠ ق.م أدرك إيراسيستراتوس أن القلب يعمل كمضخة وقد اكتشف أن كل جانب من جانبى القلب مُقسم إلى جزئين؛ جزء علوى (أذين) وآخر سفلى (بطين) وينفصل بعضهما عن بعض عـــن طـــريق صـــمامات ثـــنائية الشرفات (B) وصمامات ثلاثية الشرفات (T) (شكل ٢ ب) وهذه الصـــمامات مكونـــة من شريحتين أو ثلاث شرائح مثلثة الشكل مثبتة فى السطح الداخلى للقلب عن طـــريق أوتار.وعندما ينقبض القلب، تنضغط سوياً وتمنع الدم من العودة إلى الحجرة العليا ومن هنا أدرك إيراسيستراتوس أن القلب يستقبل الدم من الأوردة.

شكل (٢ أ،ب) راجع :

Guido Maino, op. cit., fig. 8.16.

ولـــدى جاليـــنوس فـــي كـــتابه "الخطـــوات التشـــريحية" (٦) نص يعد دليلاً على أن ايراسيســـتراتوس أســـس هـــذه الفرضـــية على نحو تجريبي بواسطة إدخال أنبوبة في شريان مكشـــوف وملاحظـــة أن النبض استمر في الشريان أسفل الأنبوبة وكرر جالينوس تلك التجربة بنفســـه كي يزداد اقتناعاً فحصل عل نتيجة عكسية وادعى أن الشريان أسفل الأنبوبة كان عديم النبض(٧) واستنتج ايراسيستراتوس أيضاً أنه لابد من وجود ممرات تربط بين نهايات الشرايين والأوردة وهـــو مـــا يطلق عليه تفميم مشترك "Synanastomosis" (توصيل) أو مفاومة "anastomosis" (وصـــلات أو فـــتحات موصـــلة) لكـــن على الرغم من أن افتراضه هذا كان صـــحيحاً إلى حد كبير ، إلا أن فكرته عن وظيفة تلك الممرات كانت مختلفة إلى حد ما عن تلك التـــي ننســـبها إلى الشعيرات الدموية، وفي رأيه أن الدم ينساب خلال "anastomosis" في الظروف غير الطبيعية فقط كأن يقطع الشريان أو عندما تعتريه بعض الأمراض، وأن الانسياب يكـــون من الوريد إلى الشريان وليس العكس وفكرة "Synanastomosis" ترتكز – في جزء كبيـــر منها – على الملاحظة التشريحية فقد كان يعتقد أن الشرايين في الحالة الطبيعية تحوي هـــواءً ، لكـــن الدم ينساب على الرغم من ذلك عندما يقطع الشريان. وعلى هذا الأساس فسر الالتهاب "Φλεγμα" والحمى شكل (٣).

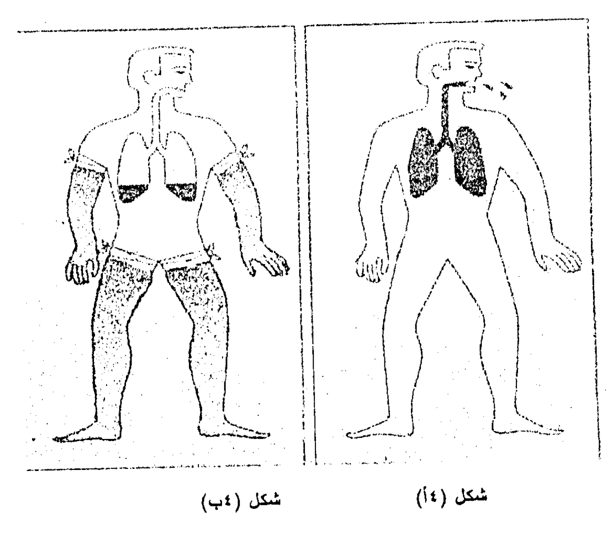
وقـــد كان ايراسيستراتوس يستبعد علاج حالة Plethora "Πλθωρη"(٨) الامتلاء الدموي" عن طريق الفصد خاصة وأنه لم يكن يؤمن بالأخلاط الأربعة، وكان يفضل إيقاف مورد الدم من الجـــذور بالـــربط، وكـــان ذلك يتم بوضع أربطة عند جذور الأطراف ولكن ليس بإحكام شديد ،



شكل (٣)

هذا الشكل يوضح ميكانيكية الالتهاب ومعظم الأمراض من وجهة نظر إيراسيستراتوس
الجانب الأيسر: أوردة في حالتها الطبيعية تحوى دماً، وشرايين تحوى هواء ونهاياتها مغلقة، وهى مرتبطة بقنوات رفيعة تسمى "Synanastomosis"
الجانب الأيمن ؛ يمثل حالة امتلاء دموى "Plethora" فى الأوردة. وفى هذه الحالة تقوم الأوردة بدفع الدم إلى الشرايين خلال تلك القنوات "الوصلات". كما هو موضح بالشكل.
شكل رقم (٣) راجع :

Guido Maino, op. cit., fig. 8.20.



شكل (٤ب) **شكل (٤أ)**

الشكل (٤أ): يوضح حالة المرضى الذين يبصقون الدم لأنهم يعانون من وفرته فى الرئتين.
الشكل (٤ب): تمثل علاج لهؤلاء المرضى من وجهة نظر إيراسيستراتوس ويتم هذا العلاج بوضع أربطة على الأطراف حتى تحجز الدم فيها. وقد نجحت هذه الطريقة فى بعض الحالات.

شكل (٤ أ، ب) راجع:

Guido Maino, op. cit., fig. 8.21.

يعــد عمل إراسيستراتوس متميزاً إذن لربطه بين الملاحظة الماهرة والتأمل البارز ، وهناك بعض الأمثلة على أنه حاول أن يدعم بعض نظرياته عن طريق التجارب المتروية مثال ذلك:

أ - تجربة إدخال أنبوبة في شريان ليفحص النبض.

ب- تجــربة ايراسيستراتوس الأيضية الشهيرة التي نجده فيها يتبنى نظرية تفريغ السوائل غيــر المــرئية التــي يقــذفها الجســم – وهو ما يعرف بالأيض- وقد حاول بالفعل أن يحدد جــدوى ذلك، عن طريق التجريب على طائر حي[١٠] فوزن الطائر في البداية في مكان مغلــق لفترة من الوقت ثم أعاد وزنه مع ما خرج منه من فضلات فوجد الوزن الكلي أقل مما كان في البداية وفسّر ايراسيستراتوس ذلك بان هناك انبعاثاً معيناً لا يدركه إلا العقل؛ وعلى ذلك يمكن اعتبار ايراسيستراتوس رائداً لعلم الفسيولوجيا التجريبية والعملية.

بعــد الاســتعراض الســابق للمدرســة الاستدلالية في الطب – لنظرياتها ، وروادها، وإنجــازاتهم الطبــية – نرى أنه من الضروري دراسة قضية نشأت في هذه المدرسة واعتُبرت ظاهرة تميز بها طب الإسكندرية بصفة عامة وطب المدرسة الاستدلالية بصفة خاصة واختلفت حولها الآراء في المصادر القديمة وهي:

تشريح الجثث وتشريح الأحياء

إن التقدم الذي احرزه هيروفيلوس في علم التشريح والفسيولوجيا يعطي دليلاً واضحاً علــى تقــدم علمي لا يُباري فقد لُقب هيروفيلوس على مستوى العالم بــ "أب التشريح العلمي" وعُــدّ رائــداً في التشريح العلمي المنظــم للأجســاد البشرية[١١] من جهة، ومــن جهة أخرى فــإنّ اتهامــــه بتشريح الأحياء من البشر – وبالذات المسجونين في سجون البطالمة – ألقى عليه إدانة لإنجازاته ؛ فقد كانت تجارب تشريح الأحياء وتجريب العقاقير القاتلة تجرى منذ عهد بعــيد قــبل هيروفيلوس وايراسيستراتوس على الحيوانات بصفة متكررة لكنهما يقفان وحدهما كمثالــين فــريدين للأطباء الذين كانوا يقومون بتشريح البشر أحياء قسراً باسم الكشف العلمي وبــزعم أن ذلــك جائز فــي سبيل الفوائد العظيمة التي يمكن أن تجنيها الأجيال المقبلة مــن الجنس البشري[١٢] ورغم أن تجارب تشريح الجثث وتجارب تشريح الأحياء قد أجريت قبل زمن هيروفيلوس لا سيما على يدي أرسطو، إلا أنها أجريت على الحيوانات وليس على البشر ويبدو أن علمـــاء التشــريح الأوائل دون استثناء قد اعتمدوا أساساً على التشريح المقارن لحيوانات مــتعــددة وقــــد لاحــظ أرسطــو فــي عملــه المسمـــى "Historia Animalium" أن الأجــزاء الداخلــية (للجسم) غير معروفة ؛ خاصة تلك الخاصة بالإنسان ، وبناء على ذلك فإن الفــرد لابــد وأن يرجع إلى أجزاء من حيوانات أخرى لها طبيعة مشابهة للطبيعة البشرية وأن يفحصها[١٣] وهناك أدلة على أن ديوكليس وبراكساجورس – وهما اثنان من أشهر الأطباء في

القـرن الـرابع ق.م – اعـتمدا بالمثل على تشريح الحيوانات ؛ وكان ذلك شيئاً مأثوراً لا عن أسلاف هيروفيلوس فقط وإنما عن علماء تشريح سابقين على العهد الكلاسيكي القديم أيضاً.

وجالينـوس – على سبيل المثال – على الرغم من أنه جاء بعد هيروفيلوس بما يزيد عـن أربعة قرون ورغم شهرته في دراسة الهيكل العظمي البشري اعتمد – إلى حد كبير – في تشـريحه على جثث قرد المغرب "Barbary ape" (قرد شمال أفريقيا الذي بلا ذنب)– وربما علـى تشريح جثة القرد الهندي "Rhesus monkey" – قرد هندي صغير الذيل–[١٤] ، وجل مـا نُقل لنا عن جالينوس من التشريح الذي اصبح معترفاً به ومقبولاً لقرون هو بالتالي وصف للأجزاء الرخوة من القرد كالعضلات والأربطة والأعصاب والشرايين والأوردة والأمعاء والقلب والـرئتين.... الخ وعلى العكس من ذلك نجد تشريح هيروفيلوس يعتمد – إلى حد كبير – على تشـريح الجثث البشرية رغم أنه كان مهتماً بالتشريح المقارن أيضاً[١٥] وأوصافه التشريحية – طـبقاً لذلك – تعطي أمثلة جيدة للدقة الفائقة لكن الاعتبارات الدينية والأخلاقية وتمسك الرهبان والقديسين بالدين؛ هذه العوامل كلها كانت تمنع الغالبية العظمى من أطباء العصر القديم وتحرم عليهم تشريح الجسم البشري. ولعل من الصحيح أن الفتحات الجراحية والاستئصالات المحدودة قـد تكـون إرهاصـات لتشريح الأجسام البشرية الحية عند معظم الأطباء القدماء لكن تشريح الكـائن البشري لم يكن موضوع تفكير، وربما يُعبث بالجثث البشرية أحياناً ومعظم هذه الأعمال تعد – بوجه عام – انتهاكات لقدسية الموتى ، وتعتبر مخالفات دينية وخلقية تستحق العقاب[١٦] إلا أن تشـريح الجثث – وربما تشريح الأحياء – أصبح ممكناً في الإسكندرية في القرن الثالث قـبل الميلاد ومن الواضح أن سبب حدوث ذلك هو اتفاق رغبتي العلماء الشغوفين بالعلم – من أمـثال هيـروفيلوس – والملـوك الـبطالمة مـن مشجعي العلوم ؛ مما أدى إلى التغلب على المحـرمات الدينية فيما يختص بتشريح الجسم البشري. وإذا صح أن ايراسيستراتوس لم يكن يمـارس التشـريح في الإسكندرية بل كان يقوم بذلك في بلاط أنتيوخوس السلوقي فإن ذلك لا يمـنع مـن أن نقول إن المنافسة الشديدة بين السلوقيين والبطالمة والبواعث المتشابهة التي كانـت تدفـع كلـتا الدولتـين إلى تشجيع البحث العلمي، هذه الظروف والدوافع ربما تكون قد ساعدت في أن يمارس ايراسيستراتوس تشريح الأموات بل وربما الأحياء من البشر هناك .

لكـن هـذا الرأي يظل مثار خلاف وجدل، أما ما ورد من تقارير قديمة عن ممارسة هيـروفيلوس تشـريح جـثث البشر فقد قوبلت بحذر شديد من جانب العلماء الذين أشاروا إلى الطبـيعة الراسخة للقيود الدينية وإلى فشل هيروفيلوس في أن يجري تجارب مؤكدة لآرائه لكن البرهان يبقى في صالح الرأي القائل بأنه شرّح على الأقل جثث الموتى من البشر. وتكرار ذكر جاليـنوس لهيروفيلوس إلى أنه مشهور بتشريح الجثث البشرية يمكن أن يعد في حد ذاته دليلاً على أن هذه الأفعال قد أجريت على البشر لا على الحيوانات[١٧]

لكـن هـناك مصادر قديمة مختلفة تذكر بشكل قاطع – لا لبس فيه – أن هيروفيلوس الخالكيدونـي وايراسيسـتراتوس الكيوسيـي قامـا بتشريح جثث البشر؛ وينسب إليهما كل من كلسوس وترتليانوس [١٨] القيام بتشريح الأحياء:

١ – كلسوس "Celsus":

فلقـد نسـب كلسـوس إلى هذين الطبيبين – هيروفيلوس وايراسيستراتوس– القيام بتشريح المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام والذين جلبوا من سجون البطالمة بأمر من الملوك وكـان هـدفهما فحص الأجزاء التي أخفتها الطبيعة لمعرفة لونها، وشكلها وحجمها، وترتيبها، وصـلابتها أو نعومتها ورقتها، وارتفاعها أو انخفاضها، والصلات بينها وبين الأجزاء الأخرى حـيث يقـول كلسـوس في كتابه "De medicina" إن الاستدلاليين اعتقدوا أنه طالما أن الآلام وأنـواع متعددة من الأمراض تنشأ في الأجزاء الداخلية ذاتها[١٩] ؛ لذا فمن الضروري تشريح أجساد الموتى وفحص أحشائهم وأمعائهم، ويروى أن هيروفيلوس وايراسيستراتوس قاما بذلك علـى أكمـل وجه بتشريحهم أجساد المسجونين الأحياء الذين تلقوهم من الملك[٢٠]، وبالإضافة إلـى ذلـك يخبرنا كلسوس أن الاستدلاليين – وهيروفيلوس من بينهم – قد دافعوا عن وجهة نظـرهم هـذه ضد تهمة الوحشية بادعائهم أن الخير يفوق الشر في عملية تشريح المجرمين وأنهم يفعلون ذلك من أجل وضع دواء لأمراض الأبرياء[٢١].

٢ – ترتليانوس "Tertullianus" :

هو كاتب مسيحي عاش بعد كلسوس بنحو قرن من الزمان ويعد نصه دليلاً أخراً على قضية تشريح الأحياء[٢٢] عندما يصف هيروفيلوس بقوله: "أنه الطبيب – أو بالأحرى الجزار – الـذي شرّح عدداً مهولاً من أجساد البشر بهدف فحص طبيعتها، والذي بَغَضَ الجنس الإنساني من أجل المعرفة[٢٣].

ويضـيف ترتليانوس قـائلاً: "إنني لا أعرف ما إذا كان هيروفيلوس قد فحص بدقة الأجـزاء الداخلية للجسم أم لا ، لأن ما كان حياً في الماضي يغيره الموت ، الموت الذي يعتبر جريمة وهو الموت الناتج عن عملية التشريح لا الموت الطبيعي"[٢٤].

ومن الواضح من تعليق ترتليانوس الإضافي هنا أنه يشير إلى تشريح الأحياء بوصفه المـوت غير الطبيعي "morte non simplici" وبينما لم تثر قضية تشريح الجثث كثيراً من الشـك ؛ أثـارت رواية كل من كلسوس وترتليانوس – بصدد تشريح الأحياء – شكاً كبيراً في مصداقيتها ولاقت اعتراضاً من عدد من الباحثين وتركز اعتراضهم في أربع نقاط:

الاعتراض الأول:

يـرى بعـض الباحثـين أنـه مـن غير المعقول القيام بتشريح أحياء من البشر في الإسـكندرية، وقـد ردّ بعض العلماء على هذا الاعتراض بقولهم أنه توفرت لمدينة الإسكندرية

ظروف خاصة ، تختلف فيها عن غيرها من المدن الإغريقية سمحت بممارسة تشريح أجساد البشر علاوة على أنه على الرغم من احترام القدماء للجثث؛ فإن ذلك لم يمنع العبث بها ؛ أما بخصوص المسجونين فنحن نعلم أنه قد تم تعذيب المتهمين في المحاكم للحصول على اعترافات منهم منذ القدم ، ويروي جالينوس ما قام به مثريداتيس السادس، وأتالوس الثالث خامس ملوك برجاموس من تجربة سموم مختلفة على المسجونين(٢٥) بالإضافة إلى أن أرسطو يذكر – أكثر من مرة – أنه تم بتر أجزاء من الأجساد الحية حتى يتبين المشكلات الفسيولوجية الناتجة عن ذلك بالتجربة العملية.(٢٦)

الاعتراض الثاني:

علـى قضية القيام بتشريح أحياء بمدرسة الإسكندرية يستند إلى صمت جالينوس عن هـذه القضـية ، فعلى الرغم من أنه لم يُشرّح سوى خنازير وقردة ؛ فإنه لم يتعرض لتشريح الأحـياء فـي عصـر هيروفيلوس وإيراسيستراتوس بصورة أو بأخرى وكان كل ما ذكره أن هيـروفيلوس: "قـام بممارسـة التشـريح على الإنسان نفسه لا على الحيوان كما يفعل معظم الأطباء" (٢٧).

وقـد كـان الرد على هذا الاعتراض مبنياً على تفسير صمت جالينوس الذي يجب ألا يـؤخذ كدلـيل علـى عدم صدق المقولة ؛ فربما علّق جالينوس على هذا وفقد تعليقه، أو ربما فقـدت المقالـة التي ورد بها ذكر تشريح الأحيـاء ، والتي استخدمها كلسوس الذي يفصـل بينـه وبـين جاليـنوس حوالي قرن وربـع القـرن مـن الزمـان وعبـارة جالينـوس " ἀλλ' ἐπ' αὐτων των ανθρωπων " فضلاً عن ذلك عامة ؛ ويحتمل أن تشمل بشر حي إذ لـم يقـم جالينوس بتحديد أو وضع صفة لكلمة "إنسان" ανθρωπων ونظراً لأنها تقابل كلمة "إنسـان حـي" باللاتينـية homo ، فمن الممكن أن تشير بالتحديد إلى الأحياء ؛ وربما يرجع انشغال جالينوس عن التحديد هو انشغاله بالتركيز على المقابلة بين " ἀνθρωπων" & "ἀλογων ζωων" فبينما نرى أنه إذا كانت ζωων الأولى تعني الحيوان الحي ؛ فإن كلمة ανθρωπων تشير إلى الإنسان الحي.

الاعتراض الثالث :

يشـير إلـى أن الاتهام نفسه قد وجه إلى كل من أرخاجينيس وجالينوس ، وهو قطعاً غير صحيح في حالة هذين الطبيبين(٢٨).

إلا أنـه يجـب ألا يؤخذ وجود الاتهام في مرحلة سابقة دليلاً على عدم وقوع تشريح الأحياء في مرحلة مبكرة.

الاعتراض الرابع :

يقـول أصحابه : لو أن هيروفيلوس وايراسيستراتوس شرّحا بالفعل أحياءً من البشر لمـا وقعـا فـيما وقعـا فيه من أخطاء؛ ولما أهملا ملاحظة أشياء كثيرة وكان الرد على هذا الاعتـراض مبنياً على اختلاف رؤية كل عصر عمّا سبقه واختلاف اهتماماته وتوجهاته ؛ فمن الأخطـاء التي يقول بها أصحاب هذا الاعتراض الاستمرار في الاعتقاد بأن الشرايين لا تحوي دمـاً بل هواءً لكن الرد على ذلك هو أن تشريح الحي من الحيوان كان موجوداً قبل جالينوس ، ومـع ذلـك استمر هذا الاعتقاد موجوداً حتى القرن الثاني الميلادي حين اكتشف جالينوس أن الشرايين تحوي دماً.

وتظـل قضية تشريح الأحياء بمدرسة الإسكندرية الطبية بدون حسم ويظل التساؤل قائماً إذا مـا كان هيروفيلوس وايراسيستراتوس قاما بالفعل بتشريح بشر أحياء أم لا وإن كنت أؤيد الآراء التي عارضـت – وورد ذكـرها سابقاً – وجود تشريح لبشر أحياء بمدرسة الإسكندرية الطبية إلا أنني أميل إلـى تأيـيد وجـود تشريح لجثث بشرية في مدرسة الإسكندرية الطبية نظراً لوجود الرعاية البطلمية والتشـجيع البطلمـي للبحث العلمي حيث وفر البطالمة البيئة المناسبة للعلماء ولا سيما في الطب وذلك بتوفير الجثث البشرية – جثث المحكوم عليهم بالإعدام في سجون البطالمة – وتقديمها لعلماء التشريح بمدرسة الإسكندرية القديمة لإجراء البحوث العلمية عليهم. ونظراً لأن القضية شائكة وبها من الثغرات الكثير فاتركها نقطة مطروحة لمزيد من البحث والتقصي.

وبعـد أن أشـرنا – فـيما سبق – إلى وضع مدينة الإسكندرية المتميز الذي شجع على قيام تشـريح البشر بها لأول مرة في التاريخ ، يدفعنا هذا الوضع المتميز إلى التساؤل عن مصير التشريح بعد العالمين الجليلين هيروفيلوس وايراسيستراتوس.

فـنجد أن التشريح لم يستمر بعد هذين الطبيبين في الإسكندرية ؛ ويؤيد ذلك ما ذكره روفوس – طبيب القرن الأول الميلادي – في مقدمة كتابه عن تسمية أعضاء الإنسان حيث يذكر أنـه –مـن أجـل تعليم تلميذه الأعضاء الداخلية– عليه أن يشرّح حيواناً قريباً من الإنسان ، ويتحسّـر علـى الماضـي عندما كانوا يقومون بتدريس ذلك على الإنسان لا على الحيوان[٢٩] ونرى هذا الأمر أيضاً في نبذ الهيروفيليين لتشريح الجسم البشري ، وربما يرجع ذلك إلى عودة قـوة المعـتقدات الدينـية مرة أخرى وما مرت به البلاد من عدم استقرار اجتماعي وسياسي صحبه شعور العلماء بعدم الأمان وبزوغ نجم المدرسة التجريبية في الطب التي رأت في تشريح البشر – واستخدامه كوسيلة لمعرفة ما بداخل الجسم البشري – مسألة غير ضرورية لا حاجة لهـا عـند وصف العلاج ؛ وكان لهذه المدرسة شأن كبير في الإسكندرية ومن ثم اتجه أطباء الإسـكندرية إلـى شرح المؤلفات وتفسير الكلمات الغامضة وهما شيئان لقيا احتراماً واهتماماً أكبر من قبل الباحثين في مدرسة الإسكندرية منذ ذلك الحين.[٣٠]

الهوامش

١- Guido Maino,The Healing Hand Man and Wound in Ancient World, Harvard University press, 1975, p.329.

٢- Lonie, I.M., The Paradoxical Text "On the Heart " Medical History, 17, Part II, 1973, p.152.

٣- Singer, C., A short History of Anatomy and Physiology from the Greeks to Harvy, New York, 1927, pp. 19-20; Lonie, I.M., op.cit. part I,p.8,p.11.

٤- James Longrigg, p.94.

٥- G.E.R., Lloyd, Greek Science After Aristotle, U.S.A., 1973, p.94 .

٦- Galen, On Anatomical Procedures, VII, Ch. 16.

٧- يمكن أن نستنتج أن تجربة ايراسيستراتوس كانت حقيقية لأن النتيجة التي حصل عليها تتفق مع الواقع - بخلاف نتيجة جاليـنوس- وعليه يمكن أن نعتبر ايراسيستراتوس رائداً للفسيولوجيا التجريبية العملية وبالتالي الرائد الحقيقي لعلم الفسيولوجيا.

٨- فسر ايراسيستراتوس حالة الامتلاء الدموي - عندما يصبح الدم غزيراً جداً في الجسم (حالة ارتفاع ضغط الدم) - باختلال التوازن في الطعام والرياضة.

٩- Guido Maino, op.cit.,p.336.

١٠- G.E.R., Lloyd, op. cit., p. 85.
Cf. Guido Maino, op. cit., p. 326

١١- أنظر على سبيل المثال:

Sarton, G., A History of Science, Cambridge, 1952, Vol. I, p.159
Cf. Potter, P., "Herophilus of Chalcedon", BHM, 50, 1976, p.59.

نجد Potter يقول:

قـام هـذا الفرد الواحد "Herophilus" باكتشافات جوهرية في كل جهاز من أجهزة الجسم تقريباً وكذلك زعـم Potter فـي p.46 بـأن "Herophilus" كان قد اصبح قبل عصر ترتليانوس "العالم بالتشريح" بنفس الطريقة التي لقب بها هوميروس "بالشاعر".

وبالمثل نجد "Lloyd" يلقب هيروفيلس وايراسيستراتوس بأهم علماء البيولوجيا ويضيف أنهما يمثلان أعلى علامة في بيولوجيا إسكندرية. أنظر:

G.E.R., Lloyd, op.cit., p. 75 & p. 85.

١٢- Heinrich Von Staden, p. 139.

١٣- Aristotle, Historia Animalium, 1.16. 494 b 21-24.

١٤- يقول جالينوس في:

Galenus, De Anatomici Administrationibus, 1.2 (II, pp. 222-223 K).

... أنـه اخـتار للتشـريح تلـك القرود ذات الأنياب الصغيرة التي تشبه الإنسان إلى حد كبير، ووجد أن أجزائها الأخرى مشابهة لتلك التي في الكائنات البشرية حيث يمكنها أن تمشي وتجري على قدميها.

١٥- حـيث يقـارن هيـروفيلوس أكثر من مرة الأعضاء البشرية بالأعضاء الحيوانية ويذكر الأرانب الوحشية وحيوانات أخرى معينة.

Heinrich Von Staden, op. cit., p. 140.

١٦- لكـن مـن المعتقد أن هذه المحظورات كانت ترتكب من حين لآخر، وأن القيود والجزاءات الدينية لم تكن تنطـبق بأي حال على جثث المجرمين أو الخونة ، أو الأجساد التي توجد ملقاة في جانب الطريق . وفيما يخص ذلك أنظر:

Neuberger, M., Die Geschichte der Medizin, Stuttgart, 1906, p. 221.

١٧- Heinirich Von Staden, op. cit., p. 142.

١٨- عند التعامل مع المصادر القديمة مثل كلسوس وترتلياتوس يجب أن نضع في الاعتبار الفترة الزمنية بينهم وبـين هيـروفيلوس وايراسيستراتوس حيث كانت طويلة جداً تصل إلى ما يقرب من خمسة أو ستة قرون ولذلك يشك في مصداقيتها حيث أننا لا نجد من قام بتشريح الأحياء ممن هو قريب العهد بهما.

١٩- Celsus, De Medicina, Proem., Ch. 24.

٢٠- Ibid., Ch. 23.

٢١- Ibid., Ch. 26.

٢٢- يجب أن نأخذ دليل ترتليانوس بعين الاعتبار ، لأنه – شأنه شأن معظم المؤلفين الكنسيين – معارضاً بشدة للـبحث العلمي الذي يقوم به العلماء الوثنيين مثل هيروفيلوس، ولم يحجم عن الانتقاص من عملهم، وأدت عداوتــه هــذه بــبعض الباحثين إلى عدم تصديق عبارته بشأن تشريح هيروفيلوس لجثث وأجساد البشر أحياء واعتبروها هجوماً عنيفاً مشوهاً لعمل الآخرين بهدف إلى إحداث ضجة وإثارة الرأي ضدهم.

٢٣- Terullianus, De Anima, 10-11. (p. 13 Waszink, J.H., 1974).
"Herophilus ille medicus, aut Lanius, qui Sexcentos exsecuit, ut naturam scrutaretur, qui hominem adiit, ut nosset".

٢٤- Ibid., 12-14.
"nescio au omnia interna eius Liquido explorarit, ipsa morte mutante quae vixerant et morte non simplici, sed ipsa inter artificia exsectionis errante".

٢٥- وجاليـنوس في كتابه (De Antidotis, I.I (XIV, p. 2 K). يقرر بأن ميثريداتيس السادس ، وأتالوس الـثالث آخــر ملــوك برجاموس كانا مهتمان جداً بالمواد السامة واعتادا أن يجربا الترياق على المجرمين الذين كانوا يُرسلون من سجون البطالمة للعمل في مناجم الذهب في الصحراء الشرقية.

٢٦- Aristotle, De Resperatione, 9.47lb 19 ff.; De Progressu Animalium, 8.708 b 4 ff.; Historia Animalium, 3. 12.519a 25 ff.

٢٧- Galenus, De Uteri dissectione 5 (CMG V 2.1).
Και την Πλωειστην έπιχνωσιν οὐK έπαλογων ζωων, Καθαπερ οί πολλοι, ἀλλ' έπ' αυτων των ανθρωπων πεποιημενος.

٢٨- Fraser, P.M., Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972, p.349.

٢٩- Rufus of Ephesus, On the Naming of the Part of Man,10 (p.134 Daremberg / Ruelle).

٣٠- Heinrich Von Staden, op. cit., pp. 151-152.

٣- رسالة الإسكندرية إلي العالم

سلام ووئام لكل الأقوام

أ.د. محمود السعدني

أستاذ التاريخ القديم

كلية الآداب – جامعة حلوان

تقديم :

أولاً : العطاء المتميز للحضارة المصرية عبر آلاف السنين : ويمكن

أ- إعلاء قيمة العمل ، والتعليم أساس المكانة المتميزة في المجتمع .

ب- الحق والعدل (معات) هما أساس الملك ، وهما الإله ، وأمل الإنسان .

ج- الخلود الدائم لكل إنجاز والحرص عليه عند كل المستويات صغاراً وكباراً .

د- ثبات أخلاق الأسرة وسمو العلاقات بين أطرافها : الود والمحبة ، والنجدة ، والتسامح والإيمان ... الخ [١] .

ثانياً : شهادة التاريخ :

ويذكر التاريخ ، في سجلاته الخالدة ، واقعة نبوءة مقدسة (علي الطريقة الرومانية في اسمها (سيبيللية : Sibyllian) ، ومصرية في روحها ، ويونانية في فكرها وصياغتها ؟!!! ، ظهرت بعنوان " السيدة: Despoina " حيث تدعي فيها الملكة كليوباترا ، عقب فشلها الذريع بعد مقتل زوجها (؟!) القائد الروماني العظيم . يوليوس قيصر عام ٤٤ ق.م ، في محاولة أخيرة لكسب التأييد الشعبي الخامد ، غير العابئ بما يجرى في الإسكندرية ، حيث تتجمع كل خيوط الانكسار المقدوني ، وتغيم كل سحب الهزيمة وفقدان الأمل ، في أى عمل ، ضد الجبروت الروماني الفاعل الذي بات يهدد حياة الملكة نفسها (!!!) وما هذه النبوءة سوى محاولة ذكية للالتفاف حول الأهداف ، ومحاربة الرومان حرباً خفية ، دونما مواجهة فعلية وفيها تتنبأ الملكة (السيدة؟!!) بشيئين :

أ- القضاء علي روما .

ب- تحقيق ازدهار شامل لكل الناس ، حيث ستكون " فاتحة عصر ذهبي" !- كما قال أيدرس بل [٢]. فيه مظاهر إيجابية – كما جاء في نص النبوءة الخادعة كالتالي :

١. " سوف يخيم الهدوء والسلم علي جميع ربوع الأرض الآسيوية " .
٢. " وسوف تعم السعادة أرجاء أوروبا " .
٣. " سيسود نظام شامل ، وعدل لكل الناس عامة " .

٤. " كمـــا سيسـود الوئام المصحوب بالاعتدال ، وكذلك المحبة ، والصدق ، والأمانة ، والإخلاص" .

بيـــنما سيختص ، من العالم الموعود في النبوءة ، كل مظاهر الشرور والآثام – مثل (كما جاء في سطور النبوءة) :

١ – شبح الفقر والعوز	٢ – الضيق	٣ –استباحة القوانين
٤ – انتهاك الحرمات	٥ – العار	٦ – الغضب
٧ – الحماقة	٨ – سفك الدماء	٩ – الخصام
١٠ – المنازعات والمشاحنات	١١ – السرقات الليلية	

والغريب في الأمر – بنظرة إحصائية [٣] أن نجد تساوى كفتي الايجابيات مع السلبيات (Ta Kata Kai ta hyper) لهذا العصر الموعود فيَ النبوءة السكندرية (المصرية) إنها رسالة الحب ، والوئام والسلام – العادل / الشامل – لكل الأقوام سواء في آسيا أو أوروبا . والحق أن كيلوباترا ، آخر حفيدة مقدونية لم تكن تسعى أبداً لصالح أى إنسان آخر غير ذاتها وحدها هي فقط ، ولم يكن يشغل بالها سوى مصالحها هي وحدها فقط ، وكانت أهدافها تتمحور حول:

أ– المحافظة علي مملكتها علي أرض مصر ، إن لم تقدر علي توسيعها .

ب– ضمان عرش تلك المملكة وراثياً في أبنائها .

ج– استخدام حب انطونيو لها (فيما بعد) لتحقيق أغراضها السياسية [٤] .

ومـــن ثم ، لا نتوقع ، بل ولا نعتقد ، أن بواعث كليوباترا ، وراء هذه النبوءة ، كانت حقيقية أو صادقة ، بل خادعة ، لتضمن بها أقصي درجات الدعم والمساندة الشعبية الضرورية لحربها مع الرومان !!!

وليس أولي برعايتها من أقرب الناس إليها (؟!!) :

١– زوجها وأخوها ، بطليموس الثالث عشر ، الذى حاربته وتسببت في مقتله ؟!!

٢– أختها التى تركتها تلقي مصيرها كأسيرة بين يدى أوكتافيانوس ؟!!

٣– زوجها القائد الروماني الشهير ، أنطونيوس (والد أطفالها) الذى تركته لمصيره أمام خداع القائد المنتصر أوكتافيانوس ؟!!

فهل بعد كل ذلك من يدافع عنها ويصدق ادعاءاتها ؟!!

إذا كـــان هـــو ميـــروس[٥] (في القرن ٩ق.م) – قد وصف مصر قائلاً : " وراجعاً إلي مصر، إلي النهر الصادر عن الله" .

وإذا كـــان هيرودتوس (في القرن ٥ق.م) أكد علي ملكية المصريين لتلك الأرض حول النيل وأن مصر ، هي أيضا ، هبة النيل: (Kaidōron tōu neilou...)، أى أنها – بنص كلماته[٦] – هـــي أرض مملوكة للمصريين وهبة النيل ، وليست كما أرادها بعض الحاقدين ، والحاسدين،

مجـرد بلـد مـن نـتاج مياه الفيضان ، وحضارة تكونت بفضل النيل ، إنكاراً لفضل الإنسان المصري ودوره الرائد عبر كل العصور [٧] .

فـإن سترابون (أواخر القرن (١)ق.م) صاحب أقدم نص باقي لشاهد عيان قد جعل كتابه عن مصـر ، حـول الإسـكندرية [٨] (Alexandreia) وذلـك لأسـباب رآها هو شخصياً - جديرة بالملاحظة ومنها :

١- ملائمة المكان ويمن الطالع في الفأل الحسن منذ تخطيطها زمن الإسكندر .

٢- ملائمة الموقع بين بحرين ، في الشمال والجنوب .

٣- كثرة الصادرات المصرية وغلبتها على الواردات .

٤- طيب الهواء، واكتناف الإسكندرية بالماء وهبوب الرياح الموسمية الشمالية [٩] .

أمـا عن سكانها القدماء ، فيقول سترابون نقلاً عن بوليبيوس في شهادة مشكوك[١٠] فـي موضوعيتها وبواعث مفرداتها وأوصافها - " إن المدنية كان يسكنها ثلاث فئات ، الأولي المصـريون وهـو العنصر الوطني ، وهم حادو الطباع وغير مدنيين ، والثانية هي فئة الجند المرتـزقة ، وقـد كانـوا غلاظـاً ، كثيـرين ، لا يسـهل انقيادهم ... والفئة الثالثة ،من أهل الإسكندرية ، وما كان هؤلاء آخذين بأسباب الحياة المدنية ، بشكل واضح لهذه الأسباب نفسها ولكـنهم كانـوا ، مـع ذلك ، أفضل من الآخرين : فمع أنهم كانوا خليطاً إلا أنهم كانوا يونانيّ الأصل ، يحافظون على العرف المشترك بين اليونانيين"[١١] .

ولنا هنا وقفة صغيرة لنستغرب خبراً صغيراً ، جاء سريعاً جداً عند سترابون ، إلا أنه فـي قمـة الخطـورة والأهمية الاجتماعية، وكذلك السياسية ، حيث يؤكد هذا المؤرخ اليوناني (الضـيف المدعـو المشمول بكرم وضيافة الوالي الروماني علي مصر آيليوس جاللوس) بأن شـعب الاسـكندرية اليوناني (الفئة الثالثة حسب تقسيمه استنادا إلي رواية بوليبيوس) قد فنى وانتهـي علـي يد الملك البطلمي يوارجيتيس (Euergetes II) الثاني ، الملقب ب"فوسكون"[١٢] وذلـك لسـببين اثـنين [١٣] في تقديره وتحليله لهذه الظاهرة الغريبة ، لاختفاء طبقة اجتماعية سـكانية في أكبر وأخطر مدينة في مصر كلها ، مقر الحكم البطلمي ، دون أن ندرى التفاصيل، علماً بأن الوجود اليوناني - من بعد ذلك في الأسكندرية ذاتها - يؤكد خلاف هذا الخبر الخطير.

١- معارضة الشعب السكندرى للملك

٢- بطش الجنود الحكوميين، بناء علي أوامر ملكية، بهذه الفئة بالتحديد فأهلكتها!!!

فهـل كـان هذا الإخبار الغريب (؟!!) من قبيل التهديد بسوء العاقبة للمخالفين، غير الطائعين للسلطة والسلطان ، حتي يخروا ساجدين ومذعورين للسيد الروماني الجديد ؟!!! وهل هـذا الاختيار الذكي الماكرمن سترابون عن مؤرخ أقدم - يوناني كذلك وله قدمه الراسخة بين أسـياده الـرومان أيضـا - يمكن أن يوحي لنا ، بما فعله بوليبيوس عامداً متعمداً في رواياته

وتكنيكه ، في الكتابة التاريخية إبان العصر الهلليني، حيث كثرت الإشارات والتلميحات إلي "تغيرات الحظ"[14] (Tyche metabolas) ، وسوء العاقبة ، كنوع من أسلحة السياسة والقهر الفكرى لجموع الرعايا !!! .

ومع هذا كله ، يقر سترابون بأن الاسكندرية ، علي عهده (أواخر القرن الأول ق.م) ، كانت هي الميناء الوحيدة الصالحة في مصر للتجارة الخارجية والداخلية معاً[15] ، وهي بحق أكبر سوق في المعمورة[16] .

ومع هذا الخليط العجيب من البشر الذين يسكنون الاسكندرية القديمة ، كان علي الحاكم (الملك--أو الملكة) أن يتخذ من التدابير ، والاجراءات لكي ينظم حياة كل أولئك لينعم هو، أولاً، ثم بقية المواطنين والرعايا ، ثانياً ، بالأمن والاستقرار ، وحتي تدوم حركة التبادل التجارى كأهم عمل من أعمال المدينة المركزية والعاصمة السياسية . ولقد أجاب لنا أستاذنا الكبير الدكتور/ مصطفي العبادى ، في دراسة وثائقية بردية عن هذا السؤال ، وقدم لنا صورة تنبض بالحياة لمجتمع الإسكندرية آنذاك ، منذ العصر البطلمي وحتي القرون الميلادية الأول في ظل الاحتلال الروماني[17] .

ولعل ما قال به عاشق سكندرى لمدينته ، حوال عام ٢٠٠ق.م مبيناً مكانتها العالية بين الأمم والمدن الأخرى العالمية ، وأن الأسكندرية هي العالم ، وما المدن الأخرى إلا ضواحي لها ، كما ذكر تارن : –

Alexandria is The world : The whole earth is her city-land, and other cities only her villages . [18]

لقد كانت الإسكندرية بحق ، وليس إدعاءً من أحد مواطنيها فحسب ، كان متيماً[19] بها، بل باعتراف سترابون نفسه ، هي أعظم ، وأجمل ، وأغني مدينة في العالم القديم ، أى وبلفظه هو – في المعمورة كلها (Tes oikoumenes) .

لقد أقدمت المرحومة (؟!!) كليوباترا علي أن تبحث عن مخرج لها – من ورطتها السياسية التي تسببت هي فيها بطمعها وطموحها عقب مقتل سيد العالم وزوجها الذى ضن بالاعتراف بها رسمياً كزوجة شرعية (؟!!) الإمبراطور/ الدكتاتور يوليوس قيصر عام ٤٤ ق.م، وتخلي الحظ عنها ، فوجدت ضالتها في نبوءة دينية ، بعد أن فكرت ودبرت ، وأحكم لها الكهنوت المأجور التفاصيل فتخيرت فخرجت إلي الناس بأخبار قد فُصّلت ، وأمان وأحلام صيغت بإحكام فأثرت ، واختارت نغمة السلام والوئام فأحسنت ، وعن فهم عميق بالبلاد والعباد قد عبرت ، ولكنها عن الأوضاع المتردية قد حوت ، وعن العزائم المنهارة قد وشت وبصّرت .

Ο ΟΡΚΟΣ ΤΟΥ ΜΕΓΑΛΟΥ ΑΛΕΞΑΝΔΡΟΥ
(ΩΠΙΣ 324 π.Χ.)* - ωπιδα -324

1- «ΣΑΣ ΕΥΧΟΜΑΙ, ΤΩΡΑ ΠΟΥ ΤΕΛΕΙΩΝΟΥΝ ΟΙ
2- ΠΟΛΕΜΟΙ, ΝΑ ΕΥΤΥΧΗΣΕΤΕ ΜΕΣΑ ΣΕ ΕΙΡΗΝΗ·
3- ΟΛΟΙ ΟΙ ΘΝΗΤΟΙ ΑΠΟ ΕΔΩ ΚΑΙ ΠΕΡΑ, ΝΑ
4- ΖΗΣΟΥΝ ΣΑΝ ΕΝΑΣ ΛΑΟΣ, ΜΟΝΙΑΣΜΕΝΟΙ, ΓΙΑ
5- ΤΗΝ ΚΟΙΝΗ ΠΡΟΚΟΠΗ. ΝΑ ΘΕΩΡΕΙΤΕ ΤΗΝ
6- ΟΙΚΟΥΜΕΝΗ ΠΑΤΡΙΔΑ ΣΑΣ, ΜΕ ΚΟΙΝΟΥΣ
7- ΝΟΜΟΥΣ, ΟΠΟΥ ΘΑ ΚΥΒΕΡΝΟΥΝ ΟΙ ΑΡΙΣΤΟΙ,
8- ΑΝΕΞΑΡΤΗΤΑ ΑΠΟ ΤΗ ΦΥΛΗ ΤΟΥΣ. ΔΕΝ ΧΩΡΙΖΩ
9- ΤΟΥΣ ΑΝΘΡΩΠΟΥΣ, ΟΠΩΣ ΚΑΝΟΥΝ ΟΙ
10 ΣΤΕΝΟΜΥΑΛΟΙ, ΣΕ ΕΛΛΗΝΕΣ ΚΑΙ ΒΑΡΒΑΡΟΥΣ.
11 ΔΕΝ ΜΕ ΕΝΔΙΑΦΕΡΕΙ Η ΚΑΤΑΓΩΓΗ ΤΩΝ ΠΟΛΙΤΩΝ
12 ΟΥΤΕ Η ΡΑΤΣΑ ΠΟΥ ΓΕΝΝΗΘΗΚΑΝ. ΤΟΥΣ
13 ΞΕΧΩΡΙΖΩ ΜΕ ΕΝΑ ΜΟΝΟ ΚΡΙΤΗΡΙΟ, ΤΗΝ ΑΡΕΤΗ.
14 ΓΙΑ ΜΕΝΑ ΚΑΘΕ ΚΑΛΟΣ ΞΕΝΟΣ ΕΙΝΑΙ ΕΛΛΗΝΑΣ,
15 ΚΑΙ ΚΑΘΕ ΚΑΚΟΣ ΕΛΛΗΝΑΣ ΕΙΝΑΙ ΧΕΙΡΟΤΕΡΟΣ
16 ΑΠΟ ΒΑΡΒΑΡΟ. ΑΝ ΠΟΤΕ ΣΑΣ ΠΑΡΟΥΣΙΑΣΘΟΥΝ
17 ΔΙΑΦΟΡΕΣ, ΔΕΝ ΘΑ ΚΑΤΑΦΥΓΕΤΕ ΣΤΑ ΟΠΛΑ,
18 ΠΑΡΑ ΘΑ ΤΙΣ ΛΥΝΕΤΕ ΕΙΡΗΝΙΚΑ. ΣΤΗΝ ΑΝΑΓΚΗ
19 ΘΑ ΣΤΑΘΩ ΔΙΑΙΤΗΤΗ ΣΑΣ. ΤΟΝ ΘΕΟ ΔΕΝ ΠΡΕΠΕΙ
20 ΝΑ ΝΟΜΙΖΕΤΕ ΣΑΝ ΑΥΤΑΡΧΙΚΟ ΚΥΒΕΡΝΗΤΗ,
21 ΑΛΛΑ ΣΑΝ ΚΟΙΝΟ ΠΑΤΕΡΑ ΟΛΩΝ, ΩΣΤΕ Η
22 ΔΙΑΓΩΓΗ ΣΑΣ ΝΑ ΜΟΙΑΖΕΙ ΜΕ ΤΗ ΖΩΗ ΠΟΥ
23 ΚΑΝΟΥΝ ΤΑ ΑΔΕΛΦΙΑ ΣΤΗΝ ΟΙΚΟΓΕΝΕΙΑ. ΑΠΟ
24 ΜΕΡΟΥΣ ΜΟΥ ΘΕΩΡΩ ΟΛΟΥΣ ΙΣΟΥΣ, ΛΕΥΚΟΥΣ
25 ΚΑΙ ΜΕΛΑΨΟΥΣ. ΚΑΙ ΘΑ ΗΘΕΛΑ ΝΑ ΜΗΝ ΕΙΣΤΕ
26 ΜΟΝΟ ΥΠΗΚΟΟΙ ΤΗΣ ΚΟΙΝΟΠΟΛΙΤΕΙΑΣ ΜΟΥ, ΑΛΛΑ
27 ΜΕΤΟΧΟΙ ΟΛΟΙ ΚΑΙ ΣΥΝΕΤΑΙΡΟΙ. ΟΣΟ ΠΕΡΝΑ
28 ΑΠΟ ΤΟ ΧΕΡΙ ΜΟΥ, ΘΑ ΠΡΟΣΠΑΘΗΣΩ ΝΑ
29 ΣΥΝΤΕΛΕΣΤΟΥΝ ΑΥΤΑ ΠΟΥ ΥΠΟΣΧΟΜΑΙ. ΤΟΝ
30 ΟΡΚΟ ΤΟΥΤΟ ΠΟΥ ΔΩΣΑΜΕ ΑΠΟΨΕ ΜΕ ΤΙΣ
31 ΣΠΟΝΔΕΣ ΚΡΑΤΗΣΤΕ ΤΟΝ ΣΑ ΣΥΜΒΟΛΟ ΑΓΑΠΗΣ».

* ΣΕ ΣΥΜΠΟΣΙΟ ΜΠΡΟΣΤΑ ΣΕ 9000 ΑΞΙΩΜΑΤΟΥΧΟΥΣ ΚΑΙ ΠΡΟΥΧΟΝΤΕΣ ΚΑΘΕ ΦΥΛΗΣ, ΕΛΛΗΝΕΣ, ΠΕΡΣΕΣ, ΜΗΔΟΥΣ Κ.Λ.Π.

قسم الإسكندر الأكبر في مدينة أوبيس (Opis) عام ٣٢٤ ق.م.
[ترجمة حرفية باليونانية الحديثة للنص اليوناني القديم عند المؤرخ/ بلوتارخوس
السير (الإسكندر): Παράλληλοι Βίοι: Ἀλέξανδρος

الهوامش

١- جيمس هنرى برستيد ، فجر الضمير (ترجمة / أحمد محرم حسن) ، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩.

٢- الحضارة الهيلّينية ، (ترجمة / زكي علي) القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٨٨.

٣- حيث يمكننا إحصاء إحدى عشرة حصيلة إيجابية في مواجهة تلك السلبيات بالعدد نفسه .

٤- Saunders, A.N.W., Greek Political Oratory, (Penguin Classics) , Great Britain 1970, pp.137-167 .

٥- راجـــع اســـترابون في مصر ، (نقله من اليونانية/ دكتور وهيب كامل) ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٣ ،ص ٥٣ .

٦- محمـــود السعدنى : تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان ، (موضوعات مختارة) الأنجلو المصرية ، القاهرة ٢٠٠٠م .

٧- تـــنوى جامعـــة حلـــوان إقامة ندوة بعنوان " الريادة المصرية عبر كل العصور" في ١٢ أكتوبـــر القـــادم (٢٠٠٢) وقـــد تمـــت مـــوافقة مجلـــس الجامعة (مجلس شئون البيئة والمجتمع)، بجلسته رقم ٨٣ بتاريخ الأربعاء (١٥/٥/٢٠٠٢م) علي ذلك .

٨- استربون : ٦-١٨ (راجع / وهيب كامل ، المرجع السابق) .

٩- المصدر نفسه ، فقرة ٧ (ص٥٩) :

حتى أن السكندريين يمضون وقت الصيف علي أحسن حال

١٠- والشك هنا ينسحب أيضا ، لصمته المطبق حول مكان وشكل وحالة قبر الإسكندر الأكبر (ضـــمن سيما -Sema المدينة . في وسطها داخل سور المقابر البطلمية Peri Bolon) راجع كتابي: قبر الاسكندر الأكبر (احتمالات موقعه وشكله) ، القاهرة ١٩٩١م

١١- سترابون ، فقرة ١٢ (ص٧٠) .

١٢- أي المنفوخ (أبو كرش) كلقب ساخر له أطلقه السكندريون اليونان تعبيراً عن كراهيتهم له .

١٣- سترابون : فقرة ١٢ (وهيب كامل/ المرجع السابق،ص٧٠) .

١٤- Walbank, F.W., Polybius, Sather classical lectures, vol. 42 (Univ.of California Press) , 1972,p.39.

١٥- المصدر نفسه ،فقرة ١٣ (وهيب كامل ، ص٧١)

١٦- المصدر نفسه .

١٧- "صور من الحياة الاجتماعية في الاسكندرية القديمة " دراسات في تاريخ مصر البطلمى والرومانـــي ، ص ص ٤٦-٥٥ وكذلك الدراسة الرائعة التفصيلية – للمواطنة السكندرية في ضوء كل المصادر والمراجع الحديثة حول الموضوع : راجع

El- Abbadi, M.A.H., " The Alexandrian Citizenship" Journal of Egyptian Ar chaeology, vol – 48 (1962) pp-106-123.

حــيث التحلــيل الكامــل لــواحدة مــن أخطر وأقدم البرديات السياسية (الأمر الملكي الإدارى: Prostagma) مــنذ منتصــف القرن ٣ق.م ، لتوصيف طبقات أهل الإسكندرية البطلمية ودرجة المواطنة لهم ، وهي بردية . P. Ham burg/ 168 ، وكذلك بردية P. Halensis/I حول تسجيل وشــطب بعــض المواطنين من سجلات الأحياء ، واشتراط إشارة الجنود إلي موطنهم الأصلي (Patris) قبل إقامتهم في الإسكندرية ، مما يعكس إحكام الإدارة المحلية ودقتها .

١٨- Tarn,w.w., Hellenistic Civilization (3rd ed.), Great Britain (London) 1975, chap. 5

١٩- P. Berhin, 130451: 28 in B. G. U. VII : 13 .

٤- الثقافات الشرقية القديمة ومكتبة الإسكندرية

أ.د. محمد السيد عبد الغني

أستاذ الدراسات اليونانية والرومانية

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

على الرغم من الطابع الإغريقي الواضح الذي اكتسبته مكتبة الإسكندرية بحكم الموقع والظروف التاريخية وانطلاقاً من كون مؤسسها وراعيها (ديمتريوس الفاليرى والملك بطلميوس الأول) يُعدان من أهل الفكر اليوناني في تلك الحقبة وتتلمذا بشكل أو بآخر على أرسطو أوفى مدرسته فإن القائمين على أمر المكتبة حرصوا على أن تصبح هذه المكتبة عالمية الطابع والمحتوى وألا تقتصر على نتاج الفكر اليوناني وحده ودون سواه . لعل منشأ هذه النزعة العالمية في تلك الحقبة قد تجلى في شخص الاسكندر الأكبر المقدوني – رمز تلك الفترة وعنوانها –الذي تبنى فكرة عالمية الحضارة الإنسانية شرقها وغربها وانصهارها في بوتقة واحدة .ولعل ما جسد أفكاره هذه على أرض الواقع احترامه وتوقيره لعبادات وعقائد الأمم الشرقية التي فتحها ، كما سقطت عنده على الأقل نظرية التفرقة بين الإغريق والبرابرة والتفوق والاستعلاء الإغريقي التي سادت من قبل بين الإغريق .

وتأتي خطوة زواجه بالأميرة الفارسية "روكسانا" وحفل الزواج الجماعي الذى أقامه في عاصمة الفرس بعد سقوطها لضباطه وجنوده من نسوة فارسيات بغرض امتزاج الدماء الغربية والشرقية لتثبت أن الأمر لم يكن لمجرد الدعاية للفاتح أو الغازي الإغريقي بل كان يمثل اقتناعاً راسخاً لديه . وإذا كان بطلميوس بن لاجوس (بطلميوس الأول) قريباً من الإسكندر وأحد أركان حربه المقربين إلا أن تصرفاته وأفعاله على أرض الواقع السياسي بعد وفاة الإسكندر تنم عن أن نظرته اتسمت بقدر كبير من الواقعية السياسية وبعد عن المثالية الفكرية لدى الإسكندر. ولكن حتى من هذه الزاوية الواقعية ومن لغة المصالح والمنافع حرص بطلميوس الأول ومؤسس المكتبة والموسيون ديمتريوس الفاليرى على فكرة عالمية مكتبة الإسكندرية . ففي تقديري أن هذه العالمية واتساع الأفق الفكري لمحتويات المكتبة سوف يضرب للساسة والمثقفين في البلاط البطلمي أكثر من عصفور بحجر واحد :

١- فعلى مستوى المنافسة الحامية الوطيس بين الممالك الهللينستية التي انبثقت عقب تفكك الإمبراطورية الشاسعة التي فتحها الإسكندر وتوزعت بين كبار قادته كانت المنافسة في مجال السريادة والزعامة الثقافية ، بين ممالك البطالمة في مصر والسليوقيين في سوريا والأتاليين في برغامة بآسيا الصغرى ، محمومة ، وتبارت هذه الممالك في إقامة المكتبات

ومراكـــز الـــبحث في عواصمها في الإسكندرية وأنطاكية وبرغامة . وقد تبوأت مكتبة الإسكندرية مركـــزاً مـــرموقاً بين العواصم الهللينستية في هذا المجال وكسبت هذا التحدي بامتياز جعلها ملئ السمع والبصر في العالم القديم والحديث . ولعل هذا الاهتمام بثقافات الآخرين (من غير الإغريق) ووضـــعهم فـــي الاعتبار بصورة جلية على خارطة الاهتمامات الثقافية والعلمية للمكتبة كان أحد عوامل تفوق وامتياز تلك المكتبة وكسباً ثقافياً وسياسياً لعاصمة البطالمة .

٢- لـــم يكن هذا الكسب الدعائي والسياسي هو المكسب الوحيد بل أن هناك كسباً آخر لا يقل أهمـــية يتمثل في نظرية حديثة قديمة تقول بأن المعرفة قوة Knowledge is power لقد كـــان الحكم البطلمي جديداً في مصر والمناطق المجاورة (قورينة وقبرص ومنطقة جوف سوريا التي تشمل المدن الفينيقية وجنوب سوريا وفلسطين وشرق الأردن) والتي خضعت للحكم البطلمي حتى نهاية القرن الثالث الميلادي وبالتالي فقد كان بحاجة ماسة إلى التعرف علـــى الجـــذور الحضارية لتلك المناطق وعاداتها وتقاليدها ونظمها وعقائدها حتى يسهل الـــتعامل معهـــا والســـيطرة عليها ومعرفة المداخل المناسبة للولوج إلى أفكارها والتعامل الملائم معها الذي يحقق للفاتحين الجدد مأربهم .

مـــن هـــذه المـــنطلقات وغيـــرها اهتم البطالمة والمشرفون على مكتبتهم من العلماء الإغريق بأن تتضمن مكتبة الإسكندرية مؤلفات عن تاريخ وحضارة وعقيدة الأمم الشرقية التي أصـــبحوا يعيشـــون بـــين ظهرانيها . وقد كانت أولي الأمم القديمة والحضارات العريقة بحفظ تاريخهـــا وتـــراثها وجوانب حضارتها القديمة هي مصر صاحبة العلاقات التاريخية الممتدة مع الإغـــريق ومقـــر الأســـرة الحاكمة البطلمية . لقد كانت حضارة مصر القديمة معروفة لحكماء ومفكـــرى الإغـــريق ولطالما نهلوا من حكمتها وعلومها . إذ يورد ديودور الصقلي مثلاً أسماء عـــدداً مـــن هـــؤلاء مثـــل هـــوميروس والمشرِّعيْن ليكورجوس وسولون والمفكر أفلاطون والفلكـــي يودوكســـوس وعـــالم الرياضيات فيثاغورث (بيثاجوراس) وكذلك ديموكريتوس الذى أمضـــى بمصـــر خمـــس سنوات وتعلم أموراً كثيرة هناك من بينها الفلك ، وأوينوبيديس الذي أمضـــى بعـــض الـــوقت بمصر وتعلم عن مدار الشمس وفلكها[١] معني ذلك أن الإغريق كانوا يعلمـــون الكثيـــر عـــن مصر وحضارتها قبل مجيء الإسكندر إلى مصر بفترة طويلة من خلال هـــؤلاء المفكرين والعلماء والشعراء الإغريق ، كما تكونت لدى بقية الإغريق فكرة لا بأس بها عن مصر من خلال المستوطنين الإغريق بها من التجار الإغريق في نقراطيس والمرتزقة الذين استقروا بها منذ عصر الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية كذلك (٦٦٣-٥٢٥ق.م) .

لـــذلك كلـــه كان من اليسير نسبياً أن يؤلف أحد المؤرخين من علماء المجمع العلمي الســـكندري (الموســـيون) مـــؤلفاً عن الحضارة المصرية القديمة . وقد تمثل هذا المؤرخ في شخص المؤرخ اليوناني "هيكاتايوس الأبديرى" الذي كان خير ممثل لمدرسة في الفكر اليوناني

أبـدت إعجابهـا بمصر وماضيها وتجلت في كتابات هيرودوت وأفلاطون من قبل . لقد عاصر هـيكاتايوس الأبديـرى (٣٦٠-٢٩٠ق.م) الإسكندر الأكبر وفتوحاته وشجعه بطلميوس الأول علـى الإقامـة بمصر وكتابة مؤلف جديد عن "تاريخ مصر" Aegyptiaca [٢] ورغم ضياع هذا المؤلـف الـذي كتـبه هيكاتايوس إلا أن أجزاء معتبرة منه قد بقيت لنا ضمن مؤلف "المكتبة التاريخـية" لديـودور الصقلي الذى نقل عن هيكاتايوس الشيء الكثير ، وكان مصدرة الرئيسي في حديثه عن مصر (الكتاب الأول لديودور - الفقرات : ١٠-٩٨) .

وفـي هذا المؤلف يركز ديودور نقلاً عن هيكاتايوس على مدى الفضل الذى يدين به الإغريق للمصريين والحضارة المصرية . وقد كانت المحاور الرئيسية لمؤلف هيكاتايوس تركز علـى اللاهوت والعقيدة المصرية ثم ينتقل إلى الحديث عن الشئون الحياتية الدنيوية للمصريين والمتمثلة في أخلاقهم وعاداتهم .

ففـي حديث هيكاتايوس عن اللاهوت المصري اتبع تقليداً سبق أن روج له هيرودوت من قبل وهو القول بأن الإغريق قد نقلوا مجمع الآلهة المصرية وسموه بأسماء إغريقية ويورد أسـماء آلهـة الإغـريق وما يماثلها من آلهة مصرية أسبق : فها هو ديونيسوس الإغريقي وسـابقه أوزيـريس المصري ، وديميتير مثيلة إيزيس ، وأبوللو مثيل حورس ، وزيوس مثيل آمـون ، وهيـرميس مثـيل تحوت ، وهيفايستوس مثيل بتاح . وبان مثيل من ، بل أن ربات الفـنون والآداب والعلوم التسعة عند الإغريق (الموساي) هن مثيلات لعذارى أوزيريس التسعة اللاتـي تـدربن على كافة أنواع الفنون . وفي تمجيده لأوزيريس وذكره للنقش المكتوب على لوحة أوزيريس الذى يقول "أنا أوزيريس الملك الذى قام بحملات على كافة الأقطار حتى مناطق الهند غير المأهولة" ، وأنه عند عودته إلى مصر بعد رجوعه ظافراً من فتوحاته في الهند وأمم آسيا وأوروبا نال هبة الخلود والألوهية يهدف هيكاتايوس إلى الترويج لأغراض محددة .

فهـو يروج للصورة البطلمية لأوزيريس (سرابيس) الذى سيصبح الإله الرسمي الذى يرمـز لمملكـة البطالمة ، كما أن هناك شبهاً واضحاً بين فتوحات أوزيريس وحملاته وبين فـتوحات الإسكندر الأكبر . وكذلك فإن تأليه أوزيريس بعد عودته من حملاته يمهد الطريق إلى تأليه الإسكندر وإقامة عبادة له بالإسكندرية وكذلك يمثل سابقة لعبادة الملوك البطالمة [٣] .

وفـي وصـفه لعادات وتقاليد ونظم المصريين يمتدح هيكاتايوس نظم الحكم الملكي المصري ونظمـه الدقيقة المحكمة الملتزمة التزاماً صارماً بالقوانين ليس فقط في الحكم والإدارة وإنما كذلك في أمـور الحـياة اليومـية كبيرها وصغيرها . كما يصف هيكاتايوس نظام العدالة المصري ونظام العمل وفـئات العامليـن . كمـا يخصص جزءاً من حديثه لوصف الإنجازات العلمية والحضارية للمصريين ويتحدث عن المكتبة المقدسة لمعبد الرامسيوم في طيبة وتقدم المصريين في الحكمة والفلك .

ولكن إذا كانت هذه هي الرؤية التاريخية "الموجهة" - إذا جاز لنا التعبير - من جانب الإغريق للتاريخ المصري القديم بإيعاز من الملك بطلميوس بن لاجوس للمؤرخ هيكاتايوس لتحقيق مآرب سياسية معينة ذكرنا بعضها أعلاه ، وإذا كانت هذه الرؤية تنبع - بعيداً عن التوجيه والسياسة - من حقائق تاريخية في معظم الأحيان ومن تقدير حقيقي للحضارة المصرية فيلزم التنويه بالجانب الآخر من العملة وهو "الرؤية المصرية " للتاريخ المصري القديم ممثلة في المؤرخ المصري كاهن هيليوبوليس الشهير "مانيتون السمنودى" .

ولكن ينبغي قبل أن نتحدث عن مانيتون السمنودى أن ننوه إلى أن ديودور الصقلي قد أورد (في الحاشية رقم ٥ أعلاه) أن كثيرين من الإغريق قد ذهبوا إلى طيبة في عهد بطلميوس بن لاجوس وكتبوا مؤلفات في التاريخ المصري وأن هيكاتايوس كان أحدهم . ومن بين المؤرخين الإغريق الآخرين الذين تطرقوا إلى التاريخ المصري من تلك الفترة مؤلف يدعي "يوهيميروس المسيني" استقر به المقام في نهاية المطاف في مصر تحت حكم بطلميوس بن لاجوس وفي السنوات المبكرة من حكم ابنه فيلادلفوس.[٧] وقد كان ليوهيميروس نظرية عن الآلهة تقول بأنهم كانوا في الأصل بشراً قدموا إنجازات رائعة لشعوبهم فقامت بعبادتهم وتخليدهم . وقد تبني في نظريته هذه اتجاهاً مصرياً إرضاءً لبطلميوس الأول انعكس في كتاب يوهيميروس المعنون "السجل المقدس" إذ يصف في بعض من فقراته القليلة المتبقية نمط الحياة على جزيرة خيالية تدعي "باناخايا" في المحيط الهندي بعد سواحل العربية السعيدة. ويذكر أنه كان يسكن تلك الجزيرة شعب آخر إلى جانب الباناخيين ولكن الإله آمون طرد ذلك الشعب الآخر، وعاش أهل الجزيرة من الباناخيين في سعادة ورفاهية وشيدوا معبداً فخماً لزيوس (آمون) حيث أقيمت لوحة من الذهب كتب عليها فالهيروغليفية مآثر آمون[٥] .

ومن مؤرخي تلك الفترة كذلك من الإغريق أنتيكليدس الأثيني الذى عاش خلال النصف الأول من القرن الثالث ق.م الذى ألف كتاباً عن الإسكندر الأكبر وصلتنا شذرات منه ويبدو أنه قد ضمنه ملحقاً أو استطراداً عن التاريخ المصري والحضارة المصرية ونسب فيه إلى المصريين الريادة في الهندسة وفن الكتابة ومخترعات أخرى.[٦] وعلى النقيض من ذلك نرى كاتباً من رودس يدعى زينون الرودى وقد كتب تاريخاً محلياً عن جزيرة رودس بنزعة تتسم بحماس لوطنه تحدث فيه عن عراقة رودس في تاريخ أسطوري أفصح فيه في المقابل -عن غضبه وضيقة بحماس مؤرخين من أمثال هيكاتيوس وأنتيكليديس للحضارة المصرية وثنائهم عليها . وهو يعتبر أن أبناء الشمس أو ال"هيليادى" كما يطلق عليهم من سكان رودس القدامى كانوا يفوقون كل البشر علماً - ولاسيما في علم الفلك - وأن أحدهم أبحر إلى مصر وأسس مدينة سميت هيليوبوليس (مدينة الشمس) وأن المصريين تعلموا منه علم الفلك . كما يورد قصة مفادها أن الإغريق ومعظم الجنس البشرى قد هلكوا في طوفان ولذا "انتهز المصريون

تلــك الفرصـــة الســـانحة واحتكروا لأنفسهم معرفة علم الفلك واستغلوا جهل الإغريق بالكتابة وادّعــوا (المصـــريون) لأنفســـهم الريادة في معرفة النجوم[٧] وهكذا نجد الحقد والإدعاء على الحضارة المصرية قديماً وحديثاً .

نعــود الآن إلـــى المـــؤرخ المصري "مانيتون السمنودى" كاهن هيليوبوليس الشهير. فبحكم إجادة مانيتون للغة اليونانية ومعرفته بالثقافة اليونانية اضطلع بكتابة مؤلف كبير وشامل باللغـــة اليونانية في العصر البطلمي المبكر عن تاريخ مصر القديم لابد أنه كان من المحتويات الهامـــة لمكتـــبة الإســـكندرية التـــي من المؤكد أنها ضمت كذلك المجموعة الكاملة للسجلات المصـــرية القديمـــة . ولابد أن مؤلف مانيتون كان عظيم القدر والقيمة وخصوصاً فيما يتعلق بتفاصـــيل عـــن عقـــيدة وديانـــة المصـــريين وفي التأكيد على عراقة مصر وأسراتها الحاكمة وتأريخهـــا وقوائمها. وهذه القوائم المؤرخة عن الأسرات المصرية الحاكمة عند مانيتون ذات قـــيمة كبيرة وأُخذ بها في التأريخ لحكم فراعنة مصر رغم افتقارها للسرد والتفصيل ومن أسف فإن معظم مؤلف مانيتون قد فُقد ولم تصلنا منه سوى شذرات قليلة متناثرة . [٨]

أمـــا عن تاريخ وحضارة وثقافات الأمم الشرقية الأخرى فلابد أن مكتبة الإسكندرية قد ضمت قـــدراً لا بأس به منها . فقد ترجمت التوراة (العهد القديم أو الكتب الخمسة الأولى منه) من العبرية إلى اليونانـــية في الإسكندرية في عهد بطلميوس الثاني فيلادلفوس (٢٨٤-٢٤٦ق.م) كما ورد في رسالة أدبـــية مـــن القـــرن الثاني ق.م تسمى رسالة "المدعو أريستياس" لكي تنضم هذه الترجمة إلى مقتنيات مكتـــبة الإســـكندرية ، ولكي تكون في خدمة أبناء الجالية اليهودية في الإسكندرية ممن تأغرقوا بنهاية القـــرن الـــثالث ق.م وحتـــى تكـــون هذه الترجمة مرشداً ودليلاً للحكام البطالمة عن عقيدة اليهود في فلســـطين التـــي صـــارت خاضـــعة للحكم البطلمي ضمن منطقة "جوف سوريا" التي ظلت تحت الحكم البطلمـــي طـــيلة القـــرن الثالث ق.م. وقد تمت هذه الترجمة في الإسكندرية على يد اثنين وسبعين من أحـــبار اليهود من أورشليم في جزيرة فاروس وجاءت ترجمتهم متطابقة تماماً رغم أن كل واحد منهم كان في غرفة منفردة كما ورد بهذه الرواية . [٩]

كما أن كاهناً بابلياً من زمن مانيتون تقريباً من أوائل القرن الثالث ق.م قد كتب مؤلفاً عـــن تـــاريخ بابل باليونانية . وقد عُرف هذا الكتاب بسرعة في مصر ومن المحتمل أن يكون مانتيون قد أطلع عليه. وهذا الكاهن البابلي يدعى بيروسوس [١٠].

كمـــا أن هـــناك ديانـــات شـــرقية أخـــرى اجتذبت انتباه بعض علماء الإسكندرية مثل هيـــرميبوس – تلمـــيذ كالـــيماخوس – الذى كتب مؤلفاً ضخماً عن العقيدة الزرادشتية حسبما أوردبلليني الأكبر[١١] .

وفـــي هذا إشارة واضحة إلى أن العقيدة المازدية الفارسية كانت تحظى بتمثيل مفصل فـــي مكتـــبة الإســـكندرية ، كما يبدو أنه كانت في الإسكندرية كذلك كتابات بوذية نتيجة لتبادل

الســفارات بين بطلميوس الثاني فيلادلفوس وأسوكا أحد ملوك الهند الذى اعتنق البوذية وصار داعــيةً لها وأرسل مبعوثين ورسلاً من طرفه يبشرون بتعاليم جاوتاما لكي تصبح ديانة عالمية بــين كافة الأمم .وقد عثر على أكثر من ثلاثين نقشاً في كافة أنحاء الهند دعا فيها أسوكا حكام العــالم إلى اعتناق البوذية وكان النقش الثالث عشر من هذه المجموعة المعروفة ب(المراسيم الصخرية) موجهاً إلى بطلميوس الثاني فيلادلفوس . [١٢]

ولكــن هــل كان الاهتمام بدراسة الديانات الشرقية القديمة وقراءتها نابعاً من فضول عقلانـــي واهــتمام أكاديمي [١٣] كما يرى الأستاذ الدكتور مصطفي العبادى – أم أن في الأمر – فضلاً عن ذلك – مصالح سياسية وعلاقات دبلوماسية وغيرها ؟

الهوامش

١- Diodorus Siculus, Historical Library I. 98. 1-4 .

٢- Ibid.I.46.8:

αλλά και πολλοι των Ἐλλήνων των παρα- βαλόντων μεν
εις τάs Θήβας επι Πτολεμαιου του Λάγου,συνταξαμενων δε τάs Αιγυπτιακάs ιστοριας, ων εστι και Ἑκαταιοs, συμφωνουσι τοιs υφ' ημων ειρημενοιs.

بـــل أن كثيراً من الإغريق ممن زاروا طيبة في عهد بطلميوس الأول (بن لاجوس) وكتبوا مؤلفات عن التاريخ المصري والذين كان هيكاتايوس أحدهم يتفقون مع ما ذهبنا إليه.

٣- M.El- Abbadi, The life and fate of the Ancient Library of Alexandria, Unesco, 1990, pp.62-63 .

٤- Diodorus siculus6.1.4= Eusebius, Praeparatio Evangelica 2.2.59B-61-A.

٥- Diodorus 5. 42-46 .

٦- Jacoby, F.Gr. Hist. IIB,tt.I,11a; P.Oxy.1802; Diog. Laert. 8.11.; Pliny, N.H.7.193.

٧- Diodorus Sic. 5.56.7 ; 57. 2-4 .

وقد انتقد المؤرخ بوليبيوس حماسة زينون ومشاعره الوطنية :

Polybius 16-14 ; 17.8.

٨- Mostfa El- Abbadi, op.cit., pp. 66-67, 98 .

٩- M.Hadas, Aristeas to Philocrates, New York, 1955; A. Pelletier, la lettre d'Aristee à Philocrate, Sources Chretiennes, vol.89, 1962; apud. Eusebius, Praep. Evang. 8.2.1; Josephus, Antiqu. Iud. 12.2.38 .

١٠- Syncellus p.32 = Manethon, by Waddell (Loeb) fr.3 .

١١- Pliny, N.H. 30 : 3-4 .

كما يشير ديوجينيس لايرتيوس إلى أن هيرميبوس قد وضع كتاباً بعنوان "عن المجوس":proem 8

١٢- Corpus Inscriptionum Indicarum (new ed. By E. Hultzsch, Oxford, 1925), vol.I.p.48. apud M.El-Abbadi, op. cit., p.44 and note 36 .

١٣- Ibid. p. 99 .

٥- القيمة الحضارية لمكتبة الإسكندرية
بين الازدهار والاضمحلال

د. محمد عبد الفتاح السيد سليمان
مدرس الآثار اليونانية والرومانية
جامعة الإسكندرية

الإسكندرية أسطورة الحلم الشرقي في عيون عاشت الحلم الجميل .. رؤية وفكرة في عيون المبدعين عبر العصور .. هذه المدينة الجميلة لديها علاقة بمكانها، بأرضها ، بسكانها في الماضي والحاضر والمستقبل ، فلتكن الإسكندرية الجديدة دائماً جزء من منظومة الحضارة المصرية القديمة ، رافضة مبدأ الفصل القديم ، راغبة في التواصل والانسجام ، ومحققة لمبدأ المكان المناسب للفكر المناسب ، فلتكن أرض الكنانة والحكمة والتاريخ والحضارة أرضاً صالحة لمكتبة من أعظم وأكبر وأمتع مكتبات الدنيا ، فلتكن مكتبة الإسكندرية على أرض مصر.

قد يبدو عامل الأرض هنا من أهم العوامل في التعريف ، وهو عامل مقصود يربط فكر الماضي الفرعوني الجميل بأسس نجاح وازدهار مكتبة الإسكندرية دون سائر بقاع العالم القديم. فإذا كانت الأرض رؤية جغرافية لها حدود وقياسات ، فإن المبنى القائم عليها يتأثر بها وبعطائها المتدفق عبر العصور ، ويعبر من خلالها رحلة زمنية عبر تاريخ طويل من التقدم والازدهار ، التدهور والاضمحلال ، التجديد والثورة ، التمرد والنسيان ، فلنتحدث عن القيمة الحضارية لمكتبة الإسكندرية بين الازدهار والاضمحلال .

يدور الموضوع حول الأبعاد الحضارية التي أسهمت في تأسيس مكتبة الإسكندرية في البدايات الأولى للمملكة البطلمية[١] وضرورة الاستفادة منها في إلقاء الضوء على البعد التاريخي والثقافي لهذا الصرح العلمي ، كما يتناول الموضوع الأبعاد الحضارية أيضاً التي أسهمت في اختفاء المكتبة وتواري البعد الثقافي عنها في العصر البيزنطي المتأخر ، وتأتي أهمية وضرورة توضيح تلك الأبعاد في أنها تعطي لنا تقييماً حضارياً لمنظومة متكاملة تسعى للنهوض العلمي والثقافي ، وهي المنظومة التي تعتمد على حرية العلم ، حرية الإبداع ، التقييم المتعمق للأمور ، المساندة السياسية والشعبية الواعية لنمو الحركة الثقافية والعلمية . وعلى الجانب الآخر ، فإن هناك أبعاداً أسهمت في اضمحلال البعد الثقافي ، منها العنصرية الفكرية والدينية والحضارية ، وغياب الوعي العلمي القائم على مبدأ الحرية ، والنظام المركزي صاحب الفكر السلطوي ، غياب القوة السياسية المستنيرة ، الفجوة الواسعة بين طبقات المجتمع .

تلك الأمور غلفت الحديث عن مكتبة الإسكندرية بإطار أسطوري ، نحاول أن نقتحمه برؤية واقعية للأحداث حتى نضع أو نقترح شكلاً حضارياً دستورياً يحدد ماهية الازدهار وعوامل حدوثه ، والتحذير من الاضمحلال وعوامل حدوثه ، وذلك لنستقبل معاً عصراً جديداً لمكتبة جديدة لشعب جديد .

البداية والأبعاد الحضارية وحالة الازدهار القصيرة في العصر البطلمي :

على الرغم من قبولنا الصدفة البحتة التي جاءت بالإسكندر إلى مصر، والصدفة الأكبر التي قادته إلى تلك البقعة السحرية بين بحيرة مريوط والبحر المتوسط ، إلا أننا لا يمكن أن نغفل حقه في قرار إنشاء المدينة حتى ولو كان القرار سياسياً أو عسكرياً ، ولكنه قرار تاريخي يحسب لقائد محنك صاحب فكر واستراتيجية واسعة النطاق .

وعلى الرغم من الالتزام الأدبي والتاريخي لوضع الإسكندر الأكبر كواضع حجر الأساس للمدينة ، إلا أن الفضل الأكبر كان يقع على عاتق الرجل الذي أتم بناءها من بعده وهو بطليموس الأول ، الذي أسهم في جعلها عروس البحر الأبيض المتوسط ، وملهمة الشعراء ، وقبلة العلماء والمثقفين في العالم القديم ، حتى سارت قبلة الدنيا بأسرها في العلوم والمعارف عبر العصور .

كان هدف بطليموس الأساسي هو تأمين سلطانه علي مصر وتأمين محاولاته التي بدأها بفرض سيطرته علي المناطق المجاورة ، وهي أيضا وسيلة لتأمين مصر وحدودها (٢) . وحقق بطليموس خطوة واسعة في سبيل إحكام سيطرته علي مصر ، فبعد القضاء علي أسرة الإسكندر أخذ كل من بطليموس وانتجونوس وسيلوقوس في التطلع لأول مرة نحو استقلال حقيقي بالمناطق التي كانوا سيطروا عليها . وانتهت باقتناع بطليموس بالانفراد بحكم مصر وتكوين أسرة ملكية يكون هو مؤسسها ، عرفت ضمن التاريخ المصري بالأسرة البطلمية ، التي أسهمت في خروج مصر من السيطرة المقدونية لتستقل تحت حكم يوناني أيضا ولكن بمنظور آخر يختلف نوعا ما عن مفهوم الاحتلال .

مما لاشك فيه أن بطليموس الأول استطاع انتزاع الأراضي المصرية والحفاظ عليها في صعوبة بالغة ، وبالطبع خلال تلك الفترة استطاع تكوين رؤية استراتيجية متكاملة عن مصر من كافة الجوانب ، الأمر الذي سهل عليه فرض الأسس السياسية التي يخضع لها الشعب المصري علي مدار أكثر من ٣٠٠عام . تلك الأسس يمكن أن نطلق عليها مصطلح أيديولوجية Ideology الذي يعني قواعد جديدة لمذهب فكرى أو سياسي في تنظيم معين قادر علي التكيف المباشر في المجتمع الذي يطبق فيه . هذه المنظومة السياسية (أيديولوجية) قادرة أيضا علي الاستمرار والتطور مع تغيرات العصر مما يحقق لها قدر من البقاء يتفق وروح المصطلح ، وهو ما يمكن أن نميزه من الناحية الحضارية علي البداية البطلمية تقريبا في مصر في الفترة من ٣٠٥-٢١٧ ق.م (٣) .

أيديولوجية الحكم البطلمي في مصر اعتمدت في المقام الأول على عنصر الوقت الذي طال منذ خروج الإسكندر من مصر في عام ٣٣٢ ق.م ، وحتى عام ٣٠٥ ق.م . وأعتقد أن الظروف كانت مهيأة لتطبيق أيديولوجية بطلمية في مصر أسهم في تثبيتها اليونانيون والمصريون ربما حتى موقعة (رفح) في عام ٢١٧ ق.م، حينما اعتمد بطليموس الرابع على المصريين في الجيش ضد جيوش انتيوخوس الثالث وحقق بهم الانتصار . فقد اعتبرت تلك الموقعة حداً فاصلاً بين عهدين في الدولة البطلمية . ولكن لم يكن مقدار التغيير كبيراً من الجانب المصري، فالأيديولوجية البطلمية عند التطبيق ربما حتى بطليموس الرابع (فيلوباتور) ٢٢١ – ٢٠٥ ق.م ، كانت في حاجة لحكام أقوياء لديهم مفاهيم محددة للممارسة السياسية القوية على المستوى الداخلي وعلى المستوى الخارجي ، وبالتالي عدم توفر تلك الممارسة عمل على إجهاض الأيديولوجية في الفترات التالية حتى قضى الرومان على عناصر القوة البطلمية الباقية بينما بقوا على أسس كثيرة منها والخاصة بطبيعة العلاقة والتعامل مع المصريين(٤) .

تعتمد الأيديولوجية السياسية للحكام البطالمة منذ عهد بطليموس الأول (سوتير) على معايير خاصة عملت دائماً على إخضاع المصريين لكل ما هو جديد عليهم .

- الإسكندرية عاصمة الحكم الجديد .
- أن يحكم البطالمة مصر حكماً ملكياً إلهياً مطلقاً .
- الاعتماد على العنصر الإغريقي والمقدوني في الجوانب الحساسة للدولة كالجيش والاقتصاد والإدارة .
- استحداث إله رسمي جديد للدولة البطلمية هو الإله "سيرابيس" يجمع بين الصفات الإغريقية والمصرية حتى يساعد على ربط وتوحيد العنصرين ويقبل عليه كل من المصريين والإغريق معاً ، وهي الأيديولوجية الدينية التي مزجت بين المفهوم السياسي والمفهوم الديني(٥) .

أيديولوجية البعد الثقافي في الحكم البطلمي :

إذا كانت الأيديولوجية العسكرية قد استفادت عظيم الاستفادة من خيرات مصر ، فإن الحسنة الوحيدة التي يمكن أن ننسبها لهؤلاء الملوك البطالمة وخاصة الأوائل أنهم حققوا طفرة كبيرة في مجال الثقافة المصرية – اليونانية ، وإن أبسط الأدلة لإثبات تلك الطفرة هو شعور وتفاعل المصريين على مختلف الطبقات مع تلك الثقافة لأول مرة ، بعد أن كانت ، قاصرة في العصر الفرعوني على طبقة معينة من الكهنة والبلاط .

اتخذ بطليموس الأول الخطوات الأولى لتحقيق مستوى ثقافي يليق بالقيمة الحضارية المتفاعلة على أرض مصر ، وقد تابعه بطليموس الثاني بتثبيت تلك الخطوات في إطار مشروعات ملموسة على أرض الواقع ، ثم جاء بطليموس الثالث وفرض لها حماية محلية وعالمية .

تلك القوة السياسية والإستراتيجية مكنت البطالمة من إنشاء الميوسيون السكندري أو معهد العلوم أو الجامعة والمكتبة المركزية الكبرى بمفهومنا المعاصر، وقد تبدو كلمة ميوسيون مناسبة في هذا العصر عن كلمة مكتبة الحالية فالميوساي هن ربات المعرفة المتعددة بنات الإله زيـــوس مـــن عشيقته منيموسوني إلهة الذاكرة ، فالكلمة شاملة وجامعة في طياتها تسع علوم وفـــنون مختلفة تعكس اهتمامات المثقف العادي آنذاك ، التاريخ والشعر الغنائي ، والكوميديا ، والتـــراجيديا ، والـــرقص والموســـيقى ، والشـــعر ، والأناشـــيد ، والفلـــك ، وشـــعر الملاحم والمسرحيات ، وكان قائدهم ومعلمهم الإله أبوللو ، وبالتالي فرضت العقلية اليونانية نفسها في مشروع تأسيس الميوسيون . ولكن المشروع كان في ذات الوقت قائماً على أرض خصبة ذات حضـــارة علمية وثقافية قديمة لا تزال جذورها شامخة في العصر البطلمي ، لذلك ما من تفاعل علمي أو ثقافي ينسب للميوسيون إلا وكان حاملاً صبغة العصر (اليونانية – المصرية) .

وكـــان الميوسيون مكاناً متكاملاً يجمع بين الدراسة العلمية والعلوم الإنسانية، وكانت المكتبة مركزاً للدراسات الإنسانية وقسماً ضرورياً من أقسام الميوسيون ، بالإضافة إلى قاعات متعددة للدراسة والإطلاع ، فضلاً على تجهيز الميوسيون بإمكانية العيشة المتكاملة للعلماء والدارسين(٦) . يضـــاف إلـــى ذلـــك حـــرص الـــبطالمة على دعم المعهد بالإمكانيات العلمية اللازمة، فقد أشتمل الميوســـيون علـــى آلات فلكية متطورة عرفت قاعتها فيما بعد بالمرصد ، كما ضم قاعات خاصة بعلوم الطب والتشريح ووظائف الأعضاء ، وقاعات لإلقاء الشعر وسماع الموسيقى .

وكانت الأبعاد الحضارية التي توفرت لقيام هذا الصرح الثقافي قائمة في الأساس على توافر القوة السياسية عند الملوك البطالمة الأوائل ، تلك القوة السياسية المتأثرة بروح التنافس الاستراتيجي لدول البحر المتوسط مهدت السبيل لنمو الدافع الثاني في بناء هذا الصرح العلمي الضـــخم ، والـــذي يعـــتمد على جهود مجموعة من العلماء عاشت في مدينة الإسكندرية تحت حمايـــة المملكة التي عملت على استقطابهم ورعايتهم ، وكان هذا العامل أحد أهم العوامل في قيام نهضة علمية ثقافية في الإسكندرية .

فـــي قصة استقطاب ديميريوس الفاليري – أثيني المولد (حوالي ٣٤٥ ق.م) – لتدعيم الميوســـيون نموذجاً لتدعيم هذا الهدف ، فعلى الرغم من كونه لجأ سياسياً إلى مصر ، إلا أنه شارك بفكره السياسي والأدبي في إنشاء الميوسيون والمكتبة . فمن المعروف أن أثينا في تلك الفترة (بداية منتصف القرن الثالث ق.م) شهدت تدهوراً كبيراً في التنظيم السياسي الديمقراطي، وغابـــت عن البلاد مفاهيم الحرية والتعبير الحر .وهي من الأمور التي استفاد منها بطليموس الأول فـــي استقطاب مجموعة كبيرة من العلماء اليونانيين ووفر لهم الحماية وحرية الممارسة العلمـــية والسياسية مع ضمان ولائهم للحكم البطلمي وللفكر الاستراتيجي الذي يقع تحت مظلة التنافس السياسي الممارس في حوض البحر المتوسط(٧) .

فـي الفتـرة مـن ٢٩٠ – ٢٨٤ قـبل الميلاد تقريباً ، أفتتح الملك بطليموس الأول سوتير ومساعده ديمتريوس الفاليري ، وبحضور ابنه بطليموس الثاني فلادلفيوس مبنى الميوسيون وملحقاته والتـي مـن أهمهـا المكتبة[٨] .وبالطبع كان حدثاً ثقافياً عالمياً في تلك الفترة ، فالثقافة كانت جزءً من نسـيج المجتمع البطلمي الساعي للتحضر والتطور . لذلك أهتم البطالمة برعاية المكتبة رعاية شخصية ، ولـيس أدل علـى ذلـك أن يكون الميوسيون والمكتبة جزءً من القصور الملكية في حي البروكيوم (الحي الملكي في الإسكندرية القديمة) وأن تخضع لأوامرهم الملكية مباشرة . حتى أن الملك بطليموس الـثالث فرض لها حماية خاصة ، حتى أنه أصدر أمراً يقضي بأن كل مسافر ينزل بالإسكندرية عليه أن يسلم أي كتب بين متاعه لضمها إلى مكتبة الإسكندرية[٩] .

أخـتلف العلمـاء حـول صاحب فكرة إنشاء المكتبة ، البعض اتجه ناحية العنصر السياسي ورغـبة بطليموس المقدوني في التميز الدائم على زملائه قادة العالم الهللينيستي ، وحرصه على تدعيم مركـز حكمـه في الإسكندرية بكل ما هو جديد ومثير ، فجاء بجثمان الإسكندر الأكبر ، وجعل المدينة عاصـمة البلاد ، وأنشأ الميوسيون ثم المكتبة ليحقق التفوق حتى على مقدونيا نفسها ، وبالتالي ينتقل الثقل الحضاري والثقافي من بلاد اليونان إلى مصر وبصفة خاصة الإسكندرية .

الـبعض الأخر اتجه إلى الخطيب السياسي والأديب ديمتريوس الفاليري الذي كان أحد تلامـيذ أرسطو وحامل مشعل الفكر السياسي المتحرر من القيود الديكتاتورية ، فقد كان متمرداً لـذلك حظـي بحب الأثينيين البسطاء لمحاربته للفساد، بينما بغضه كثيرون ممن يرتعون وراء مصـالحهم ، لـذلك عـندما سـقطت أثيـنا في أيدي مقدونيا وشعر ديمتريوس بهبوب رياح الديكتاتورية فر هارباً إلى مصر ونزل ضيفاً على بطليموس الأول[١٠] . وبالطبع كانت اهتمامات ديمتـريوس السياسية والأدبية سبيلاً لتقربه للملك بطليموس ، فقد اتفقت مفاهيم الملك والأديب معاً ، ويبدو أنهما اتخذا قرار إنشاء الميوسيون والمكتبة سوياً ، ومن أجل إشباع رغبة كليهما، فالمـناخ السياسي في الإسكندرية شجع ديمتريوس على البقاء والإبداع ، حتى أنه كتب معظم مؤلفاته في الإسكندرية ، فضلاً عن تدعيم السلطة السياسية لهذا الشق العلمي بكامل إمكانياتها.

ومـن الغـريب أن مصـادر العصـر البطلمي في مصر قد أخفت معلومات كثيرة عن الميوسيون والمكتبة ، ولكن الوصف الموجز الواضح إلى حد ما نجده في تقرير أسترابون عن مديـنة الإسـكندرية في نهاية القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي[١١] . وهو الوصـف الذي يجسد حالة المكتبة بعد حريقها اثناء حرب الإسكندرية عام ٤٨ ق.م . بينما في العصـر الإمبراطوري الروماني تعددت المصادر التاريخية التي تحدثت عن الميوسيون ومكتبة الإسـكندرية ، فـنجد إشارات منفصلة عند اثنياس وأبريانوس[١٢] . فضلاً عن ارتباطها بالفكر الفلسفي الغنوسي والأفلاطوني الحديث في القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، ويبدو مما سبق أن الميوسيون كان بالفعل يضم المكتبة ، وإنها كانت جزءاً متصلاً به دون انفصال حتى حريق

عام ٤٨ ق.م ، وعندما انتقلت المكتبة لتستقر فترة غير محدده زمنيا في معبد السرابيوم ذكرت منفصلة عن الميوسيون ، وربما استمر الحال هكذا حتى حلول التدمير الثاني في عهد البطريرك السكندري ثيوفوليس في نهاية القرن الرابع الميلادي وتدمير السرابيوم .

وللأسف الشديد لا توجد لدينا وثائق محددة ترصد بدقة أمناء مكتبة الإسكندرية في العصر البطلمي على الأقل ، ولكن قائمتين ناقصتين من البردي P. Tzetzes,P Oxyrhynchus[١٣] يشتركان معاً في الترتيب التالي :

• Zenodotus	• زينودتوس	c. 285 - c. 270 B.C.
• Apollonius Rhodius	• أبوللونيوس الرودي	245 B.C.-c. 270
• Eratosthenes	• إراتوسثنيس البرقاوي	245 - 204/1 B.C.
• Aristophanes	• أريستوفانيس البيزنطي	204/1 - 18)/6 B.C.
• Apollonius Eidographos	• أبوللونيوس إيدوجرافوس	189/6 - 175 B.C.
• Aristarchus	• أريستارخوس	175 - 145 B.C.
• Kydas	• كيدياس	145 - 116(?) B.C.

نلاحظ أن هناك بعض الأسماء المفقودة ولعل من أشهرها ديمتريوس الفاليري Demetrius وكاليماخوس البرقاوي (٢٦٠-٢٤٠ ق.م) Callimachu، بالنسبة للأول فوضعه يختلف وربما تم محو أسمه عن قصد من قائمة الشرف في عهد بطليموس الثاني الذي عمل على نفي ديمتريوس إلي الصعيد[١٤] ، كما أن من المحتمل أن تكون تلك الوظيفة قد أستحدثت بالمسمي أمين المكتبة بعد نفي ديمتريوس وعندما تولي زينودوتوس (٢٨٤- ٢٦٠ ق.م) الذي عين رسمياً أمينا لمكتبة الإسكندرية حوالي ٢٤٨ ق.م[١٥] ولكن بالنسبة لكاليماخوس فالأمر يختلف لأنه بالفعل كانت لديه إسهامات متعددة في المكتبة ، فقد كان المسئول الأول عن المكتبة الملكية ويحتمل أنه تولي أمانة المكتبة في عهد أبو للونيوس الرودي ثم تفرغ لإنجازه في الفهرسة وتصنيف الكتب والمخطوطات في مجلده العظيم (Catalogue Pinakes)[١٦] .

هوايتهم جمع الكتب والمخطوطات :

كان الملك بطليموس الأول صاحب الريادة في جمع الكتب والمخطوطات والاهتمام بها، وبالطبع شاركه في ذلك ديمتريوس الفاليري ، الذي خصص ميزانية كبري من إيرادات الدولة لجمع كل الكتب في العالم القديم ، إما بالشراء أو بالنسخ ، ويشير (أريستيس) من القرن الثاني

أن ديمتريوس أشار إلي إن عدد الكتب في فترة توليه (٢٨٤-٢٨٥) بلغ أكثر من مائتي ألف ، بـل ووعـد الملـك بـأن العدد سوف يصل إلي نصف مليون كتاب . ولكن للأسف ليس لدينا إحصـائية دقيقة ومؤكدة عن عدد الكتب في مكتبة الإسكندرية ، فيما عدا معلومات متأخرة عن أن حجم الكتب في مكتبة السرابيوم (الثانية) كان يصل إلي حوالي ٤٢٨٠٠ كتاب تم استعارتها مـن مكتـبة الإسكندرية كنواة لتكوين مكتبة فرعية في السرابيوم ، هذا العدد يرجح أن تكون المكتبة الأم قد وصلت عدد الكتب بها إلي أكثر من ٤٠٠٠٠٠ كتاب حسب تخمين ديمتريوس[١٧] .

ومـمـا لا شـك فـيه أن ضـخامة الإنجـاز كانت دائما في حاجة ملحة لتمويل ضخم ومسـاندات مالـية ومعنوية علي أعلي مستوى . فقد عمل الملوك البطالمة الأوائل علي جمع الكـتب مـن كـل بقـاع الأرض دون مـبالاه بأثمانها ، فمن الطرائف المسجلة بخصوص هذا الموضـوع الطلـب الـذي أرسـله بطليموس الثالث إلى أمين مكتبة أثينا يطلب منه أن يعيره مجمـوعات مـن البـرديات المدون بها أشهر المسرحيات الإغريقية لأيسخيلوس وسوفوكليس ويوربـيديس ذلك من أجل نسخها وإعادتها مرة أخرى مقابل مبلغ ١٥ تالنت لضمان إعادتها ، وعندما هبطت تلك الأعمال أرض الإسكندرية أدرك الملك أهميتها فقرر الاحتفاظ بالأصل وأرسل نسـخاً منها لمكتبة أثينا[١٨] . وبالطبع لم تكن تلك الحالة عامة في تعامل البطالمة مع الكتب . ولكنه كان دافعاً وراء العلم والاقتناء المشروع .

هـذا الجانـب أدركـه البطالمة وتوسعوا فيه بكل السبل من أجل تكوين مكتبة تفوق مكتـبات العالم بأسره ، ويبدو أن الفكر العالمي أيضاً قد سيطر على شكل المكتبة منذ البداية ، فقد أراد بطليموس الأول أن تكون المكتبة إشعاع ثقافي عالمي الطابع وليست قاصرة على الفكر اليونانـي ، فالعلاقة التي قامت بينه وبين الكاهن (مانيتون) من سنمود علاقة يمتزج بها الفكر السياسـي والثقافي المختلط الذي جسده فيما بعد (مانيتون) في كتابه عن تاريخ المصريين من عهـد ميـنا حتى عهد بطليموس الأول حيث قسم هذا التاريخ إلى عدد من الأسر الحاكمة وهو تقسـيم تاريخـي يعتمد على الأسرات الحاكمة في مصر عبر العصور . وبالفعل كان هذا العمل دليلاً على خلط المفاهيم السياسية في إطار النهضة الثقافية الجديدة لمكتبة الإسكندرية .

فـي ذات الوقت كانت الجالية اليهودية في مصر في تزايد مستمر منذ عهد الأسرة السادسة والعشـرين ، وبالتالي تكونت لديهم ثقافة متميزة في الأقاليم التي سكنوها في مصر ، الأمر الذي شجع بطلـيموس الأول في اتخاذ قرار ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية حتى يواكب ثقافة يهود الشتات الذين لا يـتحدثون العبـرية، ومـن هـذا المنطلق والحرص الثقافي والسياسي أيضاً ، تمت ترجمة الكتاب المقـدس (التوراة) إلى اللغة اليونانية تحت مسمى الترجمة السبعينية علـى أرض الإسكندرية[١٩] ، . يضـاف إلـى تلـك كـتب ديـنـية حفظـت في مكتبة الإسكندرية خاصة بالديانة الفارسية على عهد كالـيماخوس، فقـد زودت المكتـبة بمجلـد ضخم بعنوان Zoroastriansim, كتبه Hermippus

هيـرميبس وكــان تلمـيذ كالــيملخوس ، ومن المحتمل أن تكون المكتبة قد زودت بكتب دينية أخرى كالبونية والديانات الهندية ، والتي كانت تفد عبر السفارات التبادلية في عهد بطليموس الثاني مع الهند وفارس وأسوكا Asoka (في أرض الصين)[٢٠] .

المكتبة والأبعاد الحضارية
لمرحلة الاضمحلال في العصر الروماني المتأخر والبيزنطي المبكر

فــي القــرون الأخيــرة انتشــرت قصــص وروايــات متعددة حول النهاية المفجعة لمكتبة الإســكندرية، وعلـــى الرغم من وفرة المصادر ووضوحها في أغلب الأحيان، إلا أنها وفي حالة غريبة كانت تسير في اتجاهات إما سياسية أو دينية أو تعصبية والضحية كان تاريخ المكتبة وشموخها .

عمــوماً الاتجاهــات العلمــية الحديــثة نصبت محكمة تاريخية لتحليل تلك المعطيات التاريخــية من جديد وبرؤية حيادية الطابع ، وعلقت العمل بالجرم الأخلاقي الذي يصل إلى حد التخريب ، هناك ثلاث اتجاهات دارت حولها الاتهامات .

لأول : حزب الرومان وحادثة حرب الإسكندرية عام ٤٨ ق.م والمتهم يوليوس قيصر ومؤرخه هيرتوس .

الثانــي : البطريرك السكندري ثيوفيلوس ، وجمهرة من المسيحيين المتعصبين في نهاية القرن الرابع الميلادي .

والــثالث : القائــد العربــي عمرو بن العاص قائد الجيوش الإسلامية في الفتح العربي لمصر وحصار الإسكندرية في أعوام ٦٤٠ – ٦٤٥م .

ولكن من الضروري الإشارة إلى أن المدينة قد تعرضت لسلسلة من الكوارث الطبيعية مــن زلازل وفيضــانات وتأثير البحر وجميعها عوامل أسهمت في زيادة حجم المشكلة وزيادة غموضــها . فضــلاً عــن صعوبة العثور على أدلة أثرية تؤكد موقع المكتبة وتوضح تطورها الزمنــي . فالحــي الملكي بالكامل في الشمال الشرقي للمدينة هو الآن تحت الماء . وقد كشف العمــل الحديث في علم الآثار تحت الماء أكثر من موقع ولكن هناك صعوبات في الحصول على نتائج محددة تحسم العديد من المشاكل الطبوغرافية في مدينة الإسكندرية البطلمية[٢١] ، يضاف إلــى ذلــك التخريب المتعمد في العصور القديمة لمعبد سيرابيس العظيم والذي هو بمثابة دليل مادي على قيام مكتبة الإسكندرية[٢٢] .

يوليوس قيصر وحرب الإسكندرية :

مــن الأمور الغريبة في تاريخ الأمم والشعوب في العالم القديم أن تثار مشكلة إقليمية مثلما حدث في روما بين يوليوس قيصر وشريكه في الحكم بومبيوس على أمور محلية[٢٣] ، ثم ينــتقل الصراع عبر البحر المتوسط إلى الإسكندرية ، ويشاء القدر المحتوم أن ينتهي الصراع

علـــى أعتاب المدينة بمقتل بومبيوس ومجيء قيصر بجيش ليحاصر الإسكندرية دون جدوى[٢٤]، وبعد انـــتهاء الصـــراع تفـــرغ قيصـــر للتعرف على المدينة الأسطورية ، وعين نفسه حكماً دولياً ومصلحاً اجتماعـــياً وسياســـياً بـــين الملك البطلمي بطليموس الثالث عشر وبين أخته كليوباترا ، ويبدو أنه كان يتعامل معهم بمبدأ القرة المستمدة من وضع روما الدولي[٢٥] . وأول الأبعاد الحضارية التي سقطت من أيديولوجـــية الحكـــم البطلمي تتمثل في الضعف العام للممارسة السياسية للملوك الأواخر في سيطرتهم علـــى البلاد وخضوعهم الدائم للحماية الرومانية التي كانت بحق تسيطر على القرار السياسي البطلمي فـــي مصـــر . تلك الظروف مكنت يوليوس قيصر من دخول الميناء الملكي بأسطول بحري دون عنوة وبـــدون أذن مـــن أصـــحاب الـــبلاد[٢٦] . تلك الأمور استنفرت الملك البطلمي وأعوانه وكذلك الشعب السـكندري ، ونشبت الحرب السكندرية عام ٤٨ق.م وتم محاصرة قيصر وجنوده وأسطوله في الميناء والحـــي الملكـــي ، إلا أنـــه أشـــعل النيران في أحواض السفن والسفن السكندرية المرابطة على حدود الترســـانة البحرية، وربما كان هدفه تأمين الجانب الغربي من الحي الملكي ، ولكن نيران الحريق وحالة الاضـــطرابات التـــي ســـيطرت علـــى المدينة أثناء المعركة امتدت إلى مبنى المكتبة ، وأحرقت المكتبة وبعض المباني الملكية[٢٧] .

التقريـــر الـــذي كتـــبه قيصـــر ومؤرخه العسكري هيرتوس ، تناول الموضوع برؤية عســـكرية خاضـــعة للمفاهيم الحربية دون مبالاه بحجم الخسائر وأهميتها . فلم نجد إشارة في التقرير عن حريق المكتبة بصفة خاصة ، وفي الحقيقة نحن لا نستطيع أن نتهم قيصر بمحاولة حـــرق المدينة ، فإمكانياته العسكرية بعد وصول امدادات من روما كانت كفيلة بسقوط المدينة آنذاك ، ولكن هذا لا يمنع أنه شارك في تدمير وحرق المكتبة في عام ٤٨ق.م .

وعلـــى الـــرغم من ذلك فإن ما أقدم عليه القائد الروماني ماركوس أنطونيوس بتقديم اعتذار مادي للملكة كليوباترا أثناء زيارته الأولى للإسكندرية عام ٤١ق.م هو اعتراف من قبل الحكـــومة الرومانية بحريق المكتبة ، فقد عوض انطونيوس كليوباترا بحوالي مائتي ألف كتاب ومخطـــوط اتى بهم من مكتبة برجامة ، وعلى الرغم من الشكوك المثارة حول تلك القصة[٢٨]، إلا أن ما صورته مجموعة من المؤرخين الرومان فيما بعد أمثال ليفيوس وسينيكا وغيرهم من الـــذين حمّلـــوا قيصر والرومان جرم حريق الإسكندرية ، بأن الخسائر من الكتب والمخطوطات تـــراوحت ما بين ٤٠٠٠٠٠ - ٧٠٠٠٠٠ مؤلف ومخطوطة ، يدين قيصر وخططه الحربية في حريق مكتبة الإسكندرية[٢٩] .

هـــناك جانـــب آخر في المعلومات المتوفرة لدينا يجب الإشارة إليه ، فقد زار المؤرخ الجغرافـــي اســـترابون مدينة الإسكندرية عام ٢٠ق.م أي بعد حوالي ٢٨ عام على حرب قيصر وعلـــى الـــرغم مـــن وصـــفه المفصل الدقيق لجميع المباني الحيوية في الحي الملكي والميناء والمتحف[٣٠] ، إلا أنه لم يذكر المكتبة على الإطلاق ، وكأنه لم يراها أو سمع عنها أو أسهمت

فـــي تعلـــيمه وعلمه . هذا الأمر قد يبدو غريباً على رجل علمي مثل استرابون ، وربما كانت القيود السياسية التي قيدته السبب في ذلك، أو ربما المكتبة قد اختفت بعد حريقها عام ٤٨ق.م، أو أن اســـترابون تملكته غيرة علمية وسياسية نابعة من ظروف العصر الأوغسطي في الحديث عـــن علمـــاء المكتبة وفضل الملوك البطالمة في إنجازها الأسطوري . عموماً ربما كان موقف اســـترابون الغـــامض موقفاً شخصياً تجاه إنجازات المملكة البطلمية ، ولكنه على الجانب الآخر شارك بمعلوماته الغامضة في التأكيد على جرم قيصر في حريق مكتبة الإسكندرية .

المكتبة بين حرية العلم وعنصرية الممارسة الفكرية (الصراع الوثني المسيحي) :

إذا كانـــت المسيحية في مصر قد مرت بمراحل متعددة ومتطورة من أجل البقاء ، فإن صـــراعاتها الداخلية أعطت الفكر الوثني رغبة وقوة في الوجود ، تلك الحقيقة لا يمكن إنكارها فـــي الدراسات الحديثة عن تطور القومية المسيحية في مصر ، فمن (الناحية التاريخية) أصبح من الصعب الوقوف على أدلة تحدد التواصل بين الوثنية والمسيحية في مصر ، فقد كان هناك حالة من الاندماج الوثني المسيحي في أغلب الأقاليم المصرية[٣١] . من هذا المنطلق نحاول أن نلقـــي الضـــوء علـــى مفهـــوم الوثنية في مصر في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، ففي الإســـكندرية ، امتـــزج الحـــال بين نشوة الانتصار الديني والشعور الوطني ومحاولات الانتقام الشرسة التي ظل النيقيون يكنّونها للأريوسيين والوثنيين .

أمـــا الحـــديث عن الاتجاه الثاني ينحصر في مكتبة السرابيوم لغياب الأدلة على وجود مكتبة الإسكندرية في حالة المتهم الثاني البطريرك ثاوفيلوس .

ففـــي عـــام ٣٨٥م تولـــى البطريـــرك (ثاوفيلوس) كنيسة الإسكندرية ، وكان تلميذاً لأثناســـيوس ، ويـــبدو أنـــه كان موضع ثقة الإمبراطور ثيودسيوس الذي كلفه بتعديل التقويم الزمني الخاص بمسألة عيد الفصح بين العيدين المصري والروماني. وقد اختلف المؤرخون في وصـــفه (المنـــتقم الشـــرس) أو صـــاحب (الحكمـــــة والشـــجاعة)[٣٢] . على أي حال ، وجد (ثاوفـــيلوس) فـــي مراســـيم ثيودسيوس سلاحاً للقضاء على الوثنية والأريوسية ولا سيما في الإســـكندرية مقر الحكم ومقر البطريركية الرئيسية في مصر . فكانت أولى قراراته أن طلب من الإمبـــراطور (ثيودسيوس) تحويل معبد الإله ديونيسوس إلى كنيسة ، فوافق الإمبراطور وطلب مـــن الوالي (إيفاجريوس) مساعدته في ذلك ، فعمل على هدم المعبد وأقام على أنقاضه كنيسة كبـــرى أطلـــق علـــيها اسم الملك (ثيودوسيوس)[٣٣] . ولا نعلم على وجه الدقة هل حدث هدم بالفعـــل، أم تغيُّـــر في الهيكل ونزع التماثيل الوثنية فقط وبقاء المبنى كما هو . عموماً كان رد الفعـــل الطبيعـــي للوثنيـــين في الإسكندرية وهم يشاهدون أحد أهم معابدهم يدمر ، هو رد فعل ثـــوري تـــزعمهم آنذاك الفيلسوف الوثني أوليمبيوس **Olympius** واحتدم الصراع بينهم في شـــوارع المديـــنة ، واستطاع الوثنيون أن يفتكوا بكثير من المسيحيين ، ربما لأن منهم رجالاً

مدربون على حمل السلاح ، ويتفق المؤرخون (سوزمن وثيودوريت) على أن بداية الشغب كان مـن جانـب الوثنيين الذين اعتبروا عملية هدم المعبد وتدنيس التماثيل الخاصة بالآلهة إهانة كبـرى لعقيدتهم . في حين أعتبر (سقراط) أن المسيحيين هم الذين صبوا غضبهم على الأقلية الوثنـية ، وهـو الغضب الذي ظل كامناً منذ فترات طويلة من ذات القرن(٣٤) . ويبدو أن هناك حالة من الخلط بين الوثنيين والأريوسيين (ربما لتقارب وجهات النظر من الناحية العقائدية في بشـرية المسـيح) ، ولكن حملات الوالي (ايفاجريوس) العسكرية كانت تساند النيقيين منفذاً ما جاء في قرارات ثيودوسيوس .

حـاول الوثنيون أن يجدوا مفراً من الموت المحقق لهم ، بالالتجاء للحماية والتحصن فـي معـبد السـرابيوم ، آملـين فـي أن يكون سرابيس شفيعاً ومعاوناً ومنقذاً لهم ، وتبعهم المسـيحيون ، ودارت هـناك معـركة دامية ، دمرت على أثرها أجزاء كبيرة من المعبد ، وفر الوثنـيون مـن الإسكندرية إلى أماكن متفرقة من مدن مصر . ويشير (سقراط) هنا إلى بعض علمـاء الـنحو فـي مدرسة الإسكندرية ، الذين فروا للأرياف بعيداً عن شغب المدينة ومنهم هلاديوس Helladius ، وأمونيوس Ammonius الذي عبر عن استيائه بعد أن شاهد تماثيل الآلهة معرضة لسخرية المسيحيين وازدرائهم في الطرق والدروب(٣٥) .

مـن المحتمل أن يكون مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م والذي قضى رسمياً فقط على الأريوسية والوثنية ، قد مهد تقريباً لظهور حالة جديدة بدأت تطفو على السطح في العلاقة بين المصـريين والمسـيحية . ففـي محاولـة للقضاء على الفكر العنصري الذي تفشى في مدينة الإسـكندرية بسـبب الصراعات المذهبية المسيحية والتي كانت تتصل بالتراث الثقافي والديني الأمـر الـذي أدى إلـى ظهـور الجدل الدامي بين الاريوسيين والنيقيين ، وبرؤية جديدة أقدم (ثاوفـيلوس) على ضرب الوثنية في الإسكندرية ، ويبدو أنه كان اتجاهاً مقصوداً ، لأنه ما لبث أن تخلـص مـنهم حتى حاول التخلص من المصدر الأصلي وراء تلك المشاكل اللاهوتية وهي كـتب وتعالـيم (اوريجنـيس)(٣٦) ، ولعل الباحث المدقق في تطور القومية المسيحية في مصر يلاحـظ إلـى أي مـدى كانـت المسيحية متصلة بالفكر الثقافي الممارس في الإسكندرية خلال القـرنين الثاني والثالث الميلاديين . ولكن على الجانب الآخر فُسرت تلك المحاولات المسيحية للـتخلص مـن المـوروث الثقافي القديم على أنها انتصارات قومية ودينية دون مبالاة بحجم الخسائر وخاصيتها التي ارتبطت بتفشي الفكر الواحد المتسلط ذو النزعة الدكتاتورية حتى على شـكل الممارسـة الدينـية وحرية العبادة . من هنا تحولت الإسكندرية من مدينة صاحبة فكر مسـتنير مـتطور فـي حرية كاملة ، إلى مركز للسلطة الاستبدادية في الكنيسة والفكر الواحد الرجعـي، وعلى الرغم من النزعة القومية التي سيطرت في تلك الفترة على العديد من مؤرخي

الكنيسة ، إلا أننا في أغلب الأحيان نجدها نوعاً من التدهور الثقافي بمفهومه الشامل أعتمد على عشوائية الاختيار والتقنين والممارسة الثقافية .

هيباثيا والحلم الأخير :

ربما كانت تلك هي الحالة التي تركها (ثاوفيلوس) قبل أن يرحل في ٤١٢م، تاركاً إرثاً ضخماً على عاتق خليفته (كيرلس) Cyril الذي حاول جاهداً تحقيق ما فشل فيه خاله (ثاوفيلوس)[٣٧] . وتجدر الإشارة هنا إلى حادث قد يكون له تأثير بالغ في تدعيم محاولات الكنيسة في التخلص من الإرث القديم . فيعد حادث مقتل الفيلسوفة الوثنية (هيباثيا) Hypatia حدثاً عارضاً فردياً ، ولكنه يعبر عن أشياء قد تبدو مبهمة إلى الآن . فمن خلال (سقراط) أقرب المصادر آنذاك[٣٨] ، نجد أن (هيباثيا) إبنه الفيلسوف السكندري (ثيون) Theon وقد اشتهرت في الإسكندرية في مجالات العلوم والأدب والفلسفة ، وكانت تضاهي أعظم الفلاسفة آنذاك ، حيث كان يفد إليها من جميع أنحاء الإمبراطورية طلاب علم يستمعون لمحاضراتها . ويبدو موقف (هيباثيا) من المسيحية غامضاً وغير مفسر تماماً ، وهل هي كانت بالفعل وثنية ، أم كانت تعبر عن أفكار المجتمع آنذاك الذي اختلطت فيه جميع الأفكار الدينية (الوثنية – المسيحية – الغنوسية) القائمة على العلم والمعرفة الواقعية فقط ؟. تبدو الإجابة هنا مبهمة ، ولكن الثابت أن (هيباثيا) كانت على علاقة ودية مع الوالي الروماني (أوريستا) ، وبعض المسيحيين من رجال الكنيسة أشاروا إلى أنها كانت على علاقة حميمة وفريدة مع الوالي ، وهو السبب الذي كان وراء سوء العلاقة بين الوالي وكيرلس . يحتمل أن يكون (بطرس قاتلها) واحداً منهم ،وأنه اتخذ على عاتقه مسألة التخلص من (هيباثيا) والقضاء عليها ، فأنتظرها أثناء عودتها إلى بيتها، ونزع ثيابها وقتلها ومزق جثتها . تلك الحادثة وإن كانت لا تلقي اللوم مباشرة على الأسقف السكندري كيرلس ، إلا أنها بدون شك تعكس ملامح الحالة الدينية في الإسكندرية وموقف الكنيسة من أصحاب الفكر المناهض لسلطتها .

عموماً فإذا كان يوليوس قيصر قد أسهم في حرق الإسكندرية ، فإن ثاوفيلوس أجهز على ثقافتها الوثنية وعلى البقية الباقية منها ، وإذا كان هناك ذنب غير مقصود عند قيصر فإن القصد بعينه كان واضحاً في تصرفات ثاوفيلوس وكيرلس من بعد .

والسؤال التالي ما الذي بقى من ثقافة المكتبة في الإسكندرية بعد ذلك حتى نعطي مبرراً للتهم الملقاة على عاتق عمرو بن العاص ، فإذا وافقنا على مذبحة الإسكندرية وحروب دخولها على مرحلتين عامي ٦٤٥ ، ٦٤٠ ، وإذا اعترفنا بتدمير المدينة على أثر المعارك والمقاومة العنيفة التي لاقاها العرب أثناء الدخول ، لكن ما علاقة المكتبة ومؤلفاتها المدونة بلغات يجهلها العرب ، كما أنها حتى تلك الفترة لم تكن ذات تأثير سلبي على الثقافة الإسلامية والتراث الديني الإسلامي ، وما علاقة محتواها الفلسفي أو الديني مع الفكر الإسلامي ، تلك الأمور بالإضافة إلى غياب الأدلة المصدرية

والأثــرية المعاصــرة لــتلك الفترة وضعت المحكمين دائماً في مأزق تاريخي تجاه التهم الموجهة إلى العرب في تدمير الثقافة الوثنية في مدينة الإسكندرية .

هكــذا أسـهمت الأبعــاد الحضارية في اختفاء المكتبة وتواري البعد الثقافي عنها في العصر البيزنطي المتأخر ، وقد اعتمدت في الأساس على العنصرية الفكرية والدينية التي نبعت مــن عشوائية الطرح الثقافي المختلط في الإسكندرية والقائم على حالة من التعويض السياسي بدون وعي ، فضلاً على غياب الوعي العلمي القائم على مبدأ الحرية . وتفشي النظام المركزي صاحب الفكر السلطوي ، وغياب القوة السياسية المستنيرة وبالطبع أيضاً أسهم في زيادة حجم الخســائر الثقافــية تلــك الفجــوة الواسعة بين طبقات المجتمع المدني في الإسكندرية والقرى المصرية . لذلك غاب البعد الثقافي لمكتبة الإسكندرية عن قصد ودون وعي .

الهوامش

١- حول تأسيس مكتبة الإسكندرية

Mcleod, R. The Library of Alexander . Center of Learning in the Ancient World . London: I.B. Tauris, 2000. 34ff: Mostafa El-Abbadi, The Life and Fate of the Ancient Library of Alaxeandria, Part II, ch.3 "Mouseion and Libraries: The Library", 1992: Hölbl, Günther. A History of the Ptolemaic Empire. London, 2001 35-38.: Hose, Martin. "Der alexndrinische Zeus. Zur Stellung der Dichtkunst im Reich der ersten Ptolemäer". Philologus 141, 1997,3-20.;; Johnson, Emer D. History of Libraries in the Western World. Scarecrow Press, Inc. Metuchen: 1970; Marlowe, John. The Golden Age of Alexandria. Trinity press. London,1971.

٢- حول الايديولوجية السياسية التي طبقها الملك بطليموس الأول في مصر منذ عام ٣٠٥ ق.م راجع حول مصادر تلك الفقرة:

Arr. An. III.6.1-5; 29.7-30, Ps. Kallisthenes. FGr Hist. 239 B23; Strabo, XVII.1.40, Diod. XX. 113-130, XXI, 1.1-7; Plb. V67-8; XXVIII. 20.7.

أيضاً راجع : محمد عبد الفتاح السيد ، المصريون والبطالمة، أيديولوجية الحكم السياسي، الإسكندرية، ٢٠٠١ ، ص٣٠ وما بعدها.

Ager, Sheila L.Interstate Arbitration in the Greek World, 337-90 B.C. Berkeley 1996 (Hellenistic Culture and Society 18) . 579 pp. Reviews: E.L.Wheelr, AJPH, 119, 1998, 642-6.: Ashley, J.R. The Macedonian Empire. The Era of Warfare Under Philip II and Alexander the Great, 359-323 B.C. Jefferson (NC) & London,1998. Reviews: M. Whitby, CR49, 1999, 602-3; Holbl, Gunther A History of the Ptolemaic Empire London, 2001, 9-33; Bernand, A. 'Les veilleurs du Phare.' ZPE 113, 1996, 85-90.; Bogaert, R. 'Les opérations des banques de 1' Egypte ptolémaïque,' AncSoc 29, 1998. 49-145' Collins, N.L. 'Tee Various Fathers of Ptolemy I.' Mnemosyne 50, 1997. 436-76.' Hammond, Nicholas G.L. 'The Continuity of the Macedonian Institutions and the Macedonian Kingdoms of the Hellenistic Era.' 1988 Historia 49, 141ff.; Hazzard, R.A. Imagination of a Monarchy. Studies in Ptolemaic Propaganda. Toronto 2000 (Phoenix Suppl. 38). Xii. 244 ff' Herz, P. 'Die frühen Ptolemaier bis 180 v. Chr., In: R. Gundlach & H. Weber (edd). Legitimation und Funktion des Herrschers: Vom Pharao zum neuzeitichen Diktator. Stuttgart 1992, 52-97.

٣- محمد عبد الفتاح السيد، المصريون والبطالمة، أيديولوجية الحكم السياسي، الإسكندرية، ٢٠٠١، ٣٠ وما بعدها ،

A.E Samuel, The Ptolemies and the Ideology of Kingship, (in Hellenistic History & Culture) London. 1993, 169ff; D.J Crawford, Ptolem. Ptah and Apis in Hellenistic M R.,Robert & M. Singer, The Cultural Role of Cities, in (Economic Development and Cultural Change) 3, 1954, 53-74; G. Hölbl, A History of Ptolemaic, London, 2001. 304-305

٤- حول مفهوم القوة العسكرية في السيطرة الإيديولوجية للحكم البطلمي في مصر ودورها في تحقيق الاستقرار السياسي راجع :

A.E Samuel, 1993, 176ff; G Hölbl, 2001,. 59-60, 131-132, 154, 306-307; J. Graiger, Hellenistic Phoenicia, Oxford, 1991,. 95-96; Wheatley, P Ptolemy Soter's annexation of Syria 320BC, CIQu, n.45, 1995, 433-440; Sekunda, N. the Ptolemaic Army under Ptolemy VI Philometor, Stockport, 1995, 31-52; Bernand, 1992, no,12, 13,14; Huß, W., Die in Ptolemaiischer Zeit verfaßten Synodal-Dekrete der agyptischen prister, ZPE- 88, 1991, pp189-208, esp. n8. 193-196; Johnson, C.G., Ptolemy V and the Rosetta decree, The Egyptainization of the Ptolemaic Kingship, AncSoc 26, 1995, 135-155.

٥- حــول الأيديولوجيا الدينية راجع : محمد عبد الفتاح السيد، المصريون والبطالمة، أيديولوجية الحكم السياسي، الإسكندرية، ٢٠٠١ ، ٣٠ وما بعدها .

Hölbl, 2001, 99-102; A.E Samual, 1993, 169-181; J.G. Griffiths, Egypt and the rise of the synagogue, JtheoStu.38. 1987, 1-15;G. Mussies, some notes on the name of Sarapis, in (Hommages a Vermaseren), II, Leiden. 1978, pp.821-832, Fraser, 1972,I, 246-251; G. Grimm, Zum Ptolemäeraltar aus dem alexandrinischen Sarapieion, in Alessandria,I, 1983, 70-73.

٦- Mostafa El-Abbadi, 1992, 90-102 .

٧- Fraser, P.M. Ptolemaic Alexandria. Volme I of III. Oxford: 1972. I, 320-321; Ellis, Ptolemy of Egypt. Routledge. New York: 1994,50-52 .

٨- Mostafa El-Abbadi, 1992, 99-100; Ellis, 1994, 50.

٩- Ellis, 1994, 55.

١٠- Mostafa El-Abbadi, 1992, 90-93 .

١١- Strabo, Geog., XVII,8 .

١٢- Mostafa El-Abbadi, 1992, 95ff .

١٣- Mostafa El-Abbadi, 1992, 96-100 .

١٤- Hölbl, Günther. 2001,. 26; Fraser, P.M.: (1972).I, 312-335 .

١٥- Mostafa El-Abbadi, 1992, 100ff .

١٦- حول أهمية المنح السكندرية لعلماء البحر المتوسط راجع :

Hölbl, Günther. A History of the Ptolemaic Empire. London, 2001, pp.63-65, M.R. Lefkowitz, The Quarrel between Callimachus and Apollonius, ZPE,40, (1980) 10-19 .

١٧- Mostafa El-Abbadi, 1992, 96-100 .

١٨- Mostafa El-Abbadi, 1992, 101-102 .

١٩- Hölbl, Günther. 2001,191ff .

٢٠- Pliny, Nat. VI. 58; Hölbl, Günther. 2001, p.57.

٢١- F. Goddio, The Topography of the submerged Royal Quarters of the Eastern Harbour of Alexandria, London, 1998, 1-3, 12-15.

٢٢- Hölbl, Günther. 2001,236-239; Fraser, P.M.1972.II, 493ff .

٢٣- H. Heinen. 1966 11-23, 32f .

٢٤- H. Heinen. 1966, 32f; Hölbl, Günther.2001, 232ff.

٢٥- H. Heinen. 1966, 32f.

٢٦- Caesar, B.Alex. 6-24; H. Heinen,.1966, 33-34, 92-142.

٢٧- H. Heinen.1966, 206, 234-236; Fraser, P.M. Ptolemaic 1972. I, 334ff.

٢٨- Mostafa El-Abbadi, 1992, 146-156.

٢٩- McLeod, R., 2000. 196ff.; Hölbl, Günther.2001, 236.

٣٠- Strabo, Geog., XVII, 8.

٣١- محمد عبد الفتاح السيد ، المصريون والمسيحية ، الإسكندرية (٢٠٠١) ٢٦٦ - ٢٨٨ .

٣٢- حول ثاوفيلوس وصراعه مع الوثنية : راجع :

- Theod. H.E., V.16-21; Socrat. H.E., V. 1-7, 15-16; Sozoman. VIII. 12-13.

- C. Haas, Alexandria in Late Antiquity, London, (1997) .160ff.

٣٣- C. Haas, (1997) .160ff.

٣٤- محمد عبد الفتاح السيد ، المصريون والمسيحية ، الإسكندرية (٢٠٠١) ٢٧٢ .

Theod. H.E., V. 16-21; Sozoman. VIII. 12-13; Socrat. H.E., V. 1-7, 15-16.

٣٥- محمد عبد الفتاح السيد ، المصريون والمسيحية ، الإسكندرية (٢٠٠١) ٢٧٢ .

Girggs. C.W. Early Egyptian Christianity from its Origins to 451. C.E, Leiden. (1993) 186-189.

٣٦- Socrat.VI.16-21; Sozomn. VIII.12-13.; Palladius. Vita8;C.Haas,(1997) pp.165ff.

٣٧- حول نشأة كيرلس وتعاليمه الأولى : رجع :

Girggs.C.W. (1993) 188-194; Socrat. H.E. VII. 13-15; socrat. H.E. VII. 13.

٣٨- حول حادث هيباثيا . راجع:

Socrat. H.E. VII. 15.

٦- دور علماء مكتبة الإسكندرية فى الدراسات الأدبية و البحث العلمى

أ.د. محمد حمدى إبراهيم

أستاذ الدراسات اليونانية والرومانية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

منذ أن أصبحت الأوراق البردية أهم مادة للكتابة فى العالم القديم ، ومنذ أن عم انتشارها فـــى بلدان البحر المتوسط ، راجت سوق الكتاب كوسيلة للمعرفة وأصبح بوسع الأفراد ــ كما هو بوسع الهيئات ــ أن يقتنوا مكتبات خاصة بهم . ويخبرنا أثينايوس Athênaeus في كتابه الشهير "مأدبة الفلاسفة"

(Athênaeus, Deipnosophistai, i. 3a, Leipzig (1887), ed.by G.Kaibel)

أن بيســـتر توس Pisistratos حاكم أثينا ، وبوليكراتيس Polykratês حاكم ساموس ، كانا يقتنيان مجموعات ضخمة من الكتب .

وعـــندما أوشـك القرن الخامس ق.م. على الانتهاء لم يعد من الغريب وجود المكتبات الخاصة، فنـــرى الكاتــب المســـرحى الكومـــيدى أرســتوفانيس Aristophanês ، فـــى مســـرحيته الضفادع Batrachoi، يـــتهكم علـــى زمـــيله الشـــاعر التراجيدى يوريبيديس Euripidês (بيت رقم ٩٤٣ من المسرحية) ، ويزعم أن الأخير كان يستمد عادة الشطر الأكبر من مادة مسرحياته من الكتب :

"يستقطر ما فى الكتب : apo bibliôn apêthôn"

ويخبــرنا مؤلـــف كـــتاب حـــياة الخطـــباء العشـــرة ، المنســـوب خطأ إلى بلوتارخوس Ploutarchos (فقـــرة ٨٤١ ومـــا بعدها) ، أن الخطيب الأثينى ليكورجـــوس Lycourgos (٣٩٠ ــ ٣٢٤ ق.م.) قـــد تقدم إلى الحكام فى مدينة أثينا باقتراح مؤداه ضرورة حفظ الوثائق الرسمية فى دار للمحفوظات خاصة بها . ولا ريب أن مثل هذه الدار قد أنشئت فى فترة زمنية تالـــية لـــتقديم هـــذا الاقتراح ، لأن الحاجة وقتئذ كانت ماسة للحفاظ على نصوص المسرحيات التراجيدية والمؤلفات الأدبية والتاريخية والفلسفية وغيرها ؛ وبدون ذلك كان من العسير ــ أو ربما من المستحيل ــ أن تصل إلى أيدى الباحثين والقراء فى العصر اليونانى ــ الرومانى .

ولقد أدى تقدم العلم وازدهاره ، منذ انفصال معظم العلوم عن الفلسفة خلال القرن الرابع ق.م. ، إلى وجود مدارس فلسفية وعلمية ذات شهرة ذائعة ، مثل مدرسة أفلاطون التى تعرف

باســم الأكاديمــيةAkadêmia ، ومدرســة أرســطو Aristotelês التى كان مقرها الليكيون Lykeion وعــرفت باسم مدرسة المشائين Perpatêtikoi ، والمدرسة الرواقية التى أسسها الفيلسوف زينون Zênôn وكان مقرها الرواق المزخرف Stoa Poikilê ، والمدرسة الإبيقورية التى أسسها الفيلسوف إبيقور Epikouros ، وعرفت باسم مدرسة الحديقة Kêpos، ومدرسة الشُــكّاكSkeptikoi التى أسسها الفيلسوف بيرون الإيلىPyrrhon of Elis ، وغيرها. وكانت مبانــى هــذه المــدارس جميعاً تحتوى على مكتبات تضم بين جنباتها أعداداً وفيرة من الكتب والمــؤلفات فــى شــتى صــنوف المعــرفة . ويخبرنا الجغرافى الشهير استرابون Strabôn (xiii3,1,54) أن الفيلسوف أرسطو كان يملك مجموعة ضخمة من الكتب ــ على الأقل بمقاييس عصــره ــ وهــو أمر ربما يفسر لنا سبب تعدد اهتمامات فلاسفة مدرسة المشائين الأرسطية وتشعبها ، خاصة بعد أن ورثوا عن أستاذهم ورائدهم بعد وفاته هذه المكتبة .ولقد غدت مكتبة الفيلســوف أرسطو هى النموذج الذى أسست على غراره مكتبــــة الإسكندرية الشهيرة ، بناء علــى اقتــراح مــن ديمتــريوس الفاليــرى Dêmêtrios of Phaleron أحد تلاميذ مدرسته (Diogenês Laestios , iv , 1;v, 51) ، والــذى أسســت علــى غــرارها كذلك مكتبات المدن الهيلّنستية الأخرى ، مثل مكتبة مدينة برجامون Pergamon .

ومن الأهمية بمكان ، بعد هذه المقدمة عن أهمية الكتب قديماً ، أن نتحدث عن الدراسات الأدبــية والبحوث العلمية التى تمت فى مدينة الإسكندرية ، على وجه الخصوص ، داخل أروقة الموســيون Mousion الســكندرى وخارجهــا . ولا بد أن ننوه هنا بأن الموسيون كان مركزاً للــبحث فــى العلــوم والفــنون والآداب سواء بسواء، كما كان علماؤه ورجالاته يجمعون فى خبــراتهم بــين هذه المجالات . ونضرب مثلاً على هؤلاء بأعظم علماء الجغرافيا آنذاك ، وهو إراتوســثينيس Eratosthenês ، الذى كان عالماً أيضاً فى الرياضيات وشاعراً وأديباً فى نفس الــوقت ، لدرجــة أن زملاءه فى الموسيون كانوا يطلقون عليه حينا اسم صاحب التخصصات الخمسة ho Pentathlos ، أو الثانى to Bêta ، بمعنى أنه كان الثانى فى أى علم أو تخصص بعــد مؤسسه. أما فى الجغرافيا فكان إراتوسثينيس هو الأول بلا منازع ، ويكفيه فضلاً فى هذا المقــام أنه كان أول من تمكن من قياس محيط الكرة الأرضية بدقة فائقة تدعو للإعجاب ، قبل قرون عديدة من ظهور كوبرنيكوس .

ولقــد كانــت مكتــبة الإســكندرية القديمة ، التى كان مبناها الأول عبارة عن جزء من الموســيون ، مخصصــة لخدمة الباحثين من العلماء والفقهاء والبارزين ، وهى المكتبة التى عــرفت قــديماً باســم المكتــبة الملكية ، والتى تعزى فكرة إنشائها كما ذكرنا إلى ديمتريوس الفاليــرى ، تلمــيذ الفيلســوف ثيوفراستوس Theophrastos عالم النبات الشهير الذى خلف

أســتاذه أرســطو فــى رئاســة مدرسة المشائين. ولقد ضاقت هذه المكتبة الملكية بعد إنشائها بســنوات بمــا حــوت من كتب ، الأمر الذى حدا بالملك بطلميوس الثالث يورجتيس إلى إنشاء مكتبة أخرى اتخذت من معبد السرابيوم Serapium بعد بنائه وتشييده مقراً لها .

ولا ريــب أن جهوداً مضنية قد بذلت قديماً فى تصنيف هذه الكتب ، التى ذكرت المصادر المتأخرة أن عددها قد وصل إلى ما يزيد عن تسعمائة ألف كتاب ، حتى يمكن استفادة الباحثين مــنها ، غيــر أننا لا نعرف على وجه الدقة كيف تم تصنيفها وفهرستها فى ذلك العصر ؛ وإن كانــت الإشــارات الواردة فى المصادر القديمة تبين لنا أن كاليماخوس Kallimachos ، زعيم البــرناس الســكندرى وأميــر شــعراء العصــر الهيلّنستى ، هو الذى اضطلع بإعداد القوائم الببليوجــرافية لكتب هذه المكتبة فى حوالى مائة وعشرين لفافة بردية . وإلى جانب هذا الجهد الفائق الذى قام به كاليماخوس ، حمل باحثون آخرون من الأدباء والشعراء على كاهلهم مهمة إعــداد تصنيفات نوعية لكل طائفة متجانسة من الكتب ، مثل مؤلفات التراجيديا أو الكوميديا أو الشعر الغنائى أو الخطابة وغيرها .

ومــن المشــاكل المتعددة التى واجهت علماء مكتبة الإسكندرية ، أن الكتب القديمة كانت علــى شــكل لفافات بردية مخطوطة يتم نسخها باليد ، وأن مستوى من يقومون بنسخها كان يتذبذب بين التفوق والامتياز وبين الافتقار إلى الدقة والوقوع فى كثير من الأخطاء . ولقد أدى هذا التذبذب إلى أن أصبحت النصوص القديمة طوال مراحل نسخها وتداولها عرضة للتحوير أو الــدس أو التحــريف بسبب الأخطاء التى كان يتردى فيها كثير من النساخ ؛ وكان لزاماً على باحثــى ذلك العصر الاضطلاع بتصويبها ومراجعتها وتحقيقها ، لكى يصبح فى وسع من يقرأها فــى نهاية الأمر الحصول على نسخة صحيحة خالية من الأخطاء ما أمكن ذلك . ولقد أدت هذه الجهــود والمحــاولات لحســن الحــظ إلــى تقدم مطرد فى مناهج الدراسات الأدبية ، وتحقيق النصوص القديمة ، وتأليف البحوث العلمية ونشرها .

ولــيس من قبيل المصادفة أن خمسة من القائمين على الإشراف على مكتبة الإسكندرية الشــهيرة ، وهــم : زينودوتوس Zênodotos ، أبوللونيوس الرودى Apollônios Rhodios ، إراتوســثينيس ، أرســتوفانيس البيزنطــى Aristophanês Byzantios ، أرســتارخوس Aristarchos ، كانــوا كلهم تقريباً من الشعراء ومن رجالات الأدب فى عصرهم. وإلى هؤلاء العلماء وأمثالهم يعزى الفضل الأكبر فى التقدم الملحوظ الذى طرأ على مناهج الدراسات الأدبية والبحث اللغوى ، وأعتقد أن العصور التالية لعصرهم ينبغى أن تشعر تجاههم بالامتنان والتوقير ، لأن جــل ما وصل إلى العصور الوسطى من مخطوطات ونصوص قديمة محققة وموثقة كان ثمــرة لجهــودهم وبفضل علمهم. ويكفى فى هذا المجال أن نضرب مثلاً بنصوص هوميروس

Homeros، شـــاعر الملاحـــم الفذ الذى أشادت بعبقريته كل العصور بلا استثناء ، وحسبنا أن نذكر أن ما وصل إلينا من أعماله عن طريق البرديات التى اكتشفت فى أرض مصر خلال القرن الـــثالث قبل الميلاد كان ضئيلاً بكل المقاييس ، فضلاً عن عدم دقته وبعده عن الصواب ، إذا ما قارناه بما وصلنا من القرون التالية حتى القرن السادس الميلادى . ولا ريب أن السبب المباشر وراء زيـــادة عدد نصوص هذا الشاعر واتصافها بالدقة واعتمادها على التحقيق والتوثيق كان بفضل جهود علماء مكتبة الإسكندرية وعملهم الدؤوب ، وتكريسهم جل وقتهم للعمل فى صمت وتجرد ، نشداناً لخلود الذكر وذيوع الصيت . ولقد كان هدف هؤلاء العلماء ـــ فيما هو مرجح- يـــتلخص فـــى أن يوفـــروا للمهتمين نصوصاً محققة لكل الكتاب القدامى أو لمعظمهم على أقل تقدير، بحيث يعتمد على دقتها ويعول على صحتها.

وإلـــى جانـــب هذا الهدف الجليل أو هذه الغاية الصعبة ، وضع علماء مكتبة الإسكندرية نصـــب أعيـــنهم أن يتم نسخ مؤلفات القرن الخامس ق.م. من الأصول الأتيكية المعتمدة لا عن طـــريق النســـخ المنقولة ، وأن يجرى تدوينها بنظام الكتابة القديم الذى ظل سائداً عند تدوين الـــنقوش الإغريقية حتى عام ٤٠٣ ق.م. تقريباً . ومما ينهض دليلاً على صحة هذا الرأى أن أرســـتارخوس ، الـــنحوى الشهير ، قد شرح لنا أن وجود بعض مواطن الصعوبة فى نصوص الشـــاعر الغنائى الشهير بنداروس Pindaros ، كان سببه عدم فهم الأجيال التالية التى عاشت خـــلال العصـــر السكندرى لطريقة الكتابة بالأبجدية الإغريقية القديمة التى كانت مطبقة ـــ كما ذكـــرنا ـــ قـــبل عـــام ٤٠٣ ق.م. والتى دونت بها نصوص هذا الشاعر فى أصولها القديمة . ويضـــرب لـــنا أرســـتارخوس مـــثلاً علـــى هـــذا بـــأن ناســـخ إحدى قصائد بنداروس النيمية (Nem.,I,24) ـــ خلال القرن الخامس ق.م. ـــ قد دون فى المخطوطة كلمة slos (وهى كلمة فى الصورة الدورية للكلمة الأتيكية esthlos التى تعنى : خير أو نبيل). ولقد ظن أرستارخوس لأول وهلـــة أن هذه الصفة فى حالة الفاعل المفرد كما تراءى له من نهايتها (os -) ، غير أنه مـــا لبث بعد تفكير أن اكتشف أن مثل هذه الحالة لا تتناسب مع وزن بيت الشعر ، ومن ثم فقد هـــداه تفكيره إلى تصويبها إلى «slous» ، أى أنه جعلها فى حالة المفعول به الجمع وهنا استقام الـــوزن ، وذلـــك على اعتبار أن طريقة تدوين الأبجدية الإغريقية كانت تقضى باستخدام حرف الأوميكرون (o) بدلاً من الصوت المزدوج (ou) .

ومـــن الوســـائل التـــى كانت خير عون للقارئ فى ذلك العصر علامات الترقيم Sêmeia Stixeôs والنبـــرات Tonoi ، التى كان الهدف من وضعها على الكلمات توضيح النطق السليم ورفع الصوت على مقطع بعينه عند نطق الكلمة ، وهى العلامات التى عزى فضل ابتكارها إلى الـــناقد الفـــذ أرســـتوفانيس البيزنطى . ومن الجدير بالذكر أن الفائدة التى عادت على العصور

الحديثة من استخدام هذه الوسائل كانت أكبر بكثير من الفائدة التى جناها القدماء . ونحن نعلم أنه لم يعم استخدام هذه العلامات بشكل ملحوظ إلا فى بداية القرن العاشر الميلادى . وربما كان السبب فى عدم انتشارها طوال العصور القديمة والوسطى راجعاً إلى أن تحقيق النصوص كان أهم لدى العلماء من استخدام الوسائل المعينة على القراءة ، خاصة أن القراء فى ذلك العصر كانوا يتحدثون ويكتبون باللغة اليونانية ، لغة آبائهم وأجدادهم ، ولم تكن حاجتهم ملحة لمثل هذه الوسائل .

ولم يكن شرح النصوص والتعليق عليها بأدنى أهمية من تنقيحها وتحقيقها ، ومن هنا فقد تفتقت قريحة علماء مكتبة الإسكندرية عن ابتكار ما يعرف باسم الحواشى أو التعليقات scholia ، التى كانت خير معين للأجيال التالية على فهم كثير من دقائق النصوص القديمة ، والتى أنارت لنا الشطر الأكبر مما غمض علينا فهمه . ومن الكتب المهمة التى ألفها علماء مدرسة الإسكندرية ، والتى أعانت الباحثين على فهم مرامى النصوص القديمة الخفية ، الكتاب الذى ألفه زينودوتوس عن حياة هوميروس ، ثم مقاله الذى دونه عن الزمن الداخلى لأحداث ملحمة الإلياذة، وكتاب أرستوفانيس البيزنطى عن القياس النحوى Peri Analogias ، وكذلك كتابه الذى صوب فيه القوائم البيليوجرافية التى أعدها كاليماخوس ، ثم أكملها بإضافة عدد من الملاحق لها . ولقد ورد فى إحدى البرديات الإغريقية التى تم العثور عليها فى مدينة أوكسيرنخوس (البهنسة حالياً P.Oxy.,no. 2192) ، أن هناك مقالاً عن شخصيات الكوميديا قام بتأليفه هيبسيكراتيس Hypsikratês ، ومقالاً آخر عن الأساطير المستخدمة فى التراجيديا من تأليف ثرساجوراس Thersagoras . ولم تكن هذه التعليقات تدون ـ كما هو الحال فى المخطوطات ـ فى حواشى النصوص القديمة نفسها ، بل كانت تدون فى لفافة بردية منفصلة عن لفافة العمل الأدبى نفسه .

ولقد كانت هناك علامات ورموز خاصة متفق عليها بين العلماء ، يتم استخدامها بغرض لفت نظر قارئ النص المخطوط إلى امتياز فقرة أو روعتها ، أو لتنبيهه إلى أنها فقرة مدسوسة أو منحولة . ويمكننا أن نسوق مثالاً على هذه الرموز أو العلامات مما وجدناه مدوناً على إحدى برديات مجموعة برلين (P. Berol.,9780) التى يحتوى متنها على جزء من تعليقات الباحث اللغوى والناقد ديديموس (القرن الأول ق.م.) على أعمال الخطيب الأثينى الشهير ديموسثينيس Dêmosthenês . وأولى هذه العلامات تعرف باسم الخط القصير obelos (—) ، وهى عبارة عن خط أفقى قصير يوضع فى الهامش على يسار بيت الشعر المدون، لكى يوضح الباحث المحقق أنه بيت مدسوس ؛ ولقد استخدم زينودوتوس هذه العلامة فى أبحاثه لتوضيح هذا الغرض بصفة منتظمة . وهناك خمس علامات أخرى استخدمها كل من

أرسـتوفانيس البيزنطـي و أرسـتاخوس في تحقيقهما للنصوص القديمة ، أولها تعرف باسم العلامـة الازدواجـية diplê (<) ، وهى علامة تلفت نظر القارئ إلى موضع ذى أهمية خاصة متعلق بمضمون النص أو بلغته . والثانية تسمى العلامة الازدواجية ذات النقطتين diplê peristigmenê (<) ، وكان أرستارخوس يشير بها إلى بيت اختلف مع زميله زينودوتوس فـي إيراده أو في ترتيبه . والثالثة تعرف باسم النجمة asteriskos (⁘) ، وهى توضح أن البـيت المشـار إلـيه بها قد تكرر عن طريق الخطأ في موضع آخر . والرابعة تجمع بين الـنجمـة والخـط الأفقـي القصير asteriskos kai obelos (⁘ —) ، وكانت تنبه القـارئ إلـى وجود أبيات منحولة دست في النص ونقلت إليه من موضع اخر. أما الخامسة فتسـمى بحرف السيجما المقلوب (antisigma ⊃) ، وهي تشير إلى حدوث خلط في ترتيب الأبيات الشعرية داخل الفقرة المعنية .

وكـان مـن عـادة علماء الإسكندرية ــ بناء على منهجهم العلمي ــ إثارة الشك في النصوص المـنقولة ، وهـو الأمر الذى حدا بهم إلى استبعاد athetein (or athetesis) أبيات اعتبروها منحولة بعـد فحصها ودراستها . ولكن المعايير التى كانت تدفعهم إلى استبعاد مثل هذه الأبيات المنحولة ليست مقـنعة كـل الإقـناع للباحثين المحدثين ، رغم وجاهة شطر لا بأس به منها ؛ وأحد هذه المعايير أو الأسـس التـي اسـتندوا إلـيها هو افتقار لغة الأبيات المستبعدة إلى الجزالة ، أو بعدها عن التناسب aprepeia مـع سياق النص الأدبى ككل . واستناداً إلى هذا المعيار ــ على سبيل المثال ــ تم استبعاد ثلاثـة أبـيات (٢٩ــ ٣١) من النشيد الأول من ملحمة الإلياذة ، وهى الأبيات التى جاءت على لسان أجاممنون والتى يمكن ترجمتها بالعربية على النحو التالى :

"لا ! لـن أطلق سراحها أبداً (يقصد الفتاة خريسيس محظيته التى حصل عليها من غنائم الحرب) ، إلى أن تدهمها الشيخوخة ، وهى في قصرى بمدينة أرجوس بعيداً عن وطنها ، حيث ستنسـج لى ثيابى وتقاسمنى فراشى !!! " . ولقد قام العالم اللغوى السكندرى الذى استبعد هذه الأبـيات ــ وفقـاً لما ورد في إحدى مخطوطات فينيسيا ــ بوضع علامة الخط القصير (ـــــ) أمام الأبيات في الهامش ، ثم دون الحاشية التفسيرية التالية :

"لقـد اسـتبعدت هذه الأبيات ، لأنها تضعف من قوة المعنى كما أنها تقلل من شدة لهجة التهديد ؛ بالإضافة إلى أنه ليس من المستساغ أن ينطق أجاممنون (وهو قائد الحملة العسكرية الإغـريقية) بمـثل هذه التعبيرات ". كذلك استبعد الناقد زينودوتوس عدداً من الأبيات (٤٢٣ــ ٤٢٦) مـن النشـيد الثالث من ملحمة الإلياذة ، تحت زعم مؤداه أنه ليس من اللائق أن تقوم أفروديتى ، وهى ربة ، بتقديم مقعد لكى تجلس عليه هيلينى ، وهى من البشر .

ورغـــم وجود مثل هذا التعارض فى وجهات النظر بين علماء الإسكندرية وبين الباحثين المحدثين ، وبغض النظر عن عدم اقتناعنا أحياناً بوجهات النظر التى استند إليها هؤلاء العلماء القدامـــى ، إلا أنـــنا لا يمكن أن ننكر أن هؤلاء العلماء الثقاة قد أمدونا فى واقع الأمر بتعليقات شـــتى ، تشـــهد على قوة فكرهم ورجاحة عقلهم ونفاذ بصيرتهم ، بل إننا لنصاب بالدهشة من أننا نجد أنفســنا أحـــياناً عاجزين عن مجاراتهم أو منافستهم فيما توصلوا إليه . ومن أهم الأحكام النقدية التى توصـــل إليها أرستارخوس ــ إمام المحققين ــ حكم نقدى لا يزال صائباً حتى عصرنا هذا ، ومؤداه أن أفضـــل دليل على صحة نسبة لفظ أو تعبير إلى أديب بعينه عند وروده فى أحد أعماله ، هو الدليل الذى تـــؤيده بـــراهين وسدكات مستقاة من دراسة باقى أعماله الأخرى ؛ ولقد أطلق أرستارخوس على هذا الحكم اسم : " الاستدلال على هوميروس من خلال (أعمال) هوميروس " :

Homeron ex Homerou Saphinizein .

ولقـــد أثـــبتت علماء الإسكندرية أنهم لا يملكون فقط المقدرة على استبعاد ما هو زائف أو مدسوس من النصوص الأدبية القديمة ، بل أنهم كانوا يتمتعون علاوة على ذلك بالحس الأدبى الأصـــيل والـــذوق الفنـــى الرفيع ، وهو الأمر الذى مكنهم من الحكم على جمال فقرة أو امتياز موضع أو الإشادة بتعبير رائع . ونضرب مثالاً على هذا بالتعليق الذى دونه أحدهم على الأبيات ٤٦٧ ــ ٤٧٤ من النشيد السادس من الإلياذة (Ms. Burney – Brit. Mus.) ، وهى أبيات يصـــور فـــيها الشـــاعر الـــبطل الطـــروادى هيكـــتور Hectôr وهو يودع زوجته أندروماخى Andromachê ، وكـــيف تملـــك الفزع طفله أستياناكس Astyanax حينما شاهد الريش وهو يهتز فوق خوذة والده :

"هـــذه الأبـــيات زاخرة بالمقدرة الوصفية ، لدرجة أن القارئ لا يسمع من خلالها جرس الكلمـــات فحســـب ، بل يشاهد عن طريقها المشهد ماثلاً أمامه برمته . فلقد استمد الشاعر هذا المشـــهد من الحياة الواقعية ، ونقله فى شعره بتفوق وامتياز . ورغم أن الشاعر يصور الواقع بتفوق إلا أن (نقله للواقع) لم يؤثر البتة فى سمو لغة الملحمة أو يقلل من جمالها" .

ولـــم يقتصر نشاط علماء الإسكندرية بحال من الأحوال على دراسة النصوص الهومرية ونشرها وتحقـــيقها، وإن كانـــت هـــذه النصوص تمثل الشطر الأكبر من النصوص الأدبية التى وصلت إلينا من العصـــور القديمة ، فلقد وجهوا اهتمامهم كذلك وبنفس القدر إلى كافة نصوص الأدب اليونانى القديم . ولقـــد وضـــعوا نصـــب أعينهم ــ فيما يتعلق بالتراجيديا ــ أن يضاهوا نصوصها السائدة فى عصرهم بالأصـــول الأتيكـــية المعـــتمدة ، وأن يؤلفـــوا أعمـــالاً إضافية عن ألفاظها ومصطلحاتها . كذلك حمل أرســـتوفانيس البيزنطـــى علـــى عاتقه أن يؤلف دراسات نقدية عديدة عن الفقرات الإنشادية والأجزاء الغنائـــية التـــى كانـــت تلقيها جوقات المسرحيات التراجيدية، وكان أول عالم سكندرى يكتب ملخصات

hypothesês لكــل المســرحيات التراجيدية والكوميدية التى تم تأليفها خلال القرن الخامس ق.م.، قبل أفول نجم الحضارة الهيلنية القديمة وتدهور التأليف الدرامى .

ومــن أهــم إنجازات علماء الإسكندرية أنهم استطاعوا التوصل إلى معرفة الأبيات المنحولة التى دسـها الممـثلون علـى النصوص الدرامية ، وبوجه خاص فى مسرحيات يوريبيديس Euripidês ، وهـى أبـيات كثيـرة العدد ويصعب على الباحثين معرفة العصر الذى تم دسها فيه على وجه اليقين . وعلـى سـبيل المثال توضح لنا تعليقات باحثى الإسكندرية أن الأبيات ٨٥ ــ ٨٨ ، من مسرحية ميديا للشـاعر يوريبيديس ، تحتوى على أخطاء كان السبب فى وجودها الممثلون الذين غيروا النص ، لأنهم لـم يتبيـنوا علامة الوقف التى وضعت عند نهاية البيت رقم (٨٥) ؛ ولقد أوضحت هذه التعليقات كذلك أن البـيت رقـم (٨٧) مدسـوس على نص المسرحية. وفى مسرحية أورستيس لنفس الشاعر تعلن الجـوقة (أبـيات ١٣٦٦ ــ ١٣٦٨) أن رجلاً من فريجيا Phrygios قادم من خلال بوابة القصر ، فى حـين أن هذا الفريجى نفسه يعلن فى الأبيات (١٣٦٩ ــ ١٣٧١) أنه ولج القصر عن طريق القفز من السـقف . ولقد أوضحت لنا التعليقات القيمة التى دونها علماء الإسكندرية أن النص المكتوب الذى ألفه الشـاعر يوريبـيديس كـان يتطلب من المخرج أن يظهر الفريجى وهو يقفز من سقف القصر ، ولكن تبـين للقـائم علـى الإخراج المسرحى خطورة مثل هذا التصرف على حياة الممثل ، ففضل أن يكون دخـوله إلى القصر عن طريق الباب ؛ ولذلك تم تعديل الأبيات (١٣٦٦ــ١٣٦٨) كى تتلاءم مع طريقة الإخراج المسرحى.

ولديـنا دراسـات فنـية ألفهـا العلماء الثقاة عن ألفاظ الكوميديا القديمة ، وتناولوا فيها بالشـرح والتفسـير ما غمض منها وما استعصى على الفهم ، وأفردوا فيها مساحة للتعليقات الموجـزة scholia minora علـى مسـرحيات شـعرائها ابتداء من ماجنيس Magnês حتى أرسـتوفانيس . ولقد تم نشر هذه التعليقات القيمة ، التى يرجع تاريخها إلى حوالى عام ٢٠٠ ق.م. ،ضـمن مجمـوعة بـردية حديـثة نسـبياً هـى مجمـوعة السـوربون عام ١٩٦٦ (P.Sorbonne,I(1966),no.7) . أمـا فـيما يـتعلق بأناشيد النصر التى ألفها الشاعر الغنائى المـبدع بـنداروس Pindaros ، فيـزودنا العـالم الفذ أرستوفانيس البيزنطى بتعليقات فائقة الـروعة، ربمـا كان أكثرها اتصافاً بالحصافة وبعد النظر ، التعليق الذى استبعد فيه هذا العالم جملة وردت فى أحد أناشيد النصر الأوليمبية (Olymp.ii,48) ، لأنه اكتشف أن البحر الشعرى فـيها مخـتل الـوزن . وهـناك برديات عديدة تشهد على انتشار مثل هذه التعليقات الضافية ورواجهـا خـلال العصـر الرومانـى ، فلقـد عثرنا على برديـــة من مجموعة أمهرست (P.Amh.,ii(1901),no.18) ، وهـى تـزودنا بتعلـيقات رائعة على استخدام الألفاظ وتسلسل معانـيها عند شعراء الكوميديا ، ويتم التركيز فيها على قطبين لامعين من هؤلاء الشعراء هما

أرســتوفانيس ومــناندروس ، ويــتم الاستشهاد على صحة وجهات النظر الواردة بها بأعمال للشاعر السكندرى ذائع الصيت كاليماخوس.

ولا ينبغى أن يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر الجهود التى بذلت فى سبيل تأسيس علم النحو على منهج علمى صارم ودقيق ، فلقد تسلم أرستارخوس ، عالم اللغة الأشهر ، الراية من أيدى الأســاتذة الــرواقيين الذين تسلموها بدورهم من أرسطو ، فأسهم بجهد وفير فى إرساء قواعد هــذا العلــم وتعريفاته . ثم قام بتوجيه تلميذه الوفى ديونيسيوس الثراقى Dionysios Thrax (١٧٠ ــ ٩٠ ق.م.) إلــى إكمال جهوده وأبحاثه ، فتمكن الأخير من تأليف أول أجرومية لنحو اللغة اليونانية بعنوان فن النحو Tachnê Grammatikê، صدرها بتعريف المعيار الذى يتمكن الــناقد عن طريقه من الحكم على جودة الشعر وتميزه ، ثم انتقل بعد هذا لتحديد أجــزاء الكلام الثمانــية المعــروفة علــى عهده وتعريفها nerê tou logou ، وأورد أمثلة توضيحية عديدة وشــارحة على كل من إعراب الأسماء وتصريف الأفعال وخصائص سائر أجزاء الكلام . ولقد ظــل كتاب ديونيسيوس الثراقى هذا ــ رغم صغر حجمه وتركيزه البالغ ــ هو العمدة والأساس فــى علــم الــنحو حتــى العصور الحديثة ، بعد أن كان موضع الاهتمام ومناط الإعجاب طوال العصور القديمة ، حيث تمت ترجمته إلى كل من اللغتين السريانية والأرمنية .

ويعتبــر ديديمــوس Didymos أشد علماء مدرسة الإسكندرية جلداً وأكثرهم غزارة فى الإنتاج ، إذ نسبت إليه المصادر المتأخرة أنه قد اضطلع بتأليف ما يربو على أربعة آلاف كتاب، كمــا تردد اسمه كثيراً فى التعليقات والشروح التى دونت خلال العصور الوسطى ، وتم إغداق الثناء عليه بوصفه ناقداً متميزاً وناشراً ومحققاً لعدد كبير من النصوص الأدبية القديمة . ومن مؤلفات ديديموس التى ذاع صيتها على مر العصور كتاب يشى بسعة العلم والتفقه بعنوان ألفاظ التــراجيديا Tragikai Lexeis ، وهــو كتاب استفاد منه جامعو المعاجم ودوائر المعارف فى العصــور التالية ــ وعلى رأسهم هيسيخيوس Hesychios ــ ويحتوى على كل ما هو نادر أو صــعب أو غريب من الألفاظ . ومن أعمال ديديموس المهمة أيضاً تعليقاته الضافية على كتاب النثر الذين ألفوا أعمالاً فى مجال التاريخ أو الخطابة ، مثل المؤرخ ثوكيديديس Thoukydidês والخطــيب ديموســثينيس Dêmosthenês (أنظــر P.Berol.,no.9780) . ولقــد نظر النقاد المحدثــون إلــى ديديموس بوصفه باحثاً يتميز بالجلد والمثابرة وغزارة الإنتاج أكثر من كونه عالمــاً صــاحب عبقرية فذة أو ناقداً عالى الكعب طويل الباع . ولعل هذا السر الذى دفع سودا Souda، صــاحب المعجــم الشــهير بهــذا الاسم ، إلى أن يطلق على ديديموس لقب صاحب الأحشاء الحديدية Chalkenteros ، وهى صفة تدل على الجلد والصبر والإنتاج الكمى الوفير .

ولقـد تمخضت هذه البحوث والدراسات العلمية ، التى تتميز بالإتقان حيناً وبالغزارة حيناً آخر ، عن تدوين عدد هائل من البرديات الأدبية خلال القرون الأربعة التالية للميلاد وما بعدها، وتم حفظها للأجيال الحديثة لتنهض شاهداً على الجهد الضخم الذى بذله العلماء والباحثون منذ نشأة مكتبة الإسكندرية القديمة إبان القرن الثالث ق.م. ويكفى أن نذكر أن مجموع ما نشر من النصوص الأدبية المدونة على الأوراق البردية ــ وفقاً للإحصاء الذى قام به الأستاذ روجر باك R.Pack عـام ١٩٦٥ـ يربو على ٣٥٠٠ نص ، وربما أصبح الآن هذا العدد مضاعفاً لو قام أحـد بإحصـاء دقيق آخر فى هذه الآونة . ولقد وصل إلينا من إنتاج هوميروس وحده ما يزيد علـى سبعمائة نص ، وهذا الرقم يوضح بجلاء أن هوميروس قد احتل مكان الصدارة بين كافة الشـعراء والأدبـاء ، وأنـه ظـل على مر العصور شامخاً متربعاً على القمة ، رغم اختلاف المقاييس والأذواق والمعارف . وتكاد النصوص الأدبية التى وصلتنا تغطى معظم مؤلفات الكتاب الإغـريق القدامـى ، كمـا تضـم عدداً لا بأس به من كتاب العصر الهيلّنستى وشعراء العصر السـكندرى والأدبـاء اللاتـين .كما أن هذه النصوص تحتوى على مؤلفات فى مجال الفلسفة والخطابـة والـتاريخ والجغـرافيا وكـتابة السيرة والتراجيديا والكوميديا ، وأخرى فى مجال المسـرحيات الساتيرية والميميات والشعر الغنائى والإبجرامة والملاحم والشعر الرعوى ،وفى مجـال الـرواية والأشـعار الحكمية وأدب الخرافات . وهناك نصوص منها تتعلق بعلوم النحو والفلـك والطـب والرياضـيات والكيمـياء والنبات والحيوان والموسيقى ، وأخرى عن الأدب اللاتينـى والقانـون الرومانـى ونصوص من الإنجيل والتوراة وأعمال الرسل ، ونصوص فى الـزراعة والعـرافة والكهانة والرؤى والأحلام ، وفن كتابة الرسائل والتشريع والنقد الأدبى ، ونصـوص فـى مجال تعليم المصارعة وفن الطهى والصيد والأساطير والاختزال ، هذا بخلاف النصوص المدرسية المتعلقة بكافة مراحل الدراسة ونصوص التعليم المهنى ، وهذه تبلغ وحدها أكثر من خمسمائة نص .

ويـرجع الفضـل الأكبر فى وجود هذه الآلاف المؤلفة من النصوص الأدبية والعلمية إلى المؤسسات العلمية الراعية والحاضنة ، مثل الموسيون السكندرى ومكتبة الإسكندرية الشهيرة، ولكـن هناك دوراً مهماً قامت به كذلك دور النسخ التى كانت قائمة فى المدن الكبرى وعواصم الأقالـيم ، التى تزايدت أهميتها خلال العصر الرومانى . وليس من قبل الشطط أن نعتقد بوجود مكتـبات خاصــة فــى المدن اليونانية بأرض مصر ، وأن هذه المكتبات كانت تكمل دور مكتبة الإسـكندرية الشـهيرة بما تحتويه جنباتها من كتب قيمة ، الأمر الذى ساعد على رواج الثقافة الهيلّنية وانتشارها ، وساهم فى حفظ قسط كبير من تراث الإغريق والرومان للعصور التالية .

إن فضل مصر يتمثل بلا جدال فى الإسهام والمشاركة فى جعل هذه الثقافة العريقة تستمر وتنتشـــر بصورة قل أن يوجد لها مثيل فى التاريخ ، وهو فضل يتمثل كذلك فى حفظ كنوز هذه الثقافة للعصور الحديثة وحمايتها من الضياع ، فضلاً عن إسهام عدد من مفكرى مصر ـــ مثل المؤرخ مانيثون وغيره ـــ فى مد تراث الإنسانية الخالد بكثير من الأفكار الخلاقة فى عدد من الميادين بوجه عام ، وفى الديانة المسيحية بوجه خاص . ذلك أن طابع الحضارة المصرية كان دائمـــاً ـــ وسيـــظل أبداً ـــ قائماً على الحفظ والبناء لا على الهدم والتدمير . ولم تكن الحضارة المصـــرية علـــى مر العصور تفرق فى هذا المجال بين ثقافتها الخاصة وبين ثقافة غيرها من الشـــعوب ، بل كانت سياستها متعادلة إزاء كافة الثقافات سواء بسواء . وهذا فى الحقيقة سر مـــن أسرار عظمة الحضارة المصرية التى أثبتت على مر العصور أنها ، وإن أعاقتها النكبات عـــن أن تضـــرب بسهم وافر فى الخلق والإبداع ، فلا أقل من أن تضطلع بحفظ تراث الإنسانية من الضياع .

٧- دور علماء مدرسة الإسكندرية في كشف أفريقيا في العصرين الهلّينستي والروماني

د. آمال مصطفى كمال

مدرس التاريخ القديم بالمعهد

تعـد فتوحات الإسكندر الأكبر في مصر والشرق في القرن الرابع ق.م. فتحاً جديداً في العلـوم الإنسـانية وعلـم الجغـرافيا علي وجه الخصوص ، فإلى جانب نتائج هذه الفتوحات المباشرة سياسياً وعسكرياً ، كانت هناك نتائج أخرى شديدة التأثير على مستقبل الثقافة والفكر الإنسـاني مـثل حرية الانتقال والتجارة بين أقطار العالم وإخضاع أقاليم نائية ، كانت من قبل مجهـولة ، للدراسـة والاستكشـاف مما أدى إلى اتساع آفاق المعرفة الإنسانية بدرجة يمكن مقارنتها بما حدث نتيجة للكشوف الجغرافية في القرن الخامس عشر .[١]

فقـد كـان من مميزات شخصية الإسكندر عقليته المتطلعة للمعرفة وأكتناف المجهول وخيـر شـاهد على هذه الحقيقة أن كبار علماء العصر الهلّينستي نظروا إلى حملاته على أنها قدمت إضافة مادية هائلة للمعرفة في مجال الجغرافيا على حد قول إراتوسثينيس .[٢]

وقد كان عهد الإسكندر بداية لهذا العصر الجديد الذي نمت فيه المعرفة عامة ونشطت فـيه حركة الكشوف الجغرافية بوجه خاص ، فقد بقيت التقارير الاستكشافية التي كان الإسكندر قـد أمـر بها من بعده وأثارت حركة لم يسبق لها مثيل من الدراسة العلمية للأرض وطبيعتها وسـكانها أثارت نهضة في المعرفة الإنسانية وبالنسبة لأفريقيا فقد تطورت المعرفة الجغرافية بها نتيجة لذلك .[٣]

وقد ورث البطالمة عن الإسكندر هذا الحب للمعرفة، فبعد وفاته عام ٣٢٣ق.م قسمت ولايـات الإمبـراطورية بين قادة الجيش وآلت مصر إلى أحد هؤلاء القادة وهو بطلميوس بن لاجوس، الذي أسس أسرة حاكمة في مصر وأطلق عليه لقب بطلميوس الأول "سوتير" **Soter**، وحكـم في الفترة من (٣٠٥ – ٢٨٢ق.م) . وكان هذا الملك حريصاً على تشجيع الإغريق على الاسـتقرار بمصـر وتوافدوا عليها في أعداد كبيرة نتيجة لهذه السياسة . وقد حرص البطالمة علـى توفير المناخ الذي يشجع الإغريق على الاستقرار بمصر فاستكمل بطلميوس الأول ومن بعده خليفته بطلميوس الثاني (فيلادلفوس) بناء مدينة الإسكندرية ، وأقام بطلميوس الأول مدينة إغريقية جديدة في الصعيد حملت اسمه وهي مدينة بطوليميس (موقعها عند مركز المنشاة حالياً بمحافظـة سوهاج) وفي نفس الوقت ظلت مدينة "ناوكراتيس" **Naucratis** الإغريقية القديمة تتمتع بمكانتها المتميزة .[٤]

وقد اهتم ملوك البطالمة عامة بتعليم الإغريق في مصر ، والذي كان يتشكل من ثلاثة مــراحل :المــرحلة الأولى ينخرط فيها الأطفال في المدارس ما بين سن السابعة حتى الرابعة عشــر ، ويتلقــى التلمــيذ خلالهــا المــبادئ الأولى للعلوم ، أما المرحلة الثانية وهي مرحلة الجمــنازيوم ، فكانــت توجد معاهدها في المدن والقرى الكبرى ، ويستمر التلميذ في الدراسة بهذه المرحلة من سن الخامسة عشر حتى الثامنة عشرة، ويستطيع التلميذ الموسر أن يواصل دراســته العليا بعد ذلك في الإسكندرية أو في إحدى المدن الكبرى على يد كبار الأساتذة ، وإلى جانــب هــذا كــان أبــناء الملوك وعليه القوم يتلقون تعليمهم في القصر الملكي على يد خيرة العلمــاء، ونذكــر فــي هذا الصدد أن الملك بطلميوس الثاني كان تلميذاً للفيلسوف "استراتون" Straton ، والشــاعر "فيليــتاس" Philitas ، مما جعل منه ملكاً محباً للعلم والثقافة ، فكان شــغوفاً بالجغرافيا والتاريخ الطبيعي . كما كان بطلميوس الثالث تلميذاً للشاعر "أبو للونيوس" أمين مكتبة الإسكندرية ، كما كانت الماكة الشهيرة كليوباترا السابعة تتمتع بقسط وافر من العلم والمعرفة إلى جانب إتقانها للعديد من اللغات .[٥]

فــي هذا الجو العام ولدت فكرة المكتبة والموسيون والتي كانت إغريقية قلباً وقالباً ، وقــد تأسست عام ٢٩٥ق.م . على يد "ديميتريوس الفاليري" مستشار الملك بطلميوس الأول ، وقد لعب "الموسيون" Mouseion أو دار العلم ، التي أسسها البطالمة في الإسكندرية على غرار مــدارس الــيونان القديمــة مثل أكاديمية أفلاطون ومدرسة أرسطو[٦] ، دوراً هاماً في تشجيع العلمــاء وتطوير العلوم[٧] . وهذه الدار كانت أساساً معبداً لربات الفنون والعلوم (الموساي) ، ورعاها البطالمة وأنفقوا عليها بسخاء وحرصوا على استقدام أفضل العلماء في ذلك الوقت في فــروع العلوم والآداب . ووفرت هذه الدار لهم كل الظروف والإمكانيات التي سهلت لهم مهمة القيام بأبحاثهم العلمية ، سواء بخصوص إقامتهم بالدار وبمدينة الإسكندرية عامة أو بخصوص إمــدادهم بالكــتب والأجهــزة العلمــية اللازمة لذلك ، وكان هؤلاء يقيمون على نفقة الحكومة البطلمية ولا تجبى منهم ضرائب[٨] .

وفــي ظل هذه الرعاية البطلمية مع ما اشتهر به ملوك البطالمة من سخاء في الإنفاق نما الموسيون نمواً سريعاً وحاز شهرة عالمية خلال سنوات قليلة من تأسيسه ويرجع ذلك إلى حرص البطالمة على استقدام أرقى العقول في ذلك الوقت ، وقد حظى علماء هذه الدار باهتمام الملوك البطالمة فتفرغوا للانكباب على أبحاثهم، ذلك أن الدولة كانت تجرى عليهم الرواتب مما يكفــيهم مــؤونة الــبحث عــن لقمة العيش، وكانت هذه الدار مؤسسة للبحث العلمي ولم تكن مؤسســة تعليمــية ، إلا أن طــلاب العلم كانوا يتوافدون عليها من كافة الأرجاء للاستفادة من علمائهــا ، فكانت مهمتها الأساسية هي البحث العلمي في مجال العلوم والفنون والآداب سواء بسواء ، كما كان علماؤها يجمعون في خبراتهم بين هذه المجالات[٩] .

هذه المؤسسة العلمية كانت ملحقة بمكتبة الإسكندرية الشهيرة لكي ينهل منها العلماء والدارسون ، وكانت تقع هي والموسيون المتاخم لها في حي القصور الملكية المطلة على الميناء[10] . وكانت أعظم مكتبة في التاريخ القديم على الإطلاق، وكانت معلماً من معالم الحضارة ، كما كانت الأساس الذي ارتكز عليه الموسيون ، وقد حرص البطالمة على تزويد هذه المكتبة بكل ما جادت به قرائح العلماء في بقاع الأرض حتى اكتظت بالكتب ولم تعد قادرة على استيعاب المزيد ، وذلك بعد مرور قرن ونصف من تأسيسها ، لذا فقد تم إقامة مكتبة أخرى في معبد السيرابيوم بالإسكندرية عُرفت باسم المكتبة الصغرى ، وذلك في عهد بطلميوس الثالث "يورجيتيس" Euergites (٢٤٦ - ٢٢٢ق.م) ، وكان موقع المعبد في الحي المصري (عامود السواري) . وقد دمرت المكتبة الكبرى أو الملكية أثناء حرب الإسكندرية عام ٤٨ق.م بين يوليوس قيصر الى جانب الملكة البطلمية كليوباترا السابعة ضد أخيها بطلميوس الثالث عشر (٥١ - ٤٧ق.م)[11] .

ولا جدال أن الثروة الضخمة من الكتب التي توفرت تحت أيدي هؤلاء العلماء ، وكانت أداة لازمة للعمل الجاد ، جمعت لأول مرة خبرات اليونان الكلاسيكية مع الشرق الأدنى القديم ، وأهم من ذلك الموقف النقدي الذي اتخذه علماء الإسكندرية الأوائل من هذا التراث من الكتب فلم يقبلوا مصداقية أي نص كتابي مهما كان قدره ولم يصدروا أحكامهم النهائية إلا بناء على تجربة عملية أو دليل رياضي أو رأي مستمد من نقد الشواهد ، وبعد أن كانت النظرة في الماضي إلى الحضارة الهلينستية باعتبارها حضارة مكتبية لكن هذه النظرة تغيرت وأظهرت الدراسات الحديثة مقدار الأصالة العلمية التي تميز بها كثير من أعمال الرواد في القرنين الثالث والثاني ق.م . ولعله ليس من المبالغة في شئ أن نقول أنه لأول مرة أمكن إرساء قواعد منهج البحث العلمي على أسس راقية في علوم متعددة أدى إلى بلوغ نتائج باهرة في الرياضيات والطبيعة والطب والجغرافيا والفلك[12] .

وعلى الرغم من أن الإغريق في العصر الكلاسيكي قد حققوا إنجازات عظيمة في عدد من العلوم ، لكن لاشك أن مغامرة الإسكندر وفتوحاته بأبعادها العالمية تركت العالم وكله واقف على عتبة تجربة عقلية جديدة كان للإسكندرية فيها دور الريادة والقيادة . ولعل من أبرز ما تميزت وتفردت به تجربة الإسكندرية العلمية هي تطور مستوى رفيع من البحث العلمي يقوم على أساس دراسة شاملة تجمع بين التجربة العملية أو التحليل وبين فهم تراث الماضي ونقده ، وبتأسيس المكتبة والموسيون توفرت في الإسكندرية الشروط الأساسية لقيام هذه الحركة العلمية[13] .

وقد شهدت الإسكندرية الرومانية تغيراً في شخصية الموسيون ، فرغم استمرار حماية الأباطرة له في القرنين الأولين الميلاد ، فإن الأمر لختلف كثيراً عن الرعاية والاهتمام زمن البطالمة ، لكن ظلت بعض محاولات البحث العلمي مستمرة على أيدي علماء من أمثال هيرون مكتشف عدد من

الآلات الميكانيكية ، وكلوديوس بطلميوس عالم الفلك والجغرافيا وجالينوس الطبيب، وقد واصل جميعهم العمل والبحث في علوم سبق أن اشتهرت بها مدرسة الإسكندرية البطلمية(١٤) .

وكانت المكتبة الصغرى الملحقة بمعبد السرابيوم هي المكتبة الرئيسية في الإسكندرية في العصر الروماني بعد تدمير المكتبة الكبرى ، وكان بهو الموسيون يضم مجموعة لا بأس بها من الكتب ، واشتمل معبد القيصرون على مكتبة معروفة، ومكتبة برغامون ذات المائتي ألف كتاب التي أهداها ماركوس أنطونيوس إلى كليوباترا ربما على سبيل التعويض عن فقد المكتبة الملكية(١٥) .

وقد كانت أحد مجالات البحث التي حظيت باهتمام علماء مدرسة الإسكندرية هي الكشوف الجغرافية التي قامت على أساس قراءة كتب التراث في الجغرافيا والفلك وكل العلوم الأخرى المتصلة وما شملته من نظريات وخاصة ما تفرد به الإغريق بداية من هوميروس (القرن التاسع ق.م) ، ثم تقارير الإسكندر عن رحلاته فيما بعد ، والتي كان لها تأثير كبير على الفكر الجغرافي وحركة الكشوف ، وكان لابد من تحقيق هذه الدراسات ونقدها وتنقيحها خاصة وأن معظمها لم يعتمد على المشاهدة والتجربة العملية ، وهو ما قام به علماء الإسكندرية سواء في العصر البطلمي أو الروماني ، عندما تطورت الدوافع والإمكانيات سواء إمكانيات البحث أو السفر والكشف ، ولاشك أن هذا التراث قامت على أساسه هذه الحركة مثلما أحدثته هي من تأثير على الكشوف الجغرافية في العصور التالية وحتى العصر الحديث.

وهذا الموضوع يتناول أحد الإسهامات العلمية التي قدمتها مدرسة الإسكندرية القديمة لأفريقيا في مجال كشف القارة سواء من الناحية النظرية أو من الناحية العملية ، فقد كانت هناك بعض المعتقدات عن الخريطة الجغرافية لأفريقيا تطورت إلى أفكار ونظريات ثم مشروعات كشفية وضع بعضها موضع التنفيذ والبعض الآخر ظل مجرد نظرية أو فكرة لكنها أسهمت فيما بعد في كشوف فعلية .

والحقيقة أن الفترة التي ازدهرت فيها مدرسة الإسكندرية شهدت نشاطاً ملموساً في مجال الكشوف الجغرافية خاصة فيما يتعلق بأفريقيا ، صحيح أنه كانت هناك جهود سابقة تمت على أيدي الفينيقيين والمصريين والإغريق في العصر الكلاسيكي ، لكنها كانت قليلة ومحدودة في امتداداتها وكان أغلبها وخاصة بالنسبة للإغريق ، وهم الشعب الذي أثر عنه الاهتمام بالعلم والبحث النظري قديماً(١٦) ، مجرد نظريات لم يدخل معظمها حيز التنفيذ لأن الإغريق في تلك الفترة كانوا مشغولين أكثر بتوطيد نفوذهم السياسي والتجاري في البحر المتوسط ، أما المصريون أصحاب الفضل الأول في مجال كشف أفريقيا ، فإن كشوفهم كانت محدودة المدى والنتائج .

والموضوع يتناول عدداً من المحاور التي تلقي الضوء على أهم جهود علماء مدرسة الإسكندرية في مجال كشف أفريقيا معتمدين على الدراسات والأبحاث العلمية في مجال

الرياضيات والفلك والجغرافيا التي أنجزها علماء الموسيون ، والنظريات والأفكار التي تمخضت عن هذه الأبحاث . وأول هذه المحاور هي : الملاحة أو الدوران حول أفريقيا .

فعندما كتب هوميروس ملحمته الشهيرة "الإلياذة" في القرن التاسع ق.م عكس فيها تصوراً بأن العالم المعمور طبقاً لما ورد بهذه الأشعار عبارة عن مساحة مستديرة من اليابسة يجري حولها بحر شاسع أطلق عليه اسم "أوقيانوس"[١٧] ، لكن لم يتم الربط بين هذه الفكرة وبين اتصال المحيطين الأطلنطي في الغرب والهندي في الشرق في ذلك الوقت ، لكنها أثرت فيما بعد في اعتقاد الإغريق بأن أفريقيا لها بحر يحيط بها ، فتصور "هسيودوس" ، (القرن السابع ق.م) ، أفريقيا على شكل جزيرة كبيرة تحيط بها البحار من كل جانب وأنه يمكن لزورق أن يرسو في أي موضع منها[١٨] ، وتبنى نفس الاعتقاد هيكا تايوس من ميليتوس (الملطى) – القرن السادس ق.م – ومن بعده "هيرودوتوس" (القرن الخامس ق.م) . وإن كان تصورهما لشكل أفريقيا وامتدادها قد اقتصر على النصف الشمالي من القارة . فقد اعتقدا أن الساحل الشرقي لأفريقيا يتجه ناحية الجنوب الغربي حتى مضيق جبل طارق وأنه ينحني في هذا الإتجاه بعد رأس العطور (جاردافوي) Guardafui[١٩] ، وهي أقصى نقطة وصل إليها المصريون على الساحل الشرقي لأفريقيا في ذلك الوقت[٢٠] . أما على الساحل الغربي فكان هناك اعتقاد بأن أقصى نقطة يمكن الوصول إليها هي رأس "سولويس" Soloeis[٢١].

وفي مجال الملاحة حول أفريقيا كان لمثل هذه النظريات أثر في تلك الفكرة، خاصة النظرية المتعلقة بالأوقيانوس الذي يحيط بالأرض من جميع الجهات وأن أفريقيا تمثل أقصى الحدود الجنوبية للأرض التي يلتف حولها هذا المحيط ، وقد تبنى المصريون تصوراً مماثلاً للتصور الإغريقي مؤداه أن الأرض قطعة من اليابسة تحيط بها المياه من جميع الجهات وأن هذه المياه التي تعرف باسم "أوقيانوس" Oceanus تتصل بمياه النيل من ناحية الجنوب[٢٢] .

وهو ما شجع الملك المصري نكاو الثاني (٦١٠ – ٥٩٥ق.م) ، ثاني ملوك الأسرة السادسة والعشرين المصرية ، لكي يعتقد أن الدوران حول أفريقيا ممكن وأن هذه الرحلة قد تكون سهلة وقصيرة[٢٣] . وهي الرحلة التي تمت عام ٦٠٠ق.م ، وقام بها بحارة فينيقيون داروا حول أفريقيا من الشرق للغرب على أن تبدأ الرحلة من مصر ، من البحر الأحمر ، وتعود لمصر من الغرب عن طريق البحر المتوسط ، واستغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات تقريباً وتعتبر أول كشف لسواحل قارة أفريقيا في التاريخ[٢٤] .

مصدرنا الوحيد عن هذه الرحلة رواية "هيرودوتوس" التي سجلها بعد حوالي قرن ونصف من تاريخ القيام بها (حوالي ٤٤٠ق.م)[٢٥] . ونص هيرودتوس جاء في سطور قليلة يفتقر إلى التفصيل والدقة في سرد الأحداث مما عرضه لانتقادات واعتراضات كثيرة ، وأحدث نوعاً من الجدل بين المفكرين والباحثين قديماً وحديثاً حول هذا الموضوع . بل لقد ذهب البعض

إلـــى الشك في رواية هيرودوتس بأكملها وساقوا الأسباب والمبررات لذلك على الرغم من عدم وجود دليل يثبت هذا الشك .

وجديـــر بالذكـــر أن هذه الرحلة الهامة لم يكن لها صدى أو رد فعل في وقتها وظلت أخـــبارها مجهولة حتى سجلها هيرودوتوس ، عندئذ بدأ العلماء والمفكرون الإغريق يتناولون هـــذا الموضـــوع في كتاباتهم وتولدت بذلك معرفة جديدة بالقارة المجهولة وكانت مجالاً خصباً للباحثين منهم . فبينما صدق البعض بنجاح الفينيقيين في الدوران حول أفريقيا وأن ذلك لم يكن مســـتحيلاً فـــإن هـــناك مـــن حاول التقليل من أهمية هذا العمل والنتائج التي أسفر عنها، أما هيرودوتس نفسه فقد صدق تلك الرواية التي سجلها بل واتخذ منها دليلاً على اتصال المحيطين الهندي والأطلنطي[٢٦]، وهو الاعتقاد الذي تبناه معظم المفكرين في عصر متأخر بغض النظر عن تصديقهم لرواية هيرودوتس أو رفضهم لها[٢٧] ، لكن أغلب الإغريق في ذلك الوقت قرروا أنه مـــن المســـتحيل الدوران حول أفريقيا بحراً ولم يعيروا رواية هيرودوتس اهتماماً وظلوا على معتقداتهم القديمة عن القارة[٢٨] .

وعامة فإن الشكل الذي تصوره الإغريق عن أفريقيا في ذلك الوقت كان يضعها شمال خط الاستواء، كما تصورها البعض على شكل مثلث قائم الزاوية[٢٩].

اســـتمر هذا الأمر حتى مع تطور فكر الإغريق الجغرافي عامة مع بداية القرن الرابع ق.م حـــيث كـــان الإغريق يأتون من أثينا ومدن اليونان الغربية إلى سوق "كيرني" على ساحل غـــرب أفريقيا من أجل التجارة لمبادلة الفخار الأثيني بذهب وعاج غرب أفريقيا ، ولما كانوا لا يســـتطيعون القـــيام بهـــذه الرحلة حتى كيرني إلا إذا سمح لهم القرطاجيون بذلك ولا ممارسة الـــتجارة إلا عـــن طريق وساطة هؤلاء ، فقد فكر البعض في إمكانية الوصول إلى كيرني عن طريق الدوران حول أفريقيا من الشرق لتفادي سيطرة ووساطة القرطاجيين التجارية ، غير أن المعـــتقدات الخاطئة التي كانت لا تزال تسيطر على عقول الإغريق عن أفريقيا حالت دون تنفيذ هذه الفكرة[٣٠] .

لكـــن مـــع نهايـــة القرن الرابع ق.م تطور فكر الإغريق الجغرافي عامة وفيما يتعلق بأفـــريقيا خاصة ، فتأكد لهم أنه يمكن الدوران حولها ، وقد ترجم الإسكندر المقدوني (٣٥٦ – ٣٢٣ق.م) هذا الاعتقاد بمحاولته للقيام برحلة حول جنوب أفريقيا تبدأ من الشرق ، وقد راودته هـــذه الفكرة بعد نجاح رحلته للهند عام ٣٢٧ق.م ، والتي كانت ضمن حملاته الحربية . وكان مـــن نتائج هذه الرحلة أنه نفى وجود علاقة بين الهند وشرق أفريقيا رداً على الاعتقاد الخاطئ الســـائد وقتئذ بأن الساحل الشرقي لأفريقيا يتجه ناحية الشرق بعد رأس العطور ليتصل بشمال الهـــند[٣١] ، فأكد وجود انفصال تام بينهما وشجعه ذلك على التخطيط لرحلة بحرية تطوف أولاً حول شبه الجزيرة العربية ثم حول أفريقيا من الشرق للغرب ، من البحر الأحمر حتى مصر[٣٢].

وقـد أكـد "بلوتارخـوس" * على اعتزام الإسكندر للقيام بهذه الرحلة بنفسه وأنه من أجل هذا الغـرض تـم بـناء السفن من كل الأنواع وتعيين البحارة والمرشدين للسفن من كل مكان لكن نتيجة لعدد من الصعوبات كانت قد واجهت الإسكندر فشل هذا المشروع[٣٣] .

لـم يتم تناول موضوع الملاحة حول أفريقيا بعد محاولة الإسكندر ، وفي بداية العصر الهلّينستي ، فقررت مدرسة من مدارس الفكر الإغريقي في نهاية القرن الرابع ق.م ، أن الجزء المعمور من الأرض يقع في نصف الكرة الشمالي وتفصله عن الجنوب الحرارة الشديدة[٣٤] .

وقـد اسـتند البعض إلى هذه النظرية لدحض فكرة الملاحة حول أفريقيا واستمر هذا الاعـتقاد حتى القرن الثاني ق.م ، وشجع على استمراره أنه في تلك الفترة ، من القرن الرابع إلـى الثاني ق.م. لم تكن هناك كشوف في أفريقيا ، ولم يصل الإغريق أو غيرهم على الساحل الشـرقي بعد رأس العطور ، وعرفوا كذلك إثيوبيا وبلاد القرفة (ساحل الصومال) ونظروا إليها كأقصـى الحدود الجنوبية للعالم المسكون ، وعلى الجانب الغربي لم يكتشف القرطاجيون أرضاً جديـدة بعـد محطاتهم التجارية المعروفة[٣٥] . ونتيجة لذلك ظل البعض من الإغريق يعتقد أن رحلـة الملاحة حول أفريقيا مستحيلة وأنها لم تحدث كما سجلها هيرودوتس ، ومن هؤلاء كان "هيـبّارخوس" Hipparchus ، عـالم الجغرافيا والفلك (١٩٠ – ١٢٥ق.م) والمؤرخ الإغريقي "بوليبيوس" (٢٠٠ -- ٢١٧ق.م) .

فقد رأى "هيبارخوس" أن أفريقيا لا يلتف حولها المحيط كما تتردد وأنها تستمر أرضاً بـلا نهاية من ناحية الجنوب ، واستند في تأييد رأيه إلى أن هذا المحيط لا تتشابه حركات المد والجـزر فـي كل مكان منه (المقصود المحيط الهندي والأطلنطي) وأنه حتى لو حدث ذلك فلا يعني أن هذه المياه (مياه المحيطين) تحيط بالأرض في دائرة متصلة[٣٦] .

لكـن "بوليبيوس" رأى أنه لا يوجد دليل قاطع يؤيد تلك النظرية ، وكان له تصور آخر بوجود منطقة شديدة الحرارة فى الجنوب لدرجة لاتسمح بسكنى البشر، ورأى أنها تقع بعد بلاد القرفة[٣٧] .

وقـد وافـق هيبارخوس فى رأيه عالم الطبيعة والفيلسوف الإغريقى "بوسيدونيوس" Poseidonius (ولـد عـام ١٣٥ ق.م) فقـد رفض أيضاً تصديق رواية هيرودوتوس عن رحلة الفينيقيـين حـول أفريقيا ، والأمر الغريب أنه اقتنع فى نفس الوقت برواية أخرى عن محاولة للفلكـى السكندرى "يودوكسوس" Eudoxus للدوران حول أفريقيا من الغرب للشرق .فمع مرور

---

* ولـد "بلوتارخـوس" عام ٤٦م وتوفى عام ١٢٠م فى بلاد اليونان ، وكان محباً للسفر ، زار مصر وكتب فى شتى المجـالات ، وأسـس مدرسة لتعليم التاريخ والفلسفة والأخلاق وأشهر كتاباته= =رسالته عن إيزيس وأوزوريس ، وكانـت له معرفة وثيقة وشخصية بالإسكندرية التي زارها بعد أن أكمل تعليمه فى أثينا فيما يبدو ، وكان من أكثر أبناء عصره قراءة وإطلاع ولابد أنه زار الموسيون .

مصطفى العبادى: مكتبة الإسكندرية القديمة، سيرتها ومصيرها ، اليونسكو ، ١٩٩٢ ، ص١٤١ .

الـــوقت كانـــت هناك من الدلائل ما يشير إلى أن هذه الرحلة قد تكون ممكنة ، وعندما سمحت الظروف أو بمعنى آخر دفعت الظروف لتأكيد ذلك ، بذلت محاولات كان أهمها المحاولة التى قام بهـــا ذلـــك المغامـــر الإغريقـــى "يودوكسوس" ، وكان فشل هذه المحاولة سبباً فى أن يصرف الـــرومان فيما بعد النظر حتى عن التفكير فى هذا الموضوع ، وظل الإغريق هم الأكثر انشغالاً به لكن دون أن تكون هناك محاولات ناجحة .

فمـــع نهايـــة القرن الثانى ق.م كانت نظرة الإغريق بخصوص أفريقيا عامة والدوران حولها بصفة خاصة آخذة فى التطور الحد الذى جعل علمائهم ومفكريهم يتأكدون من أنه يمكن الـــدوران حـــول أفـــريقيا بحراً ، وساعد على نمو هذه الفكرة شائعات وأحياناً روايات حقيقية تـــرددت عن سفن "قادس" فى أسبانيا التى تدور حول جنوب أفريقيا من الغرب للشرق من أجل التجارة مع شرق أفريقيا والجزيرة العربية ، فيقول "كورنيليوس نيبوس" Cornelius Nepus(أحد كـــتاب ذلك العصر) أن "كايليوس أنتيباتير" (حوالى ١٢٠ق.م) ذكر أنه تقابل مع رجل أبحر من أســـبانيا إلى إثيوبيا حول جنوب أفريقيا من أجل التجارة[٣٨] . وقد استمرت هذه الشائعات دون أن تكون هناك محاولات مسجلة للدوران حول أفريقيا من الغرب للشرق ، وأخيراً تمت محاولة شجاعة قبل نهاية القرن الثاني ق.م لتؤكد صحة الشائعات ، وهى رحلة يودوكسوس .

كان "يودوكسوس" تاجراً ومغامراً يونانياً من مقاطعة "كيزيكوس" ببلاد اليونان ويعتبر مـــن أعـــلام الجغـــرافيا والفلك فى عصره ، وقد أبدى اهتماماً بالغاً بالأمور الجغرافية وخاصة الكشوف منذ زيارته للإسكندرية أثناء حكم بطلميوس الثامن ـــ يورجيتيس الثانى (١٤٥-١١٧ ق.م) [٣٩] . وقـــد حضـــر يودوكســـوس إلى مصر كمبعوث دينى وأصبح مرافقاً للملك البطلمى ووزرائـــه خاصة فى الرحلات النيلية لأنه كان يميل لزيارة الآماكن الغريبة[٤٠] . ومن مصر قام بـــرحلتين للهـــند مدفـــوعاً بحبه للمغامرة والكشف وبغرض التجارة ، واحدة عام ١٢٠ق.م ، والثانية عام١١٦ق.م، ورغم نجاحة فى هاتين الرحلتين إلا أنه لم يحقق منهما الثراء الذى كان يحلـــم به بصفته تاجراً محباً للمال لأنه فى كل مرة كان الملك البطلمى يحصل منه على ما يأتى به من مواد التجارة الهندية[٤١].

وقـــد أخبرنا استرابون* (٦٤ق.م – ٢١م) عن ظروف محاولة "يودوكسوس" للدوران حـــول أفـــريقيا من الغرب ونقلها عن "بوسيدونيوس" الذى كتب أيضاً عن رحلات يودوكسوس

---

*مـــؤرخ وجغرافـــى إغريقى ، ويعتبر من أعظم الجغرافيين فى العالم القديم ، عاش فيما بين ٦٣ق.م – ٢٤م ، وقد عاش استرابون فى روما لكنه قضى بعض الوقت فى الإسكندرية التى زارها عام ٢٠ق.م وتجول فى أنحاء مصر وأبحـــر فـــى النيل حتى جزيرة فيلة فى معية صديقه والى مصر الرومانى آنذاك . كتب مؤلفاً ضخماً بالإغريقية أســـماه " الجغـــرافيا " يقـــع فى سبعة عشر كتاباً خصص الكتابين الأولين للحديث عن الجغرافيين الذين سبقوه ولم يصـــلنا مـــنهم شئ ، وحديثه عن مصر جاء من حسن الحظ فى الكتاب السابع عشر ، وثلثى الكتاب فى وصف=

للهند ، وعلى الرغم من أن بوسيدونيوس قد رفض فكرة قيام أحد برحلة ملاحية حول أفريقيا فيما مضى ، عدا تلك التى تمت بواسطة سفن قادس. أى التى دارت حول أفريقيا من الغرب للشرق ، واهتم بتسجيل هذه المحاولة، إلا أن إسترابون الذى اختلف معه فى الرأى قد رأى أن تقييم رواية بوسيدنيوس أمراً يستحق الذكر(٤٢) .

وعن هذه المحاولة يقول استرابون :ان يودوكسوس حين دفعت به الرياح إلى ساحل إثيوبيا أثناء عودته من رحلته الثانية للهند فى عهد الملكة البطلمية كليوباترا(٤٣) وجد هناك جزء من مقدمة سفينة خشبية غارقة محفور عليها رسم حصان ، وعندما علم (من الوطنيين) أن تلك القطعة لسفينة غارقة لبعض المسافرين القادمين من الغرب ، أخذها معه وعاد بها إلى مصر ، وعندما وصل بسلام لم تكن كليوباترا تحكم مصر بل ابنها(٤٤) وسلب الملك البطلمى من يودوكسوس مرة أخرى كل ما أتى به لأن الملك اكتشف أن يودوكسوس قد اختفظ لنفسه بكثير من الثروات التى أحضرها . لكن يودوكسوس ذهب بمقدمة السفينة إلى السوق (فى الإسكندرية) وعرضها على ربابنة السفن هناك ، وعلم منهم أنها لسفينة قادمة من "جاديرا" (قادس بأسبانيا) وأخبروه أن تجار قادس يستخدمون سفناً كبيرة بينما يستخدم الفقراء سفناً صغيرة تسمى "الخيول" نسبة للرسم الموجود على مقدمتها وأنهم يستخدمونها فى رحلات الصيد حول ساحل موريتانيا وحتى نهر ليكسوس (دراع بالمغرب) ، ولكن بعض الربابنة (فى الإسكندرية) عرفوا من مقدمة السفينة أنها تنتمى لإحدى السفن التى أبحرت بعيداً جنوب نهر ليكسوس ولم تعد سالمة(٤٥).

كانت تلك هى الظروف التى دفعت بيودوكسوس وشجعته على القيام بمحاولة الملاحة حول أفريقيا ، فمن ناحية تأكد له صدق الشائعات عن سفن قادس التى تدور حول أفريقيا من الغرب للشرق وأن هذه الرحلة على ذلك ممكنة ، ومن ناحية أخرى أنه سيستطيع إذ هو نجح

مصر حدثنا فيها عن مساحة مصر وعن النيل وفروعه وتقسيمات مصر الإدارية والسكان والطرق التجارية بين وادى النيل والبحر الأحمر .

Ball ,J. : Egypt in the classical geographers, Cairo, 1942, p.35-130 .

ويأتى استرابون في مقدمة الكتاب الذين اهتموا بدراسة جغرافية أفريقيا ، وقد خصص فصلاً كاملاً من كتابه السابع عشر لجغرافية أفريقيا فتحدث بالتفصيل عن كل شئ خاص بجغرافية وبيئة أفريقيا القديمة ، فأورد معلومات عن التضاريس والمناخ ومواقع المدن والنبات والمحاصيل والحيوانات ومعلومات أخرى كثيرة ، ولم تكن كتابته جغرافية بحته لكن كان يتخللها شرح للظروف التاريخية التى توضح وتلقى الضوء على الظواهر الجغرافية فى أفريقيا ، وأهم ما كتب استرابون عن كشف أفريقيا كان بخصوص النيل والأقاليم الواقعة جنوب مصر إلى جانب ما ورد عنده عن موضوع الملاحة حول أفريقيا وكشوف البطالمة فى شرق أفريقيا .

فى محاولته أن يصل للهند عبر هذا الطريق ويتفادى بذلك ابتزاز ملوك البطالمة فى مصر له ، ثــم دفعــته رغبته كعالم ومغامر للقيام بهذه الرحلة الكشفية مثله مثل أغلب المعاصرين له من العلمــاء والمغامرين الذين شغلهم موضوع الملاحة حول أفريقيا . وقد أورد استرابون نقلاً عن بوســيدونيوس وصــفاً لمحاولــة يودوكســوس الــدوران حول أفريقيا من الغرب ، من وطنه كيــزيكوس فى بلاد اليونان للشرق حتى يصل للهند ، وذكر كيف أنه كرر المحاولة مرة أخرى بعد فشل المحاولة الأولى لكنه فى المرة الثانية قرر فجأه إنها رحلته[٤٦] .

علــى الرغم من أن استرابون كان مقتنعاً بإمكانية الدوران حول أفريقيا بحراً لكنه لم يكن مقتنعاً بهذه القصة وشك فى كل ما قاله بوسيدونيوس خاصة وأن الأخير اهتم بتسجيل هذه المحاولــة فى الوقت الذى لم يصدق فيه الروايات القديمة عن رحلات الملاحة حول أفريقيا[٤٧] وقــد فــند استرابون أوجه اعتراضه وشكوكه فيما ذكره بوسيدونيوس عن محاولة يودوكسوس[٤٨] ، وقد تعلقت شكوك استرابون بأمرين : الأول هو رفض بوسيدونيوس تصديق قيام الفينيقيين أو غيرهم بالدوران حول أفريقيا ثم تسجيله لتلك المحاولة ، لكن الحقيقة أن بوسيدونيوس لم يّدع نجاح يودوكسوس فى إتمام رحلة الدوران حول أفريقيا ، وربما يكون فشل يودوكسوس فى ذلك هــو الســبب الــذى جعــل بوسيدونيوس يتأكد من عدم إمكانية حدوث هذا قديماً قياساً بتطور المعرفة والإمكانيات مع مرور الزمن .

أمــا الإعتــراض الثانى فهو الخاص بتعيين هوية مقدمة السفينة الغارقة القادمة من قادس ، وقد أكدت بعض الدراسات الحديثة شكوك استرابون حول هذا الموضوع ، وأشارت إلى وجــود خطــأ فى تعيين هويتها وأنه ليس خطأ يودوكسوس وحده وربما يكون نتيجة لخطأ فى تــرجمة ما قاله البحارة المصريون فى الإسكندرية بلغتهم الوطنية وهو ما فهمه يودوكسوس خطأ بأن هذه السفن تأتى من الغرب حول أفريقيا عبر طريق مفترض فى ذلك الوقت أنه قصير[٤٩] ولأن حدوث ذلك من الناحية العملية أمر له معوقاته ومخاطره[٥٠] .

وعلى الرغم من النقد الذي وجهه استرابون لرواية بوسيدونثيوس فإنه لا يعتبر دليلاً علــى عدم صحتها وإن كانت تنقصها بعض التفاصيل التي عرضتها لهذا النقد ، وفيما عدا ذلك فالرواية تبدو منطقية وبسيطة وتكاد تخلو من المبالغة أو الغموض وواضحة في معظم فقراتها. أمــا عــن نــتائج هــذه المحاولــة فلــم تكن معروفة مثل مصير من قاموا بها ، فلم يستطيع يودوكســوس أن يصل في المحاولتين بعد ساحل موريتانيا (المغرب) ، واستطاع في المحاولة الأولــى ملاحظة بعض الجزر أمام هذا الساحل ربما كانت إحدى جزر الكناري القريبة منه[٥١] ، بينما رأى البعض أنه أبحر على الساحل عبر الصحراء الكبرى حتى سينغمبيا (السنغال وغمبيا) وجــزء مــن غينيا[٥٢] . وفي النهاية لم تضف محاولة يودوكسوس شيئاً جديداً لحدود المعرفة بقارة أفريقيا في ذلك الوقت .

لــم تتــرك محاولة يودوكسوس تأثيراً إيجابياً في فكرة الملاحة حول أفريقيا فقد ساد الاعــتقاد بأنها فكرة من المحال أن تتحقق ، ولم يقدم أحد من الإغريق أو الرومان على مجرد التفكير في هذا الموضوع على الرغم من أن فكرة سفن قادس كانت لا تزال تسيطر على عقول المغامــرين(٥٣) ، لكــنها لفتت أنظار الرومان منذ ذلك الحين فصاعداً لأهمية الهند وزادت من اهتمامهم بها ، فأصبحت الهند هي هدفهم المنشود في الشرق خاصة بعد أن صارت مصر ولاية رومانــية (٣٠ق.م.) وتــم اجتياز المانع العربي إلى الشرق الأقصى عن طريقها ، وعلى عهد الإمبــراطورية الــرومانية أصــبح الطريق إليها أسهل وأقصر بسبب الاستخدام الأمثل للرياح الموســمية فــي المحــيط الهــندي ورأى الرومان أنه من العبث محاولة الدوران حول أفريقيا للوصــول للهــند ، لأن الطريق سيكون على هذا أطول وأصعب وباهظ التكلفة ، إلى جانب أن النــتائج غير مضمونة(٥٤) ، أما في الغرب فقد زالت أهمية مستعمرات غرب أفريقيا منذ زوال قــرطاجة التــي قضــى علــيها الــرومان في ١٤٦ق.م. ، ولم يفكر الرومان في تطوير هذه المســتعمرات بعد استيلائهم عليها وجعلوا "سالا" Sala أو "سالّي" Salle هي حد إمبراطوريتهم في غرب أفريقيا .

إلا أن حدود المعرفة وقلة الكشوف الجغرافية فى أفريقيا وخاصة لسواحلها حتى القرن الأول الميلادى زعزع الاعتقاد فى حقيقة الروايات التى قيلت عن الدوران حولها بحراً وخاصة رحلة الفينيقيين ، فكان تصور الرومان للساحل الشرقى ، أنه جنوب رأس العطور (جاردافوى) يــوجد خلــيج كبير يمتد الساحل بعده شرقاً إلى أرض مجهولة تحيط بمياه المحيط الهندى من الجــنوب.(٥٥) أما استرابون فقد وضع أفريقيا كلها شمال خط الاستواء وقرر أن الجزء الجنوبى مــن المثلث الذى تكونه أفريقيا هو شئ غير مؤكد ، وأن هذا الجزء لا يمكن الوصول إليه وأن ذلــك لم يحدث حتى الآن بسبب الحرارة الشديدة فى هذا النطاق،(٥٦) كذلك أعتقد استرابون أن الأرض يحــيطها بحــر كبير هو المحيط وأنه يمكن الدوران حولها من أى جهة ودلل على ذلك بتشــابه حــركات المد والجزر فى كل موضع من هذا المحيط سوى اختلاف طفيف.(٥٧) وقياساً بهذا فإن استرابون كان يعتقد فى إمكانية الدوران حول أفريقيا وأنه كانت هناك محاولات لتنفيذ هذه الرحلة ، لكنه أرجع فشل الذين حاولوا ذلك إلى أن "هناك ظواهر محيرة وحوادث مفاجئة حالــت دون نجــاحهم ولــيس كما زعموا أن السبب كان عزلة البحر ووحشته أو وجود أرض تفصــل المحيط بحرين وهى التى عاقت تقدمهم".(٥٨) وأضاف : "أن كل الذين أبحروا جنوباً عبر ســواحل ليبــيا (أفريقيا) سواء من الخليج العربى (البحر الأحمر) أو من الأعمدة (مضيق جبل طــارق) أطلقــوا علــى آخــر منطقة وصلوا إليها اسم إثيوبيا ووصفوها بشدة الحرارة وعظم الأهــوال".(٥٩) وهــذا ما يدعونا للاعتقاد بأن استرابون كان فقط يجهل أن رحلة الملاحة حول أفريقيا قد تمت بالفعل على أيدى الفينيقيين.

وعلى عكس استرابون فإن "بلينيوس الأكبر"* (٢٣-٧٩م) صدق رواية هيرودوتوس وكـــان مقتنعاً بنجاح الفينيقيين ، كما أنه صدق كل المحاولات التى تمت للملاحة حول أفريقيا. وتجدر الإشارة إلى أن الاعتقاد بالمحيط الذى يلتف حول الأرض من جميع الجهات وأن أفريقيا تمـــثل أقصــــى الحـــدود الجنوبـــية لها كان سائداً لدى الغالبية العظمى من المفكرين فى العصر الرومانـــى ، ولتأيـــيد هذا الرأى جاء بعضهم بروايات محرفة عن رحلات حقيقية لإثبات نجاح رحلـــة الـــدوران حـــول أفريقيا ، وقد ذهب بلينيوس إلى شئ من هذا القبيل ، فصدق ما ذكره كورنيلـــيوس نيـــبوس الـــذى كان معاصراً ليودوكسوس ، عن أن الأخير قد قام بالدوران حول أفـــريقيا من الشرق للغرب ، من الخليج العربى (البحر الأحمر) إلى جاديس (قادس).(٦٠) وقرر بلينـــيوس أيضـــاً أن "هانو" القرطاجى قام برحلة ملاحية (حول أفريقيا) فقال :"أمر هانو القائد القرطاجـــى فـــى فترة ازدهار الدولة القرطاجية بالذهاب فى رحلة كشفية حول أفريقيا.(٦١) وقد خلـــط بلينـــيوس بذلك بين ما اعتقده وبين الحقيقة لأن يودوكسوس فشل فى محاولته للدوران حـــول أفريقيا ، كما أن رحلته كانت من الغرب للشرق كما ذكرنا ، أما هانو فلم تكن لرحلته فى غرب أفريقيا علاقة بالدوران حولها ، والهدف الذى أعلنه القرطاجيون حين شرعوا فى إرسال هانـــو فى رحلة إلى غرب أفريقيا كان واضحاً وهو تأسيس مستعمرات لهم هناك ثم عودته فور إنتهائه من تلك المهمة.

اعـــتقد بلينـــيوس أيضـــاً فى سفن قادس التى كانت تأتى من الغرب للتجارة مع شرق أفريقيا والجزيرة العربية ، فذكر أن "جايوس قيصر" (ثالث ولاة مصر من الرومان) عندما أُرسل مـــن قـــبل الإمبراطور أغسطس (٢٧ ق.م – ١٤م) عام ١ق.م. فى بعثة للشرق للدوران حول الجزيرة العربية بهدف الكشف وإخضاع عرب الجزيرة وأنزل سفن أسطوله بالبحر الأحمر "عثر أفـــراد مـــن هذا الإسطول على أجزاء من حطام سفينة غارقة أعتقدوا أنها أسبانية".(٦٢) وربما اعـــتقدوا أنها من بقايا سفن يودوكسوس وكان الغرض من ذلك هو تشجيع فكرة الدوران حول أفـــريقيا.(٦٣) وربما ساد الاعتقاد أيضاً بأن بعثة جايوس كانت تتضمن إلى جانب الدوران حول الجزيرة العربية ، الدوران أيضاً حول أفريقيا من الشرق للغرب ، لأن الملك "يوبا الثانى" Iuba ملـــك موريتانـــيا (٢٥ق.م – ٢٥م) وحليف الرومان فى ذلك الوقت أعلن، عندما كتب عن بلاد العرب عند التجهيز لهذه البعثة ، أنه عند الإبحار من ساحل الصومال حتى المحيط الأطلنطى فى الغـــرب ، ثـــم على ساحل مملكته موريتانيا حتى قادس ، يجب استخدام رياح تسمى "كوروس"

---

* يتضـــمن مؤلف بلينيوس الشهير موسوعة "التاريخ الطبيعى" سبعة وثلاثين كتاباً ، اشتملت على موضـــوعات شـــتى تنم عن إلمامه بكثير من العلوم وفيها معلومات عن علم الأجناس والسلالات والجغـــرافيا والسياســـة والاقتصـــاد وعلم الاجتماع وما ورد عنده عن أفريقيا كان معظمه يتعلق بعصرى قيصر وأوغسطس، كما أورد معلومات تتعلق بأخبار القبائل والسكان وجغرافية أفريقيا .

Corus ، وهـي الـرياح الشـمالية الغـربية التـي تلائم سير السفن حتى رأس جاردافوي أو "موسيليتيس" Mossylites كما ذكر بلينيوس.(٦٤)

وقد استمر الجدل والخلاف بشأن موضوع الملاحة حول أفريقيا فلم تكن هناك كشوف أكثـر فـي أفـريقيا لحسم هذا الخلاف ، فحتى القرن الثاني الميلادي كانت أقصى نقطة أمكن الوصـول إليها على الساحل الشرقي هي رأس دلجادو .(٦٥) فقد وجه الرومان اهتمامهم للهند منذ احـتلالهم مصـر وزاد هـذا الاهـتمام في بداية عصر الإمبراطورية لا سيما حين نجح "هيـبالوس" Hippatus (فـي بدايـة القرن الأول الميلادي) في اكتشاف فائدة الرياح الموسمية واسـتخدامها وصار لها دور هام في الملاحة بالمحيط الهندي ، وبالتالي في رحلة التجارة بين الهـند وشرق أفريقيا ، ولما كانت هذه الرياح تسبب أحياناً انحرافاً للسفن الآتية من الهند إلى مصـر عـن طـريقها المعـتاد وذلك بدفعها جنوباً على الساحل الأفريقي ، فقد تبين للملاحين والـتجار أن هذا الساحل ممعناً في اتجاهه وامتداده ناحية الجنوب .(٦٦) ومع ذلك لم يفكر أحد فـي القـيام بالـدوران حول هذا الساحل ، وحتى مع أقصى استخدام للرياح الموسمية لم يفكر الرومان في أفريقيا المجهولة بالنسبة لهم وظل تفكيرهم متجهاً للهند .

وقـد حاول الإغريق خلال القرنين الأول والثاني للميلاد التوغل أكثر تجاه الجنوب على سـاحل أفريقيا الشرقي ، فوصلوا في عهد الإمبراطور "نيرون" (٥٤-٦٨م) حتى جزيرة "مينوثياس" Menuthias (بمـبا) وربما وصلوا حتى جزيرة زنزبار(٦٧) ، وقرروا أن الساحل ينثني من هناك تجاه الغرب ولا يُعرف شئ بعدها(٦٨) ، وأثناء القرن الثاني الميلادي وصل "ديوسكوروس" حتى رأس براسون (دلجادو) جنوب زنزبار(٦٩) ، ورأى البعض أنه دار حول هذه الرأس في محاولة للإبحار حول أفريقيا من الشرق للغرب .(٧٠)

وعلى الرغم من أنه كانت هناك دلائل تشير إلى أن الساحل لا يزال مستمراً في امتداده إلا أن المعــرفة بهــذا الامتداد لم تكن واضحة ، لذلك استمر البعض يشك في إمكانية الدوران حــول أفــريقيا بل وينكر أن يكون ذلك قد حدث قديماً ، ومن هؤلاء كان "بطلميوس الجغرافي"* Claudius Ptolemy (٩٠-١٦٨م) ، وقــد عبّــر بطلميوس عن رأيه هذا في كتابه "الجغرافيا" الــذي ضــمنه خريطة للعالم كما تصوره وقتئذ فجعل فيها الساحل الشرقي لأفريقيا يمتد جنوباً حتى رأس براسون (دلجادو) ثم ينثني بعدها تجاه الشرق جنوب البحر الإريتري – البحر العربي والمحــيط الهــندي – وأمعــن في مده في هذا الاتجاه حتى أوصله في نهايته الشرقية بساحل الصــين وجعله يمثل بهذا الإمتداد ساحلاً شمالياً لأرض جنوبية عظمى مجهولة.[٧١] وعلى هذا فــإن بطلمــيوس لم يعتقد في اتصال المحيطين الهندي والأطلنطي لأنه جعل من المحيط الهندي بحــراً داخلــياً مغلقاً وجعل أفريقيا قارة تمتد جنوباً بلا نهاية ، وقرر أخيراً أن ما قيل عن رحلة الفينيقيين حول أفريقيا أسطورة لا علاقة لها بالواقع .[٧٢]

---

*كلاوديــوس بطلميوس ، أوما عرف بطلميوس الجغرافى ، وكان أحد علماء الفلك السكندريين (٩٠-١٦٨م) وهــو من مواليد مدينة بطوليمايس الإغريقية بصعيد مصر إلا أنه أمضى الجانب الأكبر من حياته بمدينة الإسكندرية حيث أعد أبحاثه فى الفلك والجغرافيا واشتمل كتابه "الجغرافيا" الذى كتبه بالإغريقية على العديد من الخرائط للعالم المعروف فى أيامه وينقسم إلى ثمانية أجزاء تحدث فيها عن مصر وإفريقيا والنيل .Ball,J.: p.53-70

ويأتى مؤلفه فى مقدمة المؤلفات التى تندرج تحت اسم الجغرافيا الرياضية ، اشتملت ستة أجزاء مــنها علــى قــوائم بأســماء مدن وسلاسل جبال ومصبات أنهار ، واعتمد بطلميوس فى كتابة جغــرافيته علــى جمــع تــام للبيانات التى وردت فى يوميات الرحالة والكتب الإرشادية أو من مكتشــفين حقيقيين . ويمكن اعتبار كتبه من الثانى إلى السابع بمثابة فهرس لخريطته عن العالم . أمــا الدقــة التي كان يرمى إليها بطلميوس من تعيين مادته الجغرافية على أساس خطوط الطول والعــرض لم تتحقق كما رغب لأن بياناته جاءت فى الغالب من احصاءات اعتمدت على تقارير رحــلات أكثر من الملاحظة المباشرة ، واتضح ذلك فى مغالطاته فيما يختص بالصحراء الكبرى وساحل غرب أفريقيا ومرتفعات شرق أفريقيا ومده للساحل الشرقى تجاه الشرق حتى قابل ساحل الصين على الرغم من أن المحيط الهندى كان مفتوحاً للملاحة على أيامه ، لذا تعرض عمله لنقد شــديد ، وعلى الرغم من ذلك كان من أكثر المؤلفات اليونانية التى تناولها العرب والأوروبيون بالدراســة فــى العصــور التالــية وترجموها إلى لغاتهم وأثبتوا بهذه الترجمة صحة الكثير من النظــريات التــى وردت عند بطلميوس عن جغرافية العالم عامة . وقد نقل لنا بطلميوس أخبار بعــض الرحلات الكشفية التى تمت فى أفريقيا فى مجال الصحراء الكبرى وشرق أفريقيا خاصة فى عهد الرومان .

والحقـيقة أن اسـتمرار التصـورات الخاطئة عن أفريقيا في العصوور القديمة وقلة الكشـوف الجغـرافية بهـا جعـل منها قارة مجهولة خاصة فيما تعلق بنصفها الجنوبي وجعل المعرفة بها ضئيلة جداً ، لذلك ظلت رحلة الملاحة حول أفريقيا موضوعاً من الصعب حسمه أو الـبت فيه خاصة بعد فشل المحاولات التي بذلت وحتى الرحلة الحقيقية التي تمت للدوران حول أفـريقيا بنجاح كان التقرير الوحيد عنها غامضاً ومقتضباً فأصبح مجالاً لخيال الباحثين والكتاب قـديماً وفهمه وتصوره كما تراءى لهم ، وبدى الأمر غير مشجعاً لتكرار التجربة التي أصبحت مغامـرة غير مأمونة العواقب ولا مضمونة النتائج ، فاستولى اليأس على كل من حدثته نفسه للقيام بهذه المغامرة وساد الاعتقاد بأن الطواف البحري حول أفريقيا إنما هو حديث خرافة من المحـال تحقـيقه ، ثم توالت العصور وأهملت الفكرة أكثر رغم تزايد اهتمامات العلماء . وكان وقوف رؤوس الكنيسة ، في فترة الانحلال الذي ساد في العصور المظلمة ، في مواجهة هؤلاء العلمـاء سـبباً في تخلف المعرفة في العالم المسيحي عامة ، فرغم أن ذلك أدى إلى المنافسة العلمـية لكـنه لـم يؤد لتطور المعرفة حتى جاء العرب وتقدمت المعرفة الجغرافية خاصة بعد ترجمتهم لأعمال بطلميوس .[٧٣]

المحـور الثانـي الـذي يتناوله هذا الموضوع عن دور علماء الإسكندرية في كشف أفريقيا هو الخاص بشرق أفريقيا .

تعتبـر البعـثات الكشفية التي أرسلها ملوك البطالمة في مصر إلى شرق أفريقيا منذ أواخـر القـرن الـرابع وحتى أواخر القرن الأول ق.م. من أهم الجهود الكشفية التي تمت في أفـريقيا في العصر الهلّينستي، ونقصد بشرق أفريقيا هنا ، الساحل الشرقي للقارة المطل على البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي وظهير هذا الساحل .

ويـرجع الفضـل فـي الكشف الحقيقي لشرق أفريقيا لجهود البطالمة التي تمثلت في الرحلات أو البعثات التي أرسلها ملوكهم في مصر إلى هناك ، وقد بدأت هذه الجهود بمحاولة استكشـاف الطـرق الملاحية التجارية التي سيطر عليها عرب الجزيرة ، وكذلك المناطق التي يـنقلون إليها أو منها تجارتهم سعياً وراء تحقيق الهدف وهو فتح الطريق إلى الشرق الأقصى وشـملت رحـلات البطالمة وكشوفهم الساحل الأفريقي المطل على البحر الأحمر ثم جنوباً على المحيط الهندي والجزر الواقعة قبالة هذه السواحل ، وكذلك الظهير الساحلي والمناطق الداخلية مـن شرق أفريقيا التي وصلوا إليها عن طريق البحر. وجدير بالذكر أن هذه الرحلات الكشفية كانت لها صفة رسمية لأنها كانت موفدة من قبل الحكومة وبتكليف من الملك البطلمي.[٧٤] وهناك مـا يشير إلى تخصيص قروض للإنفاق على البعثات الموفدة إلى بلاد الصومال وأن القائمين على تلك المهام كانوا يتقاضون عنها أجراً .[٧٥]

كانـــت أولى الرحلات التي أرسلها البطالمة إلى البحر الأحمر في عهد بطلميوس الأول "ســوتير" (٣٣٢- ٢٨٥ ق.م.) ، حيث قام ببناء سفن كبيرة من أجل هذا الغرض[٧٦] ، وعهد بقــيادتها إلــى "فــيلون" أحد ضباط جيشه ، وأبحرت هذه السفن في البحر الأحمر حتى وصلت جزيـــرة قــبالة الساحل الأفريقي وجلبت هذه الرحلة الكشفية الزبرجد من تلك الجزيرة.[٧٧] وقد ذكـــر بلينيوس أن هذه الجزيرة تقع أمام ساحل تروجوديتيس Trogodytes ، وأنها سميت بهذا الاسم "الزبرجد" Topazos نسبة للحجر الكريم الذي كان يستخرج منها .[٧٨]

وتحـــدث استرابون عن اكتشاف هذه الجزيرة وذكرها باسم "أوفيودوس" Ophudes ، بمعنى "جزيرة الثعابين" وقال : " أنها تقع أمام الخليج الذي تقع عليه مدينة أو ميناء "بيرينيكي" (رأس بيـــناس) ، وأن الملك طهرها من الثعابين ، بمعنى أن ذلك حدث بعد أن نزل المكتشفون بهـــا وقـــتلوا الثعابين" ، وقال أيضاً : "أنها سميت كذلك نسبة للزبرجد الذي أكتشف بها ، وهو حجـــر شـــفاف له بريق ذهبي ويتلألأ بشكل غير واضح في النهار ، لدرجة أن أحداً لا يستطيع رؤيته بسهولة لأن بريقه يزداد مع أشعة الشمس ، لكن الذين يقومون بجمعه يستطيعون رؤيته فـــي اللـــيل، ويضعون عليه وعاء كعلامة (على وجوده في هذا المكان) حتى يقومون بتقطيعه وجمعه بالنهار.[٧٩] وذكر استرابون : " أنه كان هناك تنظيم من عدد من الأفراد يختارهم ملوك مصر لحراسة هذه الأحجار وجمعها فيما بعد ، وأن هذا التنظيم كان يتم تموله بالإمدادات".[٨٠]

وقد أسفرت رحلة "فيلون" لاكتشاف هذه الجزيرة عن تعرف البطالمة على مدى أهمية الأقالـــيم الواقعة جنوب مصر ، خاصة من الناحية الاقتصادية نظراً لوجود الفيلة هناك وأهميتها كمصـــدر للحصـــول علـــى العاج وأيضاً لاستخدامها كعنصر أساسي في جيوشهم وخاصة بعد احتكاكهم بالهنود وإدراكهم لقيمتها في الحروب.[٨١]

مـــنذ ذلك الحين ومن أجل هذا الهدف اهتم البطالمة بإرسال الرحلات الكشفية المتتالية في البحر الأحمر ليتم عن طريق كشف تلك الجهات من أجل الحصول على الفيلة ، وكان أهمها مـــا تم في عهد بطلميوس الثاني "فيلادلفوس" (٢٨٥ - ٢٦٤ق.م.) ويخبرنا استرابون "أن هذا الملـــك كان لديه فضول علمي وميل للبحث وأنه بسبب جسده العليل كان دائماً يبحث عن المتع والطـــرائف الغريبة.[٨٢] ومن أجل ذلك أرسل فيلادلفوس أحد رجاله وهو "ساتيروس" في رحلة لاكتشـــاف بـــلاد تروجوديتيس على طول الساحل الأفريقي للبحر الأحمر ، وهي البلاد التي كان يســـكنها قـــوم يطلـــق عليهم اسم تروجوديتاي Trogodytae بمعنى "سكان الكهوف" ، ويقول بلينيوس أن فيلادلفوس كان أول من اكتشف بلادهم[٨٣] ، وذكر بلينيوس أيضاً أن بلادهم كانت قـــديماً تســـمى "مـــيدوي" Midoe وأطلق عليها البعض الآخر اسم "ميديوي" Mideoe[٨٤] وكان الغرض من إرسال فيلادلفوس لساتيروس في هذه البعثة هو اختيار الساحل الذي تطل عليه بلاد

تـــروجوديتيس من أجل اختيار المواقع المناسبة لتأسيس عدد من المواني والمحطات التجارية على هذا الساحل لتتم منها إدارة وتنظيم عملية صيد الفيلة من المناطق الداخلية .[٨٥]

وعن موقع بلاد تروجوديتيس التي ذكرها استرابون باسم "تروجلوديتيس" يقول : "أنها تقـــع علـــى اليمـــين بعد الإبحار من "مدينة الأبطال" (Heroonpolis) ، -تقع هذه المدينة على الجانـــب الشـــرقي مـــن قمة خليج السويس - ، وتمتد بلاد تروجوديتيس جنوب ساحل البحر الأحمر حتى ميناء بطوليمايس التي يتم منها صيد الفيلة جنوباً .[٨٦]

وذكر بلينيوس أن فيلادلفوس شيد ثلاثة طرق ممهدة توصل إلى المواني التي أسسها علـــى طول هذا الساحل تبدأ من النيل عبر الصحراء الشرقية حتى ساحل البحر الأحمر[٨٧] ، كما أنـــه أعـــاد حفر القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الأحمر[٨٨] ، وبالفعل تم تأسيس عدة محطات علـــى طول الساحل الغربي للبحر الأحمر ، كان أولها أرسينوي Arsinoe وآخرها "بطوليمايس" Ptolemais ، وقد ذكر استرابون اكتشاف المواقع التي تم تأسيس هذه المحطات البحرية عليها بالتـــرتيب التالي حيث قال : "أنها تقع على ساحل تروجلوديتيس وأن أولها بعد "مدينة الأبطال" هـــي "أرســـينوي" التي عُرفت أيضاً باسم كليوباتريس (السويس حالياً)[٨٩] ، ثم "فيلوتيرا" التي أسســـها ســـاتيروس وسُـــميت علـــى اســـم أخت بطلميوس فيلادلفوس يليها ميناء آخر باسم "ارســـينوي" ، ثـــم "مـــيوس هورموس" Myos Hormus أو (ميناء ميوس) وعُرفت أيضاً باسم أفروديتـــي (القصـــير الحالية)[٩٠] تليها ميناء بيرينيكي (رأس بيناس أو بالقرب منها) ثم ميناء "ســـوتيرا" نســـبة إلـــى قصة عدد من القادة تعرضوا للأخطار هناك ونجوا منها - ربما يقصد اســـترابون أن هؤلاء القادة هم الذين أسسوا هذه المحطة - وأخيراً ميناء بطوليمايس (سواكن الحديثة) .[٩١]

وعـــن اكتشاف موقع هذه الميناء يقول استرابون : "أنها تقع بالقرب من مواقع صيد الفيلة وأن "يوميديس" Eumides الذي أرسله فيلادلفوس من أجل صيد الفيلة هو الذي أسسها ، وعـــن الطـــريقة التي اصطاد بها يوميديس الفيلة قال استرابون : "أنه طوقها بما يشبه الخندق وســـور واســـتطاع بطريقة ما أن يكسب صداقة هؤلاء الذين حاولوا منعه من صيد الفيلة[٩٢] ، والمقصـــود هنا بالذين حاولوا منع يوميديس من صيد الفيلة هم الوطنيون ، فقد ذكر استرابون أن عملية صيد الفيلة في تلك الجهات واجهتها مشكلة طريفة ، وهي أن القبائل الأفريقية هناك التـــي تسمى "آكلة لحوم الفيلة" كانت لديها عادة مطاردة قطيع الفيلة وأكل قطع من لحم العجز وهي حية دون أن ينقص منها شئ .[٩٣]

وقد ذكر بلونيوس أيضاً عملية اكتشاف المواقع التي تم تأسيس هذه المحطات التجارية علـــيها فقـــال : "أن أولهـــا أرسينوي ، التي تقع على خليج كاراندرا Carandra (بالقرب من الســـويس) وأن فـــيلادلفوس أسماها على اسم أخته ، ومنح اسمه هو لنهر تقع عليه ميناء أو

مدينة أرسينوي ، وبعدها تأتي مدينة "أينوم" Aenum التي أطلق عليها البعض اسم "فيلوتيريا" – هـي فيلوتيرا التي ذكرها استرابون –، ثم "ميوس هورس" ، تليها بيرينيكي Berenece التي سميت على اسم والدة فيلادلفوس[94] ، وأخيراً "بطوليمايس" . ويقول بلينيوس عن هذه المحطة الهامة: "أنها تقع في مكان تكثر فيه الأشجار، وأن بطلميوس فيلادلفوس هو الذي بناها من أجل صـيد الفيلة وأنه أطلق عليها فيما بعد اسم "إبي ثيرا" Epi Thera أو "مأوى بطلميوس للصيد"، وأنها قريبة من بحيرة تسمى "مونوليوس" Monoleus[95] .

ومن الجهود التي قام بها فيلادلفوس في شرق أفريقيا أيضاً كانت البعثات التي أرسلها لاكتشـاف السـاحل الصومالي أو بلاد القرفة حتى رأس العطور (جاردافوي) من أجل تأسيس المحطات لتنظيم وإدارة عمليات صيد الفيلة.[96] وبفضل هذه الجهود تمكن فيلادلفوس من فتح طريق التجارة بين مصر والأقاليم الجنوبية عبر ساحل البحر الأحمر .[97]

أمـا الكشـف الفعلي لساحل الصومال فقد تم في عهد خليفة فيلادلفوس ، بطلميوس الـثالث "يورجيتيس الأول" (٢٤٦ – ٢٢١ ق.م.) وكان لنفس الغرض أيضاً وهو صيد الفيلة . وقـد جعـل يورجيتيس من هذه العملية تنظيماً عسكرياً أعدت له ترتيبات وتجهيزات خاصة ، فقضى أولاً على خطر القراصنة في البحر الأحمر، ثم أرسل "سيمياس" Simias لإعادة اكتشاف السـاحل الغربـي للبحر الأحمر وظهيره، ويقول ديودوروس الصقلي عن هذا الكشف : "إن بطلميوس الـثالث الذي كان أيضاً مغرماً بصيد الفيلة (يقصد مثل سلفه فيلادلفوس) التي اكتشفت في هذه المنطقة أرسـل واحـداً من أصدقائه يدعي سيمياس لاستكشاف المكان ، وبعد أن أبحر ومعه إمدادات كافية قام بعمـل تقرير كامل عن الشعوب التي تسكن على طول الساحل[98] . وأرسل أحد رجاله ويدعى "فيلون" Philon إلى إثيوبيا لاكتشاف هذه البلاد وجمع المعلومات عنها[99] ، ثم أرسل يورجيتيس بعثات متتالية لاختـبار الساحل الصومالي للملاحة ، ولاختيار المواقع المناسبة عليه لتأسيس محطات تتم عن طريقها عملـية صـيد الفـيلة تحـت قيادة عدد من رجاله ومنهم : Charimortus ، Leon ، Pytbangelus ، Lichas ، Pytholaus[100] وقـد مـنح هـؤلاء الـرجال أسماءهم لمعالم جغرافية اكتشفوها سواء عل السـاحل أو في الداخل ، وأقام جميعهم المذابح والأعمدة على الساحل الصومالي مشيرين بذلك إلى أبعد النقاط التي وصلوا إليها.[101]

ويقـول استرابون في هذا الصدد أن "ليخاس" Lichas منح اسمه لمنطقة لصيد الفيلة على سـاحل الصـومال توجد بها آبار تتجمع فيها مياه الأمطار ، وعندما تجف هذه الآبار تقوم الفيلة بحفر الأرض بخـرطومها ونابهـا بحـثاً عـن المياه ، كذلك أطلق اسم "بيثولاوس" Pytholaus على إحدى الخلجـان علـى هـذا الساحل ، وتوجد به بحيرتين كبيرتين إحداها مياهها مالحة وتسمى "البحر" بينما الثانـية مـياهها عذبـة وتوجد بها أفراس النهر والتماسيح وينمو على حوافها نبات البردي ، وتوجد

طـيور مائـية بالقـرب مـن هذا المكان[102] ، كذلك أطلق اسم "ليون" على إحدى نقاط المراقبة واسم "بيثانجيلوس" Pythangelus على أحد المواني وإحدى مناطق صيد الفيلة .[103]

ويقـول اسـترابون أن المنطقة التي تم لهذه البعثات اكتشافها تمتد على طول الساحل من ميناء "ديري" حتى "قرن الجنوب" لكنه لم يتم تحديد هذه المسافة[104] ، أما بالنسبة لميناء "ديـيـري" فيـرجح أنـه ميناء "عصب" الحالي عند بوغاز باب المندب، ويقصد استرابون بقرن الجنوب – رأس جاردافوي – ويقول : "أنها آخر رأس على ساحل القرفة (الصومال) وأنه بعد الدوران حولها تجاه الجنوب لا نعرف أي مواني أو أماكن لأنه لا يُعرف شئ بعد هذه الرأس ."[105]

وعلـى الـرغم مـن أن ملوك البطالمة بعد بطلميوس الثالث قد تابعوا إرسال البعثات الكشـفية لشرق أفريقيا من أجل صيد الفيلة إلا أن عصره شهد أزهى فترات الكشوف في شرق أفريقيا في العصر الهلّينستي ، حيث تم اكتشاف الساحل الأفريقي للبحر الأحمر تماماً حتى رأس جاردافوي ، ولم تصل الكشوف التي تمت فيما بعد وحتى نهاية حكم البطالمة إلى أبعد من ذلك . ونشـير فـي هـذا المقـام إلى إرسال بطلميوس الرابع "فيلوباتور" (٢٢١ – ٢٠٥م) كل من Charimortus و Lichasمـرة أخرى في بعثات لصيد الفيلة[106] . لكن مع حلول القرن الثاني ق.م. سادت الدولة البطلمية اضطرابات داخلية وخارجية ودب الانحلال في البيت البطلمي ذاته ، لكـن ذلـك لـم يمنع البطالمة من إرسال المزيد من الرحلات الكشفية ومواصلة جهود ملوكهم الأوائـل فـي هـذا المجال ، خاصة وأن الرفاهية المتزايدة التي سيطرت على الإغريق آنذاك دفعتهم لإرسال المزيد من الرحلات الكشفية بهدف التجارة[107] ، وإذا كانت جهود البطالمة في تلـك الفتـرة لم تصل إلى أماكن أبعد في شرق أفريقيا ، ولم تحقق نتائج أكثر مما تحقق ، لكن الـرحلات التي تمت، خاصة لبلاد الصومال أتاحت لهم معرفة تفاصيل أوفر عن جغرافية المنطقة وطبيعـتها ومـواردها وعن القبائل الوطنية التي تعيش بها[108] ، والأكثر أهمية من ذلك أنها كانت الطريق لاختراق قلب القارة لفتح مجال جديد للكشف في أفريقيا وهو النيل .

ومن هذه الفترة أيضاً نذكر ملابسات الصدفة التي دفعت بيودوكسوس التاجر الإغريقي أثناء عودته لمصر من رحلته الثانية إلى الهند إلى ساحل شرق أفريقيا ، وعن ظروف ما حدث ليودوكسـوس يقـول اسـترابون : "أنـه أثناء وجوده (يودوكسوس) في مصر أحضر حرس السواحل في الخليج العربي (البحر الأحمر) هندياً للملك (بطلميوس الثامن – يورجيتيس الثاني) وقالـوا أنهم وجدوه على وشك الموت وحيداً على متن سفينة مصنوعة من الحبال المجدولة ، ولـم يعرفوا من هو ولا من أين أتى لأنهم لم يفهموا لغته ، فأرسله الملك لرجال يعلمونه اللغة اليونانـية ، وعندما تعلمها روى أنه أثناء رحلته من الهند ولسوء حظه ضل طريقه لكنه وصل مصـر بسـلام بعد أن فقد رفاقه بسبب الجوع ، وعندما حام الشك حول ما قاله (من قبل الملك البطلمي ورجاله) وعد أن يكون مرشداً في رحلة للهند (ليبرهن على صدق ما يقول) مع رجال

يخـــتارهم الملـــك وكان منهم يودوكسوس الذي أبحر للهند ومعه الهدايا وعاد ومعه بضائع من العطـــور والأحجار الكريمة – بعضها أتت به مياه الأنهار مع الرمال والبعض الآخر عُثر عليه بالحفـــر ، والبعض الآخر تم تحويله من حالة السيولة إلى الصلابة لكن يودوكسوس خاب ظنه لأن يورجيتيس أخذ منه كل ما أتى به .[١٠٩]

ويستمر استرابون قائلاً : "وبعد موت يورجيتيس خلفته على العرش زوجته كليوباترا الثالثة (١١٧ – ١٠١ق.م.) وأُرسل يودوكسوس على عهدها مرة أخرى للهند ، لكن هذه المرة بتجهيزات أكثر . وأثناء عودته من هذه الرحلة دفعته الرياح (الشمالية الشرقية الموسمية التي تهـــب فـــي الشتاء) إلى جنوب إثيوبيا بعيداً عن مسار رحلته ، ونزل بعدة أماكن هناك وحاول اســـتمالة الوطنيـــين وكسب صداقتهم . فتقاسم معهم ما كان يحمل من خبز وخمر وتين مجفف (لأنهـــم لم يعرفوا تلك الأشياء) وأثناء عودته أخذ مؤن من الماء ومرشد للسفن ، وكون قائمة لبعض الكلمات من لغة هؤلاء القوم.[١١٠]

ويقول استرابون أن يودوكسوس عندما عاد إلى مصر بسلام لم تكن كليوباترا تحكمها فـــي ذلـــك الوقت لكن ابنها (بطلميوس التاسع – سوتير الثانى) وأنه فى هذه المرة أيضاً سلبه الملك كل ما أتى به ، لذلك قرر يودوكسوس أن يقوم بهذه الرحلة للهند عن طريق آخر يتفادى به ابتزاز ملوك البطالمة فى مصر له ، وهو أن يصل للهند عن طريق الدوران حول أفريقيا من الغـــرب للشرق. ولا شك أن الظروف التى دفعت بيودوكسوس إلى ساحل أفريقيا الشرقى جعلته يـــتأكد أن الساحل يتجه إلى الجنوب أكثر بعد رأس العطور (جاردافوى) ، وهى أقصى نقطة تم الوصول إليها حتى ذلك الوقت كما رأينا ، وكما ذكر استرابون فإن الرياح دفعت بسفينته جنوب إثيوبـــيا ، ولما كانت أثيوبيا هى المجاورة أو التى تقع على حدود مصر[١١١] فإن هذا يعنى أن يودوكســـوس توغل على الساحل جنوب رأس (جاردافوى) لكنه لم يعرف بالتحديد إلى أى مدى يمـــتد هـــذا الســـاحل. وبوفاة يودوكسوس أثناء محاولته القيام برحلة الدوران حول أفريقيا لم يتمكن من تسجيل المعلومات التى حصل عليها أثناء رحلته على ساحل أفريقيا الشرقى بنفسه ، لكـــن تـــم تـــناقل هذه الروايات وكان لها تأثير فى بعض ما كتب عن أفريقيا وقتها، فعل سبيل المثال ذكر "أرتميدوروس" – الذى كتب حوالى ١٠٠ ق.م. – ومن خلال المعلومات التى عرفها عـــن رحـــلات يودوكســـوس أن الســـاحل الأفريقى الشرقى يتجه ناحية القرن الجنوبى (رأس جاردافوى) لكنه قرر أنه لا يعرف شئ عن الساحل الواقع وراء هذه الرأس[١١٢].

وفى أثناء القرن الأول ق.م. زاد انحلال البيت البطلمى ، لكن ذلك لم يؤثر بالسلب فى نشـــاط الـــبطالمة التجارى والكشفى فى المياه الشرقية خاصة وأن قوة عرب الجزيرة كانت قد تـــداعت ، لكن ظهور الوحدات العربية الأفريقية الجديدة على سواحل الصومال نتيجة لهجرات العـــرب واختلاطهم بالعناصر الوطنية حال بين البطالمة وبين كشف هذه السواحل تماماً، خاصة

وأن تلك الوحدات اعتمدت بشكل كبير على أعمال القرصنة ولم يستطع البطالمة الوصول لأبعد من رأس جاردافوى(١١٣).

وفـــى عهد البطالمة المتأخرين ظهرت قوة العرب الحميريين فى شبه الجزيرة العربية لكـن الحكومة البطلمية قررت أن تقوم بتأديبهم مع قراصنة الوحدات العربية على ساحل شرق أفـريقيا الــذين عُرفوا بالنبطيين Nabataeans ، ومن الحملات العسكرية الناجحة التى جردها البطالمة ضدهم حملة "أبو للونيوس" ، وقد ترك هذا القائد وغيره من القادة الذين أرسلوا لنفس المهمة نقوشاً تسجل تقديمهم الشكر للآلهة التى كانت تحميهم فى البحر الأحمر وجزيرة العرب وشــواطئ تروجوديتيس بعد أن كانت سفن البطالمة لاتجروء – خوفاً من هؤلاء العرب – على الإبحار بعد باب المندب فى أى وقت من العام(١١٤).

وفى هذا العهد المتأخر من حكم البطالمة اكتشفوا جزيرة هامة تواجه الساحل الشرقى لأفــريقيا قــبالة رأس جاردافــوى وهى جزيرة "سوقطرة" Socotra ، وقد شغلت هذه الجزيرة الغامضة والعجيبة أذهان المكتشفين وأثارت اهتمامهم فى هذا العصر كما كانت من قبل.

وكانت عادة القدماء عامة بالنسبة للأراضى المجهولة التى تقع خارج حدود معرفتهم أنهـم كانـوا يرســمون لها صوراً عجيبة فى خيالهم ، منها : أنهم تخيلوها مليئة بالحيوانات والنــباتات الغــريبة ، وأن ســكانها أناس مثاليون أفاضل لاتزعجهم مشاكل العالم الشرير ولا اضــطراباته ، ثــم أنهــم كانــوا يتخيلون كشوف غير حقيقية لهذه المناطق حتى يتم اكتشافها الفعلــى، وينسبون هذه الكشوف لأشخاص أسطوريين حيناً ولأشخاص حقيقيين قاموا برحلات من وحي الخيال حيناً آخر(١١٥).

وكمـــا ذكــــرنا فإن المصريين اكتشفوا جزيرة سوقطرة وعرفوها باسم جزيرة باعنخ Pa-ach ، وقــد نســـج خيالهم حولها حكايات من هذا القبيل ، فوردت عنها رواية ترجع لعصر الأســرة الثانية عشر (٢٢١٢ – ٢٠٠٠ ق.م.). وقد انطبقت أوصاف هذه الجزيرة على جزيرة ســوقطرة (١١٦)، كما كانت هناك قصص متداولة لدى الإغريق ربما كان مصدرها تقارير العرب عــن جزيــرة فى البحر الإريثرى تسمى "بانخايا"(١١٧). وكانت واحدة من مجموعة الجزر التى تســمى جزر السعادة(١١٨). وقد ذكر ديودوروس أن مجموعة هذه الجزر تقع عند أقصى حدود بــلاد العــرب السعيدة وتحيطها مياه المحيط (الهندى) وأن منها ثلاث تستحق الذكر ، وأن هذه الجزيــرة (بانخايــا) إحداها. وذكرها باسم هيبرا أو الجزيرة المقدسة ، وقال أنه غير مسموح بدفن الموتى بها، وأنها كانت تنتج البخور والمربكميات كبيرة (١١٩).

وقـد وردت عـند ديـودوروس الصقلى* (٨٠-٢٩ ق.م.) رواية طويلة تصف هذه الجزيرة وتشير تفاصيل الرواية إلى وجود مدينة فاضلة فى هذا المكان [١٢٠]، والقصة بها كثير من الخيال والأشياء الغير معقولة [١٢١]، وقد تطابق الوصف الذى ورد فى هذه الرواية لجزيرة باتخايـا مـع قصـة رحلـة كشفية وردت عند "ديودوروس" أيضاً قام بها رجلاً إغريقياً يدعى (إيامبولوس) Iambulus [١٢٢]، وقد تطابق وصف هذه الجزيرة المكتشفة فى عدة أمور مع ذلك الوصـف الذى ورد عن المدينة الفاضلة التى اكتشفها الإغريق كما ذكر ديودوروس وأيضاً مع وصـف جزيـرة باعنخ التى ترجع قصتها لعهد الأسرة الثانية عشر المصرية ، لكن هناك عدة أمـور أخـرى تجعلنا نستبعد أن تكون سوقطرة [١٢٣]، وقد رجح البعض أنها ربما كانت جزيرة "سيلان" فى أقصى جنوب الهند [١٢٤] لأن سوقطرة لم يتم اكتشافها إلا على يد المصريين ، وقد ظل هذا الكشف مجهولاً حتى أعيد اكتشاف سوقطرة على يد البطالمة[١٢٥]. وقد تم لهم ذلك قبل حكـم بطلمـيوس الحادى عشر. "أوليتيس" (٨٠-٥١ ق.م.) بوقت قصير ، وأطلقوا على هذه الجزيرة اسم "ديوسكوريدونيسوس" أو جزيرة "ديوسكوروس" وهى إحدى جزر مجموعة تسمى "جـزر السـعادة"[١٢٦]، وهـى التسـمية التـى أطلقها عليها الوطنيون (ربما العرب) Dvipa Sukhadhara بمعنى "الجزيرة مقر السعادة". أما عن أصل التسمية التي أطلقها عليها الإغريق، فإن "ديوسكوروس" هو ابن "زيوس" ، وهو الإله الحارس للبحارة[١٢٨]. وقد ذكر بلينيوس هذه الجزيـرة فقـال : "تـوجد جزيرة شهيرة فى بحر "أزانيا" هى جزيرة ديوسكوريدو Dioscuridu وتقـع على بعد مائتى وثمانين ميل من رأس سيجاروس Sygarus [١٢٩] ويقصد بلينيوس ببحر أزانيا Mare Azanium ، البحر العربى ، وبرأس سيجاروس "رأس فرتك" على ساحل اليمن[١٣٠]. وقد عرف البطالمة أن سكان هذه الجزيرة كانوا يشكلون خليطاً من أجناس مختلفة ، وكانوا من قبل تحت سيطرة العرب الحميريين ، وقد أرسل بطلميوس أوليتيس مواطنين إغريق لاستيطان هذه الجزيرة التى كانت قد اكتشفت قبل عهده[١٣١].

* ديودوروس الصقلى من إغريق صقلية (٨٠-٢٩ق.م) زار مصر عام ٥٩ق.م وهو من أهم من كـتب عن الجغرافيا والكشوف الجغرافية فى أفريقيا من الإغريق ، ألف مجلداً فى التاريخ العام تحـت عـنوان " المكتبة التاريخية " انتهى منه فى عام ٣٠ق.م ، ويعتبر هذا العمل بحث علمى للقـارئ العـام عالج فيه تاريخ الماضى منذ البدء وحتى زمانه ، ويقع مؤلفه فى أربعين كتاباً لم يصـل منهما كاملاً سوى الكتب الخمس الأولى ثم من الكتاب الحادى عشر إلى العشرين أما بقية الكـتب فلـم يصـل منها إلا شذرات . وفى كتبه من الثانى إلى الخامس تحدث عن مصر وفيما يخـتص بأفـريقيا عن الكشوف التى تمت خاصة للجزر الواقعة قبالة سواحلها الشرقية والغربية وكـذلك الكشـوف التى تمت فى شرق أفريقيا فى عهد البطالمة ، وتناول فى كتابه الأول كل ما تعلق بالنيل ، منابعه وأسباب فيضانه . . Ball, J. : p. 46-53

وتجـدر الإشـارة إلى أن الكشوف الجغرافية التى قام بها البطالمة آنذاك وحتى نهاية حكمهـم كانـت تتجه أكثر ناحية الهند التى أصبحت الهدف الجديد[١٣٢] خاصة بعد أن اكتشفوا ميناء "أكيلا" Acila على الجانب الشرقى من البحر الأحمر عند بوغاز باب المندب واكتشفوا أن هـذا الميـناء يستخدم للوصول للهند بحراً [١٣٣]، كذلك فإن بزوغ نجم روما الذى كان آخذاً فى الصـعود آنـذاك ، ليس فى غرب المتوسط فقط ، ولكن فى قسمه الشرقى أيضاً ، ساعد على تحول اهتمام الإغريق تجاه الشرق الأقصى وبشكل لم يُعرف من قبل إلى أن تم للرومان القضاء على دولة البطالمة فى مصر واحتلالهم لها عام ٣٢ ق.م.[١٣٤].

وجدير بالذكر أنه على الرغم من احتلال الرومان مصر وقربهم من المياه الشرقية لم يقومـوا بإرسـال بعـثات كشفية أو تجارية هناك قبل عصر الإمبراطورية ، فمن ناحية لم تكن لـديهم روح المغامـرة أو الكشـف ولا حتـى الفضول العلمى ، ومن ناحية أخرى فإن "البحر الإريثرى" وهو الممر الطبيعى للشرق ، كان من الصعب إجتيازه بسبب وجود الإغريق والعرب واحـتكارهم النشاط البحرى التجارى والكشفى فى هذا المجال[١٣٥]. لكن مع جو السلام والأمن الذى ساد فى بداية عصر الإمبراطورية تحت حكم الإمبراطور أغسطس (٢٧ ق.م.-١٤م) نمت روح المغامرة والكشف وأصبح الدافع هو حب الكسب والثراء على عكس الفضول العلمى الذى سـاد فـى عهد البطالمة – خاصة الأوائل منهم – ومع نمو الثروة فى روما والولايات الغربية أدى ذلـك إلـى الإهتمام بفتح طريق التجارة مع الشرق للحصول على ما يأتى منه من سلع ، واسـتطاعت الأسـاطيل الـرومانية أن تعبـر مضيق باب المندب وتقوم برحلات بحرية بهدف التجارة وهى آمنة.

ويخبرنا استرابون عن هذا النشاط بقوله : "أنه فيما مضى لم تجروء أكثر من عشرين سـفينة على عبور الخليج العربى (البحر الأحمر) بعيداً ، أو أن تلقى مجرد نظرة بعد المضيق (بـاب المندب) لكن الآن تستطيع الأساطيل الكبيرة الذهاب إلى الهند وآخر حدود إثيوبيا وتأتى من هناك محملة بالسلع القيمة وترسلها بعد ذلك لأماكن أخرى"[١٣٦]. وكانت أهم السلع بالنسبة للرومان تلك التى كانوا يأتون بها من شرق أفريقيا مثل حيوانات الصيد وبخاصة الفيلة من أجل العـاج، والحـيوانات المفترسـة والـذهب والتوابل[١٣٧]. وكانت هذه الرحلات تستخدم مينائى "مـيوس هورمـوس" (القصـير حالـياً) و"بيرينيكى" (رأس بيناس) على البحر الأحمر ثم تعبر الصحراء الشرقية فى رحلة برية لتصل إلى ميناء قفط على النيل باستخدام الإبل[١٣٨].

والواقـع أن الرومان ظلت تواجههم عقبة كبرى عاقت نشاطهم الكشفى والتجارى فى شـرق أفـريقيا وهى سيطرة العرب على تجارة الشرق بما فيها التجارة مع شرق أفريقيا[١٣٩]، لكـن الرومان حاولوا التغلب على هذه السيطرة باتخاذهم إجراءً عسكرياً تمثل فى الحملة التى أرسـلها الإمبـراطور أغسـطس ضـد العرب فى شبه الجزيرة عام ٢٥ ق.م. بقيادة "أيليوس

جالــوس" والـــى مصـــر ، وكانت حملة كشفية حربية موجهة ضد العرب الحميريين فى جنوب الجزيرة العربية لكنها فشلت، ولم تنجح بذلك فى القضاء على سيطرة العرب على طرق التجارة فـــى المـــياه الشرقية(١٤٠). أما الحدث الذى ساعد الرومان على اجتياز هذه العقبة كان اكتشاف استخدام الرياح الموسمية والذى تم على يد تاجر يونانى يدعى "هيبّالوس" Hippalus أثناء حكم ثانـــى أباطـــرة الـــرومان تيبيريوس (١٤-٣٧م)(١٤١)، وكما هو معروف فإن العرب هم الذين اكتشفوا هذه الرياح واستخدموها فى الملاحة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى لكنهم احتفظوا بسر هذا الاكتشاف لأنفسهم ، لذا لم يعرف الرومان ولا الإغريق شيئاً عنها ، وحين عرفوها لم يقـــدر لهـــم الانـــتفاع بها(١٤٢)، لكن "هيبّالوس" استطاع أن يستخدم هذه الرياح فى رحلاته فى الميحط الهندى الإستخدام الأمثل ، وسهل هذا الإكتشاف الطريق لتجارة هامة فى الإمبراطورية الـــرومانية منذ ذلك الحين. وكان هيبّالوس قد قام برحلات للهند بهدف الكشف والتجارة وأثناء ممارسته التجارة على سواحل الهند وشبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا عرف أنه، من مايو إلى أكتوبر تهب رياح معتدلة آتية من جنوب غرب المحيط الهندى ، بينما تهب نفس الرياح من نوفمبـــر إلـــى مارس ، لكن من الشمال الشرقى . ولم يكن هيبالوس يعرف فى بادئ الأمر أنه اكتشف الرياح الموسمية إلى أن تأكد له ذلك بالتجربة العملية ، فقد قام برحلة صيفية على طول سواحل شبه الجزيرة العربية مع اتجاه هذه الرياح وكانت فى ذلك الوقت جنوبية غربية فدفعت بسفينته تجاه الشرق وأثبت بذلك صحة نظريته وتأكد له وجود طريق بحرى مباشر للهند(١٤٣).

وقد حقق هيبالوس بهذا الكشف شهرة كبرى وظل اسمه موجوداً على معالم جغرافية فـــى مـــنطقة البحر الإريثرى فأطلق اسمه على الرياح الموسمية الجنوبية الغربية(١٤٤)، وعلى خليج فى البحر الأرثرى (البحر العربى) كما ذكر بلينيوس(١٤٥) ولاشك أن اكتشاف هذه الرياح قد أفـــاد الرومان في تنمية معرفتهم واكتشافهم لساحل أفريقيا الشرقي ، لكن ظل كل ما عرفه عن شـــرق أفـــريقيا مصدره الإغريق الذين لازالوا حتى ذلك الوقت رواد الملاحة والكشف والتجارة الشـــرقية ، ذلـــك أن الـــرومان لم يشاركوا بشكل مباشر فى هذا النشاط لكنهم تركوه فى أيدى الإغـــريق وبتكليف من الحكومة الرومانية التى كانت تساندهم بسلطتها وبرؤوس الأموال(١٤٦). وقد وصل المكتشفون الإغريق فى عهد الرومان إلى حدود أبعد مما وصل إليه البطالمة من قبل فـــى شـــرق أفريقيا ، فاكتشفوا الساحل الشرقى وظهيره تماماً حتي رأس العطور (جاردافوى) وعرفوا أن الساحل لايزال يتجه ناحية الجنوب بعد هذه الرأس ولايتجه غرباً كما كان الاعتقاد.

فقـــد حـــاول الإغـــريق خلال القرنين الأول والثانى للميلاد والتوغل أكثر تجاه الجنوب على ســـاحل أفـــريقيا الشـــرقى فوصـــلوا فـــى عهد الإمبراطور "نيرون" (٥٤-٦٨م) حتى جزيرة تسمى "مينوثـــياس" Menuthias (١٤٧). وذكـــرت بعض الدراسات أنها "بمبا" Bemba ، والبعض الآخر أنهـــا "زنـــزبار"(١٤٨). وذكـــــر الإغريق أن الساحل ينثنى من هناك تجاه الغرب ولا يُعرف شئ

بعدها[١٤٩]. وكانت لهم أيضاً رحلات منتظمة إلى جزيرة سوقطرة[١٥٠]. واستطاعوا اختراق أراضي مملكة أكسوم[١٥١]. ونذكر في هذا المجال أيضاً رحلة "ديوجينيس" Diogenes في عهد الإمبراطور "كلاوديوس" (٤١-٥٤م) إذ حاول هذا الملاح الإغريقي أن يقلد يودوكسوس ويقوم برحلة للهند لكنه ضل طريقه قرب رأس العطور أثناء عودته من الهند ودفعت الرياح بسفينته على الساحل عند زنزبار ، واستطاع أن يجمع من هناك معلومات وفيرة ، ووصل إلى هذه الحدود أيضاً تاجر يوناني يدعى "ثيوفيلوس" Theophilus [١٥٢]. وأثناء القرن الثاني الميلادي وصل "ديوسكوروس" حتى رأس "براسون" (دلجادو البرتغالية) جنوب "رابتا" (دار السلام الحالية)[١٥٣] وظلت هذه الرأس أقصى نقطة أمكن الوصول إليها على الساحل الشرقي لأفريقيا لوقت طويل[١٥٤] على الرغم من أنه كانت هناك دلائل تشير إلى أن الساحل لايزال مستمراً في امتداده إلا أن المعرفة بهذا الامتداد لم تكن واضحة[١٥٥].

أما المحور الثالث والأخير الذي يتناوله هذا الموضوع فهو جهود علماء الاسكندرية خلال العصرين الهلينستي والروماني لاكتشاف منابع النيل وأسباب فيضانه.

وجدير بالذكر أن ما ورد عند "هيرودوتوس"* (القرن الخامس ق.م.) عن منابع النيل وأسباب فيضانه كان أهم ما عرفه الإغريق عن هذا النهر حتى ذلك الوقت وقد اعتمد فيما كتب على الروايات التي كانت متداولة في مصر عن منابع النيل وأسباب فيضان وأهمها رواية الأثيني ، والتي تسال عنها هيرودوتوس : "أما عن مصادر النيل فإنه لا يوجد أحد من الذين تحدثت معهم سواء كان مصرياً أو ليبياً (من الوطنيين) أو إغريقياً أعلن أنه يعرفها ، فيما عدا ما ذكره المشرف على أموال التكريسات الأثيني الذي كان يعيش في مدينة "سايس" المصرية ،

---

*زار هيرودوتوس مصر عام ٤٥٠ق.م وقضى في هذه الزيارة ثلاثة شهور ونصف جال خلالها بأنحاء مصر ، وخصص الكتاب الثاني ، من مؤلفه الضخم الذي يقع في تسعة كتب ، للحديث عن مصر . وعلى الرغم من أن اهتمامه أنصب على الحديث عن تاريخ البلاد وعادات المصريين فإن كتابه احتوى على معلومات جغرافية هامة ، ولعل أكثر الأشياء التي أثارت فضول هيرودوتوس هي تلك التي تتعلق بنهر النيل . وإذا كان هيرودوتوس قد اهتم بالجغرافيا عموماً فقد اهتم بجغرافية أفريقيا على وجه الخصوص ، فلم يخل كتاب من الأربعة كتب الأولى من مؤلفه على وجه التقريب من الحديث عن أفريقيا جغرافياً وتاريخياً ، فتحدث عن القبائل الليبية خاصة في شمال أفريقيا وعن أماكن تواجدها وطريقة حياتها وأوصافها ، وخصص لذلك كتابه الرابع ، كما تحدث عن أفريقيا حتى منابع النيل والعلاقات التي كانت بين الشمال والجنوب وكتب كثيراً عن الصحراء الأفريقية ، سكانها وواحاتها وفي مجال كشف أفريقيا أورد هيرودوتوس أخبار أهم رحلات الملاحة حول أفريقيا ورحلات اكتشاف الصحراء الكبرى ، وتحدث كثيراً عن النيل وعرض عرضاً مستفيضاً للنظريات والآراء التي قيلت عن منابعه وأسباب فيضانه ونقدها وعلق عليها .

وأعتقد أنه كان يمزح معي حين ذكر أنه يعرف هذا الموضوع معرفة جيدة وأكيدة (يقصد منابع النـــيل) وهـــذه قصته : "بين مدينتي سييني (أسوان) واليفانتين (الفيلة) يوجد جبلان لهما قمم حـــادة أحـــدهما يســـمى "كروفي" والآخر "موفي" وبين هذين الجبلين توجد منابع النيل العميقة وتـــتجه نصـــف المياه المتدفقة من هذه المنابع ناحية الشمال إلى مصر والنصف الآخر ناحية الجـــنوب إلى إثيوبيا ، ولما كان من المتعذر قياس عمق تلك المنابع فإن "بسماتيك" ملك مصر(١٥٦) قـــد أثـــبت ذلـــك بالتجربة العملية لأنه كان لديه مقياس لعمق المياه يبلغ طوله ألف وحدة قـــياس ، وقـــد حـــاول (عن طريقه) قياس عمق هذا المنبع ، لكنه لم يستطع الوصول للقاع" . ويقول هيرودوتوس "إذا كان هذا الرجل يقول الحقيقة فإن ما ذكره يشير إلى أنه في هذا المكان توجد دوامات قوية إلى جانب تدفق تيار الماء شمالاً عكس اتجاه تلك المرتفعات ، وأن ذلك هو الذي جعل مقياس بسماتيك لا يصل للقاع ."(١٥٧)

والواقـــع أن ما ذكره الأثيني والمحاولة التي قام بها بسماتيك لم تكن لها علاقة بمنابع النيل الحقيقـــية ، لكن فكرة الينابيع التي ينبثق منها الماء من الأرض ليغذي النيل شمالاً وجنوباً كان لها تأثير فيما اعتقده الإغريق والرومان فيما بعد عن منابع النيل بوحي من هذه الفكرة المصرية .

على أية حال فإن هذه الفكرة رغم جنوحها للخيال لم تكن من وحي هذا الخيال تماماً ، فعلى الرغم من أنه لم تكن لهاتين الحفرتين علاقة بمنابع النيل إلا أنه قد ورد ذكر لبقعة تسمى "ينـــبوع النـــيل" قـــرب جزيرة اليفانتين (الفيلة) في نقش للملك البطلمي بطلميوس الثامن.(١٥٨) ويخبـــرنا "تاكيتوس" Tacitus "أنه في أثناء حكم الإمبراطور الروماني تيبريوس (١٤ – ٣٧م) رأى "جير مانيكوس" أحد قادة الجيش في عهد هذا الإمبراطور واحدة منها" .(١٥٩) وخلال الفترة مـــن القرن الخامس ق.م. وحتى ظهور الإسكندر الأكبر – أواخر القرن الرابع ق.م. – لم تكن هـــناك جهـــود كشـــفية في النيل سواء من قبل المصريين أو الإغريق ، وظل تداول النظريات والمعـــتقدات الخاطـــئة عن منابع النيل وأسباب فيضانه(١٦٠). وقد أرجع "ديودوروس الصقلي" ســـبب ذلـــك إلى جهل مؤرخي وفلاسفة وعلماء الإغريق بالأقاليم الواقعة جنوب مصر ويقصد إثيوبـــيا(١٦١)، وذكـــر أنـــه مـــنذ أقـــدم العصور وحتى حكم الملك البطلمي – بطلميوس الثاني (فـــيلادلفوس) ٢٨٥-٢٤٦ ق.م. – لـــم يـــذهب الإغريق إلى إثيوبيا ولا حتى بعد حدود مصر الجنوبية أي بعد أسوان التي كانت على الحدود بين مصر وإثيوبيا(١٦٢)، حيث كانت الرحلة إلى هناك خطرة ، ولم تكن هذه الأقاليم مألوفة بالنسبة للأجانب(١٦٣). على الرغم من ذلك فقد كانت هناك محاولات لم ييأس أصحابها من معرفة الحقيقة مثلما فعل أرسطو – معلم الإسكندر الأكبر – لكـــن ماورد عنده كان تقارير غامضة وغير واضحة ، فتحدث مثلاً عن أنهار تنبع من فوق المـــرتفعات الإثيوبـــية ، فذكر نهراً يسمى "أيجون" وآخراً يسمى "تيسيس" وذكر بدون توضيح مـــنطقة السدود شمال نهر السوباط وكذلك فعل حين تحدث عن المرتفعات الشاهقة في الشرق

والغــرب – المقصــود بها جبال كينيا وكيليمنجارو وروينزوري – وكانت له نظرية عن منابع النــيل مـــن فـــوق الجـــبل الذى أطلق عليه اسم الجبل الفضى (جبال القمر)[١٦٤]. وقد قيل أن الإسكندر الأكبر ، أثناء زيارته لنبوءة آمون فى واحة سيوة ، أرسل قوة من جيشه ، الذى كان مصاحباً له ، فى النيل لاكتشاف منابعه وأن هذه القوة فشلت فى تحقيق الهدف[١٦٥] وربما جاء هذا الاعتقاد من أن الإسكندر حين دخل مصر – فى ٣٣٢ ق.م. – وقرر زيارة وحى آمون فى سـيوة. قام فى نفس الوقت برحلة فى النيل جنوب مصر مع جزء من قواته[١٦٦]. وربما جاء هــذا الإعــتقاد أيضاً من اعتزام الإسكندر بعد عودته من سيوة القيام برحلة جنوبية ، فيخبرنا "كوينــتوس كورتــيوس" – كاتب من أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية – "إن الإسكندر بعد عــودته مـــن ســـيوة وشـــروعه فى بناء مدينة الإسكندرية تملكته رغبة لم يكن الوقت مناسباً لتنفــيذها ، وهى القيام برحلة جنوب مصر وأيضاً فى إثيوبيا حيث كان متلهفاً لرؤية آثار مصر القديمـــة[١٦٧]، لكن لم يرد ذكر بأن الإسكندر قد فعل هذا ، أو أن زيارته لنبوءة آمون كانت لها علاقة بالنيل[١٦٨].

وقــد اعتقد الإسكندر عندما شاهد التماسيح في نهر السند أنه يتصل بالنيل الذي يوجد بـــه نفــس الحــيوان[١٦٩] ، لكنه عرف أن نهر السند يصب في البحر الأحمر (المحيط الهندي) بفرعين (اكتشفهما الإسكندر عام ٣٢٥ق.م.)[١٧٠] ، ثم أبحر بعد ذلك في المحيط الهندي وأثبت أن السند والنيل غير مرتبطين.[١٧١] وفي هذا الصدد يقول استرابون :"إن الإسكندر عندما رأى التماســيح في نهر "هيداسبيس" ونبات الفول المصري عند نهر "أكيسينيس" (وهما فرعان من فــروع الســـند) اعتقد أنه اكتشف منابع النيل وفكر في تجهيز أسطول لإرسال حملة معتقداً أنه سيســـتطيع الإبحـــار مـــن هناك حتى النيل ، لكنه عرف أنه لن يستطيع إنجاز ما خطط له لأن المحيط يفصـــل بـــين هـــذه الأنهار ، وأن هذا المحيط تصب فيه كل أنهار الهند وأنه يجري بعد ذلك عبر أريانا وفارس والخلجان العربية وبلاد العرب نفسها وبلاد التروجلوديتيس (شرق أفريقيا) .[١٧٢]

وذكر استرابون أيضاً أن نيارخوس Nearchus – قائد جيش الإسكندر في حملته على الهـــند عـــام ٣٢٧ق.م. – قـــال : "أنه فيما يختص بأسباب فيضان النيل فإن هذا السؤال يمكن الإجابـــة علـــيه قياساً بما حدث لأنهار الهند لأنها تتشابه في ذلك حيث أن سبب الفيضان فيها جميعاً هي الأمطار الصيفية .[١٧٣]

ويمكنـــنا أن نتصور حماس الإسكندر عندما ظن أنه اكتشف منابع النيل ، فسرعان ما وضـــع نظـــرية تفسر هذه الملاحظات ، إنتهى فيها إلى أن النيل ينبع في تلك الأقاليم من الهند باســـم السند ويسير بعد ذلك مسافة شاسعة من الصحراء حيث لا يُعرف الاسم الأصلي ثم يطلق علـــيه الإيثوبيون والمصريون اسم النيل عندما يصل مجراه إلى البلاد الآهلة بالسكان مرة ثانية ، حتـــى يصـــب آخر الأمر في البحر المتوسط عند ذلك لم يتمالك الإسكندر نفسه من الفرح لما

حسـبه حلاً نهائياً للغز النيل فاندفع يكتب عن اكتشافه في خطاب لوالدته "أوليمبياس" وقبل أن يبعث بالخطاب أمر بحذف هذه الفقرة عن النيل بعد أن علم الحقيقة بأن السند يصب في المحيط الهندي وليس له صلة بمصر .(١٧٤)

ومــع بدايــة العصر الهلّينستي وتأسيس الإغريق للحكم البطلمي في مصر عام ٣٢٣ ق.م. بعـد وفاة الإسكندر الأكبر بدأ عصر جديد في مجال الكشوف في النيل ، وجدير بالذكر أن الـبطالمة قد أتخذوا للنيل طريقاً غير الطريق المألوفة والتي كان يتم خلالها تتبع مجرى النهر مـن الشـمال إلى الجنوب ، فقد وجدوا أن الطريق الطبيعي للوصول إلى المناطق الداخلية من أفـريقيا جنوب مصر ، والتي تمتد من النيل تجاه الشرق ، هو البحر الأحمر وعبر هذا الطريق اندفـع البطالمة مبحرين في النيل. وقد كانت عملية صيد الفيلة بدون شك هي العامل الذي فتح الطـريق أمامهم إلى النيل ، إلى جانب أن البعثات التجارية الكشفية التي أرسلها ملوك البطالمة إلـى شرق أفريقيا والتي تمت عن طريق البحر الأحمر قد سهلت لهم معرفة النيل ومجراه حتى مسافات بعيدة جنوباً .(١٧٥)

وفـي هـذا المجـال يرجع الفضل إلى بطلميوس الثاني الذي نسب إليه تأسيس عدة محطـات تجاريـة علـى سـاحل البحر الأحمر لتتم منها إدارة عمليات صيد الفيلة من الأقاليم الداخلـية ، وقـد فتحت هذه المحطات طريقاً تجارياً للداخل وصل حتى ميروى على النيل عند الشلال السادس(١٧٦) ، وكان أهمها ميناء "بطوليمايس" ، وهناك محطة أخرى هامة تم تأسيسها وهـي "أدولـيس" (عدول قرب مصوع الحالية)، ويقول بلينيوس عن هذه المحطة أو الميناء : "أنهـا كانـت تسـمى مدينة الأحرار أو المحررين ، لأن الذي أسسها عبيد من مصر فروا من أسـيادهم ، وذكـر أن بها مركز تجاري للتروجوديتيس والإثيوبيين وأنها تقع على بعد يومين إبحـار مـن ميناء بطوليميس ، وذكر أن هذه الشعوب كانت تأتي إليها بكميات كبيرة من العاج وقرون الكركدن وجلد فرس النهر ومحار السلحفاة والقرود والعبيد.(١٧٧) وكان من الطبيعي أن تمر هذه الطرق التجارية التي بدأت من هذه المحطات على الساحل بمنطقة إلتقاء فروع النيل ، التـي أطلـق علـيها اسـترابون اسم "أستاسوباس" Astasopas (النيل الأبيض) ، "أستابوس" Astapus (النـيل الأزرق) ، "أستابوراس" Astapuras (العطبرة)، بالنيل الرئيسي(١٧٨)، وأن تمر هـذه الطرق أيضاً بالمرتفعات الإثيوبية.(١٧٩) وبدأت من ذلك الحين تتردد شائعات عن فيضان النيل مـن هذه المرتفعات فيقول استرابون : "أنه أمكن ملاحظة أن مجرى النيل يمتلئ بالأمطار التي تسقط صيفاً وتفيض المياه فتغمر إثيوبيا وخاصة منطقة المرتفعات البعيدة ، وأنه عندما يتوقف سقوط المطر يتوقف الفيضان .(١٨٠)

ومـن العوامل التي سهلت للبطالمة التوغل في النيل جنوباً ومعرفة حقائق أكثر عنه ، الرحلات التي أرسلت في عهد بطلميوس الثاني إلى إثيوبيا ، وتجدر الإشارة إلى أن الإغريق لم

يذهبوا قبل عصر بطلميوس الثاني إلى إثيوبيا أو حتى بعد حدود مصر الجنوبية ، فكان هذا الملك أول من اخترق تلك الحدود وأرسل حملة إلى إثيوبيا اتخذت طريق النيل وكانت بقيادة "ديموسثينيس" Dimosthenes قائد القوات البحرية في عهد فيلادلفوس ، ووصلت هذه الحملة حتى ميروي واستطاع ديموسثينيس أن يحدد المسافة من أسوان إلى هناك.(١٨١) ويبدو أن هذه الحملة كانت بغرض الكشف فقط لأنه لم ينتج عنها أي ضم لأراض جديدة بعد الحدود المصرية.

ويقول ديودوروس أنه منذ ذلك الحين فصاعداً أصبحت لدى الإغريق معرفة دقيقة بإثيوبيا(١٨٢) ، ولا شك أن ذلك قد حث فيلادلفوس على إرسال مزيد من الرحلات إلى هناك اتخذ جميعها الطريق المباشر عبر النيل ، وكانت أهم هذه الرحلات تلك التي قام بها كل من "داليون" الذي أبحر في النيل بعد ميروي ، و"أريستوكريون" و"بيون" وبازيليس وسيمونيديس الذي استقر في ميروي لمدة خمس سنوات وألف كتاباً عن إثيوبيا(١٨٣) لكن التقارير التي أتي بها المكتشفون في عهد فيلادلفوس كانت بحاجة لكثير من التفصيل والتأكد من صحة ما رود بها ، ومع توالي الرحلات التي بعث بها ملوك البطالمة منذ نهاية القرن الثالث وحتى القرن الثاني ق.م. إلى بلاد الصومال ، وكذلك الرحلات الخاصة بصيد الفيلة ، تأكد لهم مدى صحة ما ورد بهذه التقارير ، اعرف الإغريق منطقة الثنية الكبرى للنيل بين أسوان وميروى ، واكتشفوا النهر خلالها ، وعرفوا كذلك جزيرة ميروي التي كونها المجرى الرئيسي للنيل والعطبرة ، وعرفوا أيضاً الكثير عن طبيعة النيل الأزرق والنيل الأبيض قبل التقائه بالسوباط ، وتأكدت أيضاً صحة ما قيل عن أعالي العطبرة ومنابعه الآتية من فوق المرتفعات الإثيوبية ثم من بحيرة تانا ، وفي هذا الصدد يقول استرابون : "إنه من ميناء بطوليمايس ولمسافة للداخل يصب فرع من نهر أستابوراس (العطبرة) كما كان يسمى ، والذي تأتي منابعه من بحيرة ، وأنه يصب جزء من مياهه لكنه يتصل بالنيل الرئيسي في جزء كبير منه .(١٨٤)

وهذه البحيرة التي أشار إليها استرابون هي التي أُطلق عليها في موضع آخر اسم بحيرة "بسيبو" Psebo (تانا).(١٨٥) وتأكدت بذلك صحة الشائعات عن أنه من هذه المرتفعات تأتي منابع النيل الأزرق ، وأن هذه المياه التي تسبب الفيضان مصدرها الأمطار التي تسقط على مرتفعات إثيوبيا ، التي قيل أنه يمكن رؤيتها من البحر الأحمر(١٨٦) ، وكان المقصود بهذه المرتفعات جبال كينيا وكيليمنجارو ، وهذه الجبال يمكن رؤيتها بالفعل من البحر الأحمر ، وقممها مغطاه بالثلوج التي تكونت بسبب الأمطار ، ويحدث أنه بعد ذوبان هذه الثلوج تندفع المياه منهمرة لتغذي بحيرة تانا : الخزان الرئيسي للنيل الأزرق ، وقد أطلق على هذه المرتفعات اسم جبال القمر ، ربما نسبة لقمر السماء وذلك لشدة بياض قممها التي تتوجها الثلوج .(١٨٧)

وعن هذه النظرية الخاصة بفيضان النيل بسبب ذوبان الجليد من فوق المرتفعات الإثيوبية ذكر ديودوروس أن فيلسوف الطبيعة "أناكساجوراس" (القرن الخامس ق.م.) أعلن أن

سبب فيضان النيل هو ذوبان الجليد في إثيوبيا ووافقه في ذلك تلميذه "يوربيديس" Euripides[١٨٨] لكن ديودوروس عارض هذا الرأي وقال فيما معناه أن الحرارة الشديدة في هذا النطاق تجعل من المستحيل سقوط الجليد في إثيوبيا ، وحتى إذا قبلنا هذا الرأي فإن ما يناقضه هو أن كل نهر يفيض بسبب ذوبان الجليد يأتي منه هواء بارد ، لكن النيل هو النهر الوحيد الذي لا يندفع من هذا الهواء .[١٨٩]

وتجدر الإشارة إلى أن ما وصل إليه الإغريق من هذه المعرفة بنهر النيل في ذلك الوقت لم يكن فقط نتيجة للرحلات التي قام بها البطالمة في مصر ، لكن أيضاً مما سمعوه عن النيل سواء من المصريين أو من الشعوب التي كانوا على اتصال بها في الجنوب ، فقد وصلهم الكثير مما كتبه المؤرخ وكاتب الحوليات المصري "مانيتون" الذي عاش أيام البطالمة الأوائل ، وقد دون مانيتون ملاحظاته عن هذا الموضوع من واقع التقارير المصرية القديمة ، ووردت هذه التقارير أيضاً من العالم الجغرافي الإغريقي "إراتوستينيس"* ونقلها عنه استرابون[١٩٠] ، كذلك فإن الحضارة الميروية ، التي كان أصحابها على اتصال بالبطالمة في الشمال، قد انتشرت بكل مقوماتها المادية والثقافية على الأقل ابتداء من النيل الأبيض إلى الشمال، فنقل عنهم البطالمة كل ما عرفوه خاصة عن أعالي النيل.[١٩١]

وجدير بالذكر أن اكتشاف البطالمة لمنابع النيل الأزرق اختفت أخباره ردحاً طويلاً من الزمن ولم يُسمع عنه شئ إلا حين قام "ديوجينيس" – الملاح والمكتشف الإغريقي – برحلته في القرن الأول الميلادي ، ولم تكن هناك رحلات كشفية في عهد ملوك البطالمة المتأخرين وحتى

---

* عالم جغرافى وعالم رياضيات من مدينة قورينى الليبية الإغريقية عاش فيما بين ٢٧٥-١٩٤ق.م ، ويعد من أهم الجغرافيين فى العالم القديم ، وضع كتاباً ضخماً عن التاريخ لم تصلنا منه غير شذرات ، وفى الجغرافيا كتب "قياس أبعاد الأرض" و"علم الجغرافيا" وعرفنا عنه من استرابون . وقد شغل إراتوستينيس منصب أمين مكتبة الإسكندرية ، وفى تلك الأثناء استطاع أن يحصل لبطليموس الثالث على النسخة الأثينية الرسمية لأعمال التراجيديين الثلاثة لتكون ضمن مقتنيات المكتبة ، واستحق الخلود لاسمه بفضل عدد من الإنجازات العلمية فى مجالات متعددة ومتباينة مثل الشعر والفلسفة والنقد الأدبى والجغرافيا والفلك والرياضيات والتأريخ العلمى وغيرها . لكن لاشك أن أعظم إنجازاته كانت فى مجال الجغرافيا وذلك بسبب محاولته الرائدة لقياس محيط الكرة الأرضية بشكل أقرب للواقع ، وبسبب محاولته تحديد المسافة بين المواقع المختلفة وتحديد مواقعها بالنسبة لخطوط الطول والعرض فى كتابه "قياسات الأرض" وقد أظهر فى عمله الكبير "الجغرافيا" أنه كان ملماً بكل التاريخ السابق لعلم الجغرافيا وعلمائه لذين وصلت أعمالهم الإسكندرية ، وقد وصف لنا استرابون كيف أن إراتوستينيس اعتمد على المادة العلمية المكدسة فى المكتبة وأنه أسس دراساته على معلومات مستمدة من تقارير أولئك الرجال الذين عاينوا تلك المناطق ، وأحاط بكثير من تقارير المستكشفين التى كانت متوفرة فى المكتبة الكبرى ، ونتيجة لهذا المسح العلمى رأى ضرورة القيام بمراجعة شاملة للخريطة الجغرافية السابقة .
Strabo : 2.1.1-6 .

العصر الروماني جنوباً سواء في النيل أو عبر الطريق البري ، فلم يصل الإغريق إلى أبعد من الحدود التي عرفوها سالفاً ، ولم يصلوا إلى معرفة منابع النيل من البحيرات الاستوائية .(١٩٢)

ولعل السبب في توقف جهود البطالمة في مجال الكشوف في النيل يتضح فيما ذكره ديودوروس الصقلي من أن الرحلات في النيل جنوباً كانت مكلفة وخطرة بسبب الشلالات والمرتفعات على جانبيها ، والرحلة من بلاد التروجلوديتيس(١٩٣) حتى أقصى إثيوبيا ، وعلى طول مسافة تقدر بخمسة آلاف وخمسمائة أستادياً ، صعبة وملكفة سواء بطريق النيل أو بالطريق البري ، أما ناحية الغرب فالأرض يحدوها النهر – يقصد فروع النيل – أو الصحراء أو المستنقعات.(١٩٤) ويشير استرابون في أكثر من موضع إلى أن الإغريق لم يستطيعوا الوصول إلى أبعد من الحدود التي عرفوها من إثيوبيا وبلاد الصومال ، وأن هذه المناطق كان يمكن الوصول إليها براً .(١٩٥)

نستنتج من ذلك أن البطالمة لم يكلفوا أنفسهم عناء القيام بجهود كشفية في النيل أكثر مما قاموا به ، لأن الجهات التي عرفوها جنوب مصر كان يمكن الوصول إليها عن طريق البر، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على حالة التدهور الاقتصادي الذي عانت منه الدولة البطلمية في مصر في عهدها الأخير ، والإفلاس الذي تعرضت له نتيجة إنصراف ملوكها الأواخر لحياة البذخ والترف وتبديد أموال الدولة . وانصرافهم عن كل ماله علاقة بتنمية المعارف والعلوم ، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هناك محاولات من قبل علماء الإغريق ، وإن كانت من الناحية النظرية فقط ، لتفسير أسباب فيضان النيل ، وإذا كانت هذه النظريات لم تصل لرأي قاطع أو صحيح إلا أنها كانت الأساس الذي ارتكز عليه المكتشفون فيما بعد . وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة التي وردت عند كل من استرابون وديودوروس حول هذا الموضوع .

يقول استرابون : "إن بوليبيوس – القرن الثاني ق.م.– صرح بأن المنطقة المأهولة جنوب خط الاستواء هي أكثر المناطق ارتفاعاً (يقصد عن سطح الكرة الأرضية) ، لكن "بوسيدونيوس" – القرن الثاني ق.م. – اعترض على هذا القول وذكر أنه لا يمكن أن تكون هناك منطقة مرتفعة عن سطح الكرة الأرضية لأن هذا السطح متشابه في كل مكان ، وأن المنطقة الواقعة جنوب خط الاستواء غير جبلية، وإن لم تكن مستوية فهي تقريباً على نفس مستوى سطح البحر ، وأن الأمطار التي تسبب فيضان النيل تأتي من مرتفعات إثيوبيا . وعلى الرغم من أن "بوسيدونيوس" يعبر عن رأيه في هذه الفقرة إلا أنه يسلم بوجهة نظر بوليبيوس في فقرات أخرى ، ويقول أنه يظن في وجود مرتفعات جنوب خط الاستواء ، وأن السحب الآتية من النطاقين المعتدلين (يقصد من الشمال والجنوب) تصطدم بهذه المرتفعات تسبب سقوط الأمطار .(١٩٦)

أما ديودوروس فذكر : "أن النيل يجري من الجنوب للشمال وأن منابعه تأتي من مناطق غير معروفة لإنها تقع في الصحراء في آخر حدود إثيوبيا في بلاد لا يمكن الوصول

إلـيها بسـبب الحرارة الشديدة(١٩٧) ، ويذكر في موضع آخر : "أنه فيما يتعلق بمنابع النيل فلا يوجد أحد حتى وقت كتابة هذا التاريخ أكد أنه رآها ، أو حتى قرر أنه سمع من أحد أنه رآها ، وحـل هذه المشكلة هو من قبيل الظن ، فعلى سبيل المثال : عندما أعلن الكهنة المصريون أن النـيل ينبع من المحيط الذي يلتف حول العالم المعمور لم يكن هناك رد فعل لهذه النظرية لأنها كانـت محاولـة لحل مسألة شائكة أخرى تحتاج لدليل ، ومن ناحية أخرى فإن التروجوديتيس الذين يعرفون باسم "بُلجيوي" Bolgioi والذين هاجروا من داخل أفريقيا بسبب الحرارة قالوا أن هناك عدة ظواهر تتصل بهذه المناطق يمكن منها استنتاج أن النيل يأتي بمياهه من عدة مصادر تتجمع في مكان واحد وأن ذلك هو السبب الذي جعله أكثر الأنهار المعروفة فيضاناً ، لكن سكان المـنطقة المجاورة لجزيرة ميروي والذين يتفق معهم الكثيرون لم يقحموا أنفسهم في محاولة البحث عن الأسباب التي تتفق مع ما هو مقبول بهذا الخصوص ، على الرغم من كونهم أقرب الـذين يسـكنون من المناطق موضوع المناقشة ، ولم يذكروا أي شئ محدد عن هذه المشاكل حتى أنهم أطلقوا على النهر (النيل) اسم "استابوس" ويعني باليونانية المياه أو النهر القادم من المجهول ."(١٩٨)

ويقـول ديـودوروس : "أن أقرب ما قيل للحقيقة عن منابع النيل وأسباب فيضانه ما ذكـره "أجاثارخيديس"* حيث يقول : تسقط الأمطار من كل عام بشكل متواصل فوق المرتفعات الإثيوبـية مـن الصيف إلى الخريف . لذا فإن المتوقع هو أن تزيد كمية المياه في النيل صيفاً بسبب هذه الأمطار وأن تقل في الشتاء لأن النيل يستمد مياهه (في هذا الفصل) من منابعه فقط ، ولمـا كان أحد لم يستطع حتى ذلك الوقت تحديد أسباب فيضان مياه النيل فإن "أجاثارخيديس" Agatharchides يـرى أنـه من غير اللائق رفض نظريته لأن الطبيعة بها العديد من الظواهر المتناقضة وأسبابها تكون أبعد من أن نكتشفها قدرات الإنسان" .(١٩٩)

فـي هذه الفقرة لم يشر ديودوروس إلى ماقصده أجاثارخيديس بمنابع النيل حين ذكر أنـه يسـتمد مياهه فى الشتاء من منابعه فقط، ويفيض فى فصل الصيف بسبب سقوط الأمطار فـوق المرتفعات الإثيوبية، ويبدو أن ديودوروس كان متحفظاً فى رأيه خاصة فيما تعلق بمنابع النـيل لأنه كرر فى أكثر من موضع أن منابعه غير معروفة وأن أحداً لم يرها ولم يسمع عنها، وهو فى نفس الوقت لم يتفق مع أى من الذين حاولوا تفسير هذه الظاهرة ورأى أن كل نظرية

---

* مؤرخ وجغرافى إغريقى سكندرى من القرن الثانى ق.م . وكان مرشداً للملك بطليموس التاسع "سوتير الثانى" (١١٦-١٠٧ق.م) ونقل عنه ديودوروس الصقلى الكثير ، وتناول فى كتابه الثالث من مؤلفه عملية صيد الفيلة ، وأصل تسمية البحر الأحمر والإثيوبيين ومناجم الذهب على الحدود المصـرية الإثيوبـية ، والشـعوب والحيوانات غرب البحر الأحمر ، وأسباب فيضان النيل فى الصيف ، والعرب خاصة السبئيين .

لاتـزال تحـتاج لدليل، فذكر مثلاً : "أن ما قاله هيرودوتوس من أن النيل ينبع من بحيرة فى الأرض ثـم يجرى عبر إثيوبيا لايستند لدليل" [٢٠٠]. وخلص ديودوروس إلى أن اللغز بقى بغير حـل وانتهـى التساؤل حسب عبارته "إلى ضرب من الظن أو الاجتهادات النظرية" [٢٠١].

مما سبق يتضح أنه حتى القرن الأول ق.م. لم يمكن التوصل سواء من الناحية العملية أو النظرية إلى معرفة دقيقة بتفسير أسباب فيضان النيل ومنابعه.

وإذا كـان المكتشـفون فى عهد البطالمة قد توصلوا إلى أن أسباب فيضان النيل، هى الأمطـار التى تسقط فوق المرتفعات الإثيوبية ، فإن محاولات المفكرين الإغريق فيما بعد أكدت هذه النظرية، لكن الحقيقة أن هذا الرأى يخص المنابع التى يأتى منها النيل الأزرق بمياهه. أما مـنابع النيل الرئيسية والبعيدة من البحيرات الإستوائية لم يُسمع عنها حتى ذلك الوقت. وكان أقرب تفسير للواقع هو ما ذكره ديودوروس عن التروجوديتيس ، الذين استنتجوا أن النيل يأتى بمـياهه من عدة مصادر تتجمع فى مكان واحد، وإن كان لم يرد ذكر لهذه المصادر وأين توجد أو إن المقصـود بها المنابع البعيدة أم القريبة ، لكن يبدو أن ما قيل سلفاً عن النيل وما تم فيه من كشوف قد وضع موضع الإعتبار من قبل من حاولوا فيما بعد خوض هذا المجال، ولاشك أن هـؤلاء قـد أعـتمدوا علـى الجهود السابقة والتى كان لها تأثير مباشر وغير مباشر فيما تم التوصل إليه من حقائق.

وإذا مـا انتقلـنا إلى عصر الرومان وجدنا أن جهودهم الكشفية فى النيل ارتبطت كما كـان الحـال فـى عهـد البطالمة بنشاطهم التجارى والسياسى فى الجنوب وبالتالى لم تختلف اهـتماماتهم عـن اهـتمامات البطالمة المتأخرين من حيث تنمية التجارة المصرية مع الأقاليم الجنوبـية [٢٠٢]. فمـع بدايـة الإحـتلال الرومانى لمصر فى نهاية القرن الأول ق.م. كان على الرومان تأمين حدود مصر من خطر الممالك القوية فى الجنوب وتهديدها ، وكان أهمها مملكة إثيوبيا الجنوبية (فى النوبة العليا) التى كانت تحكمها فى ذلك الوقت الملكات وقد اتبعت الحكومة الـرومانية فـى هذا الصدد سياسة عقد الاتفاقيات التى تضمن للطرفين حسن الجوار واستتباب الأمـن علـى الحـدود [٢٠٣]، ولمـا كانت سياسة الود هذه تفشل أحياناً فقد تطلب الأمر إرسال الـرومان لحمـلات، تأديبـية علـى الحدود اضطرت فى بعض الأحيان إلى التوغل أكثر ناحية الجـنوب [٢٠٤]. وكان الممر الطبيعى لها هو النيل ، لذا وجه الرومان اهتمامهم لاكتشافه والقيام بعمليات المسح التى تمكنهم من معرفة المناطق الصالحة للملاحة فيه [٢٠٥].

وكانت الحملات التى حررها الرومان ضد ممالك إثيوبيا ذات هدف مزدوج: عسكرى وكشفى وأهمهـا الحملـة التى أرسلها الإمبراطور أغسطس عام ٢٥ ق.م. بقيادة "جايوس بترونيوس" والى مصـر ، ضـد ملكـة الإثيوبيين "كانداكى" التى أغارت بقواتها على حدود مصر الجنوبية [٢٠٦]. ونجح بيترونيوس فى مطاردة قواتها حتى مدينة "نباتا" – عاصمة الإثيوبيين عند الشلال الرابع

– واستولى فى طريقه على عدد من المدن الإثيوبية على النيل كان أولها من الشمال كما ذكر بلينيوس : مدينة "بسيلكيس" (دكا الحالية جنوب أسوان) وآخرها قبل نباتا مدينة تسمى "ستاديسّيس" Stadissis [٢٠٧]. وقيل أن بترونيوس قد قام إلى جانب العمل العسكرى بعمل مسح لمجرى النيل واختباره للملاحة حتى نباتا [٢٠٨]، وأنه فى المنطقة ما بين كورسكو وأبو حمد اتخذ طريقاً عبر الصحراء حتى يتفادى ثنية النيل الكبرى هناك [٢٠٩]، وحين وصل بترونيوس نباتا قرر أنه توجد بعدها مناطق من الصعب اجتيازها. لذا لم يتقدم بعدها وعاد منها إلى مصر [٢١٠]. وعلى الرغم من أن هذه الحرب بين الرومان والإثيوبيين قد انتهت عام ٢١ ق.م. بإقرار منطقة عسكرية فاصلة بين الطرفين تقع بين أسوان و"هييراسيكامينوس" Hiera sykaminus بالقرب من "بسيلكيس" (المحرقة) إلا أن الرومان واصلوا عمليات المسح فى النيل بعد تلك الحدود [٢١١].

أما أهم الجهود التى قام بها الرومان لكشف مجرى النيل ومنابعه كانت البعثة التى أرسلها الإمبراطور نيرون Clauduis Nero (٥٤–٦٨م) لهذا الغرض ، وهذه البعثة كانت جزء من حملته على إثيوبيا عام ٦٦م ، وكانت ذات أهداف متعددة : كشفية وحربية وتجارية، لأن نيرون كان يريد اكتشاف هذه البلاد تمهيداً لإخضاعها وطمعاً فى الثروات التى كانت ترد منها، وأهمها : الذهب والحيوانات الغريبة ، اذا فإن نيرون قرر أن يرسل فى البداية جزء صغير من قواته فى بعثة لاستكشاف هذه البلاد واكتشاف الطريق إليها، والتعرف على مدى ما يمكن الحصول عليه من غنائم منها ، ودراسة أحوالها تمهيداً لغزوها إذا ما تبين أن الأمر يستحق ، ولما كان النيل هو الطريق إلى بلاد الإثيوبيين ، ولما كانت منابعه هى هدف كل من قام بكشوف فيه ، فإن نيرون اغتنم الفرصة وطلب من البعثة الاستكشافية ، التى كان قوامها قوات من الحرس البرايتورى الخاص بالامبراطور، الابحار فى النيل حتى أقصاه للوصول إلى منابعه[٢١٢].

وقد وردت أخبار هذه البعثة عند كل من بلينيوس وسنيكا (٤ ق.م.–٦٥م) معلم نيرون وصديقه، أما بلينيوس فذكر أن البعثة وصلت حتى أراضى مملكة ميروى عند الشلال السادس، وهناك سجل أعضاؤها وصفاً دقيقاً للمنطقة وأحوالها، وفى هذا الصدد يقول بلينيوس : "أرسل الإمبراطور نيرون قوة كشفية من الحرس البرايتورى بقيادة "تريبون" لاكتشاف هذه البلاد (ميروى) عندما اعتزم شن حرب ضمن حروبه ضد إثيوبيا وقررت البعثة أنها لم تجد هناك شئ سوى الصحراء ، وأن المدن الموجودة على الطريق حتى ميروى قد اختفت الآن ولم يبق منها شئ على ضفتى النيل [٢١٣].

فى هذه الفقرة يشير بلينيوس أولاً إلى اتخاذ الإمبراطور نيرون سياسة مخالفة لسياسة غيره من الأباطرة السابقين تجاه الإثيوبيين ، فإذا كانت مسألة الغزو والإحتلال لم ترد فى سياسة هؤلاء التى غلب عليها طابع السلام وإقامة علاقات الود والصداقة وعقد الإتفاقيات

مع ملوك الإثيوبيين والإكتفاء بتأمين الحدود وسياسة حسن الجوار ، فإن هذه السياسة اتخذت طـريقاً مخـتلفاً حين أظهرت أطماعاً رومانية لضم الممالك الإثيوبية فى الجنوب إلى ممتلكات الرومان[٢١٤]. أما ما ذكره بيلينوس من أن البعثة حين وصلت أراضى مملكة ميروى قررت أنها لـم تجـد سوى صحراء، وأن المدن الإثيوبية التى ازدهرت قديماً على ضفتى النيل قد اختفت الآن، فـربما يذكـرنا ذلـك بما لحق بهذه المملكة من جراء الحملات التى شنها الرومان ضد ملـوكها وضـربو فـى أثنائها مدناً كثيرة للإثيوبيين مثلما فعل جايوس بترونيوس فى حملته السـالفة الذكر، لكن بلينيوس لم يشر إلى شئ من هذا ، بل أنه ذكر أن جيوش الرومان لم تكن السـبب فى الخراب الذى حل بهذه البلاد ، والسبب هو أنها مرت بفترات متعاقبة من الحروب مع مصر أنهكتها وأوصلتها لتلك الحالة[٢١٥].

والواقـع أنه فى ذلك الوقت كانت القبائل الصحراوية على جانبى النيل قد بدأت تهاجم مملكـة ميـروى وتحـاول تقويضـها[٢١٦]، ومـن هذه القبائل كان "البلميين" و"الميجابارى" و"الـنوباى"[٢١٧]. وبدأ بالفعل نوع من الإنهيار والدمار يحل بالمملكة ، ومما ينهض دليلاً على صـحة هـذا القول ما ذكره بلينيوس عن هذه البعثة فقال : "إن التقرير الذى قدمته البعثة التى أرسلها الإمبراطور نيرون لاكتشاف إثيوبيا أوضح أنه على مسافة ألف وتسعمائة وتسع وستين ميل من سييني (أسوان) على حدود الإمبراطوية الإثيوبية (شمالاً) وحتى ميروى (جنوباً) ، يندر وجود أشجار ، فلا توجد سوى أشجار نخيل جرداء [٢١٨]، كذلك فإن قائمة أسماء المدن الواردة عند بطلميوس الجغرافى، فى تاريخ لاحق، لم تتضمن إلا عدداً قليلاً من المدن بعد ميروى[٢١٩].

ومما ورد عند بلينيوس أيضاً عن هذه البعثة ما ذكره بأن أعضاء البعثة قد سجلوا فى تقريـر واف تفاصـيل كاملـة لمجرى النيل حتى جزيرة ومدينة ميروى ، وأنهم وضعوا بهذا التقرير حداً للتناقض الذى وقع فيه كثير من الذين زاروا المنطقة سواء بهدف الكشف أو البحث العلمى خاصة فيما تعلق بتحديد المسافات[٢٢٠].

علـى الـرغم مـن أن بلينيوس لم يذكر شيئاً عن تقرير البعثة عن منابع النيل، وهو ماورد عند سنيكا . إلا أن ما ذكره أوضح أن البعثة قامت بعمل مسح شامل ودقيق لمجرى النيل مـن أسـوان حتـى ميـروى وقامت بقياس دقيق للمسافات بعد أن تعذر ذلك من قبل كما ذكر بلينيوس ، وحددت العديد من المدن والجزر الواقعة على ضفتى النيل . وأشار تقرير البعثة كما أورده بلينـيوس إلى بعض الموارد الطبيعية التى أمكن تعيينها فى تلك الجهات. لكن التقرير لم يذكـر شـيئاً عن ثنية النيل فى المنطقة ما بين بسيلكيس (دكا) وبريمنيس (قصر ابريم) ، ولم تسـجل البعثة المدن الواقعة على النيل فى هذه المنطقة ، ويبدو أن أعضاءها تفادوا هذه الثنية واتخذوا بدلاً منها طريق الصحراء المعروف[٢٢١]، أما عن منابع النيل فقد لخص بلينيوس رأيه فـى هـذه المسـألة بقوله :"إن النيل ينبع من مصادر غير مؤكدة جارياً عبر الصحراء الحارة

لمسافة طويلة غير محددة ، واكتشافه يتم بالطرق السلمية لا بالحروب التى تم بها اكتشاف كل الأجزاء الأخرى من العالم(٢٢٢).

أمــا سنيكا فقد تحدث مع بعض أعضاء هذه البعثة وعرف منهم أنهم ذهبوا فى النيل بعيداً حتى أوقفتهم عقبة حالت دون تقدمهم إلى نقطة أبعد ، وأشار إلى النظرية التى تقول : إن النـيل ينبع من الأرض وأنه يأتى بمياهه من تفجر المياه من باطن الأرض وليس من الأمطار. وقد كتب سنيكا ما سمعه من أعضاء البعثة فى أسلوب لا يخلو من مدح الإمبراطور.(٢٢٣) ومن الـنص يتضـح أن بعثة نيرون قد عادت دون أن تقرر على نحو مؤكد أين توجد منابع النيل ، ويتضـح أيضاً أن أعضاء البعثة قد توغلوا في النيل لمسافة بعيدة لم يصل إليها من قبل أياً من الإغـريق أو الرومان أو المصريين . فقد أحضر هؤلاء المكتشفون معهم نماذج ذات قيمة من سلع التجارة الأفريقية، منها على سبيل المثال: الأبنوس الذي يوجد في أقليم وسط أفريقيا.(٢٢٤)

أما المستنقعات الضخمة التي ذكرها أعضاء البعثة – كما ورد بالنص – فلم تكن سوى المستنقعات التي كونتها السدود النباتية على النيل الأبيض شمال نهر السوباط(٢٢٥) ، وما ذكره المكتشـفون من أنهم رأوا صخرتين تتدفق منهما كمية هائلة من مياه النهر ، فلا يمكن تفسير ذلـك إلا إذا كانوا قد سمعوا عن شلالات فولا (شمال أوغندا) ، أما كونهم قد رأو هذه الشلالات فهو أمر بعيد الاحتمال ، أولاً : لأن المسافة المفهوم ضمناً أنهم قطعوها لا تناسب وصولهم إلى هـناك ، ثانـياً : وجـود منطقة السدود التي كان من الصعب عليهم اجتيازها حتى يصلوا هذه الشـلالات ، والشـئ المؤكد هو أن أبعد منطقة وصلوا إليها هي منطقة المستنقعات أو السدود على النيل الأبيض .(٢٢٦)

وقـد دفـع ذلـك الـبعض إلى الاعتقاد وقتها بأن بعثة نيرون قد عادت من هذا المكان لأن أعضـاءها اكتشـفوا منابع النيل هناك . ويقول بلينيوس في هذا الصدد ، أن بعض الكتاب ذكروا جنس مـن الأقـزام يعيش حول المستنقعات التي ينبع منها النيل.(٢٢٧) وفي نهاية النص عبّر سينكا عن رأيه الشخصـي بخصـوص منابع النيل فقال : "سواء كان ما قررته البعثة من أن النيل ينبع من صخرتين تتدفق منهما المياه حقيقي أم لا ، فإنه يرى أن النيل ينبع من تفجر المياه من باطن الأرض (وليس من مـياه الأمطـار كمـا كان الإعتقاد السائد) هذا الرأي في الواقع عكس تأثره الواضح في هذا الموضوع بالنظرية المصرية القديمة عن منابع النيل كما ذكرها هيرودوتوس .

هـناك ملاحظـة أخيرة على نص سنيكا تعكس وجهة نظره الشخصية أيضاً ، لكن في حقـيقة الهـدف الذي من أجله أرسل الإمبرطور نيرون هذه البعثة فسنيكا يرى أنها كانت بعثة كشـفية سـلمية على عكس ما ذكره بلينيوس ولم يذكر شيئاً عن حرب كان نيرون يعتزم شنها ضـد الإثيوبيـين ، وكـل ما ذكره أن نيرون كان محباً للحقيقة ، وأن حبه للمعرفة إلى جانب فضائله الأخرى ، كان الدافع لتفكيره في هذا العمل. وبغض النظر عن فضائل نيرون أو رذائله

فمـــن الواضح أن البعثةكانت سلمية لأن نيرون إذا كان قد اعتزم الإعداد لحرب ضد إثيوبيا فلن تكـــون هذه الحرب عن طريق بعثة كشفية ، وربما أنها كانت فكرة ولم تنفذ . أو لعل ما أنتهت إلـــيه البعثة وتقريرها غير المشجع على غزو هذه البلاد التي كانت في طريقها إلى الإنهيار كما أخبـــرنا بلينيوس قد سبب إحباطاً تراجع معه نيرون عن خوض هذه الحرب. وجدير بالذكر أنه خـــلال تلـــك الفتـــرة ما بين بعثة نيرون والعصر الذي كتب فيه بطلميوس كتابه عن الجغرافيا (القرن الثاني الميلادي) لم تكن للرومان ولا الإغريق رحلات كشفية تذكر في النيل بعد ميروي، ورغم وجود عدد من التقارير عن رحلات في النيل الأزرق وصلت حتى مرتفعات إثيوبيا إلا أنه مـــن المرجح أن الذي أن الذي قام بها تجار ، بدليل العثور على عدد من الأواني البرونزية في منطقة سد "مكوار" على النيل الأزرق .(٢٢٨)

وهـــناك نظرية لم تخل من عنصر الطرافة عن منابع النيل تبناها الملك البربري "يوبا الثانـــي" ملك موريتانيا في بداية القرن الأول الميلادي ، والذي ألف كتاباً عن جغرافية أفريقيا ، وعـــن هـــذه النظـــرية يقول بلينيوس : "إن الملك يوبا أكد أن النيل ينبع من جبل في موريتانيا قـــريب مـــن المحيط (الأطلنطي) وبالقرب من هذا الجبل (جبل أطلس) يكوّن مجرى النيل بحيرة تسمى نيليديس وأن بهذه البحيرة توجد عدة أنواع من الأسماك إلى جانب التماسيح التي أحضر يـــوبا إحـــداها مـــن هناك ليثبت صحة نظريته وأودعه في معبد إيزيس بمدينة قيصرية بمملكة موريتانـــيا (شرشـــال الحالية بالجزائر) ويقول بلينيوس أنه لا يزال موجوداً هناك . ولاحظ يوبا كـــذلك أن النيل يفيض بالقدر الذي يتناسب مع كمية الثلج أو المطر التي تسقط في موريتانيا ، وبعـــد خـــروجه (النـــيل) من هذه البحيرة يختفي تحت الأرض خلال الصحراء الرملية القاحلة لمســـافة تســـاوي رحلة عدة أيام ، ثم يظهر بعد ذلك في بحيرة أخرى كبيرة في أراضي قبائل الماسايســـيليين في موريتانيا القيصرية (غرب الجزائر الحالية) ثم يختفي مرة أخرى في رمال الصحراء لمسافة تساوي رحلة عشرين يوم حتى يصل بالقرب من بلاد الإثيوبيين وحين يقترب مجـــرى النهـــر مـــن المنطقة المأهولة يبزغ من ينوع كان يسمى "الينبوع الأسود" ، ومن هذه الـــنقطة يجـــرى النهـــر مكوناً حداً فاصلاً بين أفريقيا وإثيوبيا ، وعندما يجري النهر في وسط إثيوبـــيا فإنه يسمى "أستابوس" ويعني باللغة الوطنية "الماء القادم من الجنوب المجهول" وعبر هذا المجرى ينتشر عدد لا يحصى من الجزر بعضها كبير الحجم وأهمها جزيرة ميروي ويسمى النهـــر علـــى الجانـــب الأيســـر حول هذه الجزيرة "أستوبوريس" وتعني "فرع النهر القادم من المجهول" أما الفرع الأيمن فيسمى أستوسابيس Astosapes وتعني المجرى الفرعي ، ولا يطلق اسم النيل على مجرى النهر إلا عندما يجري بانتظام ويتحد في مجرى واحد ، وحتى يحدث ذلك فهـــو يحمـــل اســـم Giris ، أما عند هو ميروس فكان اسمه "نهر مصر" Aegyptus على طول مجراه ، وكان يحمل اسم "تريتون" Triton(٢٢٩) عند كتاب آخرين .(٢٣٠)

وجديـــر بالذكر أن نظرية يوبا عن منابع النيل من الغرب كانت تشبه نظرية قديمة ورد ذكرها عـــند هيرودوتوس في معرض حديثه عن رحلة "النسامونيس" الكشفية في الصحراء الكبرى ، فقد ذكر هيـــرودوتوس أن هـــؤلاء المكتشفون من قبيلة النسامونيس التي كانت تقطن منطقة خليج "سيرتيس" بإقلـــيم بـــرقة وجنوبه ، قد توغلوا في رحلتهم في الصحراء الكبرى تجاه الغرب حتى وصلوا مدينة كل ســـكانها من الزنوج ويجري خلالها نهر من الغرب إلى الشرق وتوجد التماسيح بهذا النهر.[٢٣١] ويقول هيـــرودوتوس أنه ساد اعتقاد بأن هذا النهر هو النيل[٢٣٢] وقد رجحت بعض الدراسات أن المدينة التي ذكـــرها هيـــرودوتوس تقع بالقرب من مدينة تمبكتو Timbuctu في غرب أفريقيا ، وأن هذا النهر هو نهـــر النيجـــر حـــيث كان يطوق مدينة تمبكتو في العصور القديمة فرع شمالي من فروع النيجر.[٢٣٣] خاصـــة وأن بلينـــيوس ذكر نهراً في غرب أفريقيا يحمل نفس الاسم Nigri ولو أنه غير مؤكد إذا كان هو النهر الذي يحمل نفس الاسم الآن .[٢٣٤]

وقـــد ذكـــر بلينـــيوس أيضـــاً أن هذا النهر له نفس طبيعة النيل ، وأن نبات البردي والقصب تنمو على ضفافه وأن به نفس الحيوانات (يقصد الأسماك والتماسيح خاصة) وأنه هو والنـــيل يفيضـــان في نفس الوقت من العام.[٢٣٥] ويرجح أن النهر الذي ذكره بلينيوس هو نهر النيجر وأن التشابه بينه وبين النيل في كثير من التفاصيل هو الذي دفع البعض للاعتقاد بأنهما نهر واحد ، وأن نظرية يوبا لم تكن بالفعل سوى صدى للنظرية القديمة القائلة بأن منابع النيل تـــوجد فـــي غرب أفريقيا[٢٣٦] ، ويؤكد هذا الاعتقاد ما ذكره استرابون في معرض حديثه عن موريتانـــيا : "أن أنهارهـــا بها تماسيح وأنواع أخرى من الحيوانات (يقصد الأسماك) مثل تلك الموجـــودة فـــي النـــيل حتـــى أن الـــبعض يعتقد أن منابع النيل توجد بالقرب من أقصى حدود موروسيا (موريتانيا)" .[٢٣٧]

أما بطلميوس الجغرافي فذكر أخبار رحلة كشفية قام بها ملاح ومكتشف إغريقي يدعى "ديوجينـــيس" مـــن عهـــد الأباطرة الفلافيين (٧٠ – ٩٧م) ، ولو أنه غير معروف في أي عام بالـــتحديد قـــام ديوجينيس برحلته . وهذا المكتشف كان يقوم برحلات في المحيط الهندي وصل منها إلى الهند ، وفي إحدى رحلاته دفعت به الرياح الموسمية بالصدفة إلى ساحل شرق أفريقيا ، ومـــن هناك فكر في القيام برحلة كشفية في أعالي النيل.[٢٣٨] وتقول قصة ديوجينيس : "أن الصـــدفة دفعـــت به إلى ساحل شرق أفريقيا ، وبعد خمسة وعشرين يوم وصل إلى مدينة رابتا (دار لســـلام الحالـــية) ومن هناك توغل للداخل حتى وصل بالقرب من بحيرتين كبيرتين ثم بلغ سلسلة من جبال ثلجية في منطقة اكتشف أن النيل ينبع منها ، وربما سمع عن ذلك من العرب الـــذين كانوا يحكمون رابتا ، وقد وصف ديوجينيس الطبيعة في هذه المنطقة بقوله : " إن هذه الجـــبال تمـــتد شـــرقاً وغرباً لمسافة خمسمائة ميل وأن قممها مغطاه بالجليد الذي يغذي بمياهه الجاريـــة بعـــد ذوبـــان بحيـــرتين في الشمال ، ومن البحيرتين يجرى تياران من المياه شمالاً

وباتحادهمـــا يـــتكون النيل (الأبيض) الذي يتصل بدوره بنهر آخر (النيل الأزرق) الذي يبدأ من بحيرة كولوي (بسيبو أو تانا) في إثيوبيا .[٢٣٩]

وسواء كان ديوجينيس قد رأى تلك الأشياء بنفسه أو أنه سمع عنها من العرب ، فإن ما جاء في قصته يشير إلى أنه أو أنهم ، شاهدوا بحيرة فيكتوريا التي تغذي المجرى الرئيسي للنـــيل (النـــيل الأبـــيض) بعد تستقبل المياه القادمة من الغرب من نهر "كاجيرا" الكبير ، وهو المجـــرى الرئيسي البعيد جداً للنيل والذي يقذف بمياهه شمالاً ليجعل النيل مجرى واحداً بعد أن يمـــر فـــوق شلالات ريبون شمال بحيرة فيكتوريا.[٢٤٠] وقد تردد نفس هذا الكلام عن البحيرة الكبـــرى الأخـــرى وهـــي بحيـــرة ألبرت التي وصفت بأنها ليست كبيرة (مثل بحيرة فيكتوريا) وشـــلالات ميرشـــيزون التي تقع شمالها ، وأنها تستقبل المياه القادمة من الجنوب وتقذف بها شمالاً لتجعل النيل مجرى واحداً بعد أن يمر عبر بحيرة كيوجا Kioga ذات المستنقعات.[٢٤١]

أما بالنسبة لسلسلة الجبال الثلجية التي اكتشف ديوجينيس أنها أصل منبع النيل ، فمن المشـــكوك فيه أن يكون قد عاينها بنفسه ، وربما يكون قد سمع عنها فقط، لأن سلسلة الجبال المقصـــودة هـــي جـــبال "روينزروري" Ruwenzori غرب بحيرة فيكتوريا ، وهي جبال تغطيها الثلوج وغالباً ما تحجبها السحب وتصعب رؤيتها بالعين، كما أشار إلى ذلك "استانلي" Stanley الذي اكتشفها عام ١٩٧٥م ، ولها نهر جليدي يمتد مسافة ثلاثين ميل ، وربما يكون ديوجينيس قد خلط بينها وبين "جبال القمر" (جبال كينيا وكيليمنجارو) التي تشبهها – فالأرجح إذاً أنه سمع عـــن جـــبال روينزوري ولم يشاهدها بنفسه ، بالإضافة إلى أن جبال القمر التي ظهرت بأشكال مختلفة على الخرائط لم تكتشف بدورها حتى عام ١٨٣٤م .[٢٤٢]

وعلـــى هـــذا يكون ديوجينيس قد سجل في قصته تلك كل ما سمعه من معلومات من العرب في شرق أفريقيا عن هذا الموضوع وربما يكون هؤلاء قد نقلوها بدورهم من الشائعات المـــتداولة التـــي روج بها الوطنيون الأفارقة هناك[٢٤٣] وكل ما فعله ديوجينيس حين ألقت به أقـــداره علـــى الساحل الأفريقي هو أنه فكر في القيام برحلة كشفية من هناك نظراً لأن معوقات الكشـــف فـــي النـــيل الأبيض بعد ميروي كانت كثيرة لدرجة أنه لم يكن هناك أمل في الوصول لمـــنابع النـــيل بطـــريق النهر . وعلى أية حال فقد كانت لرحلة ديوجينيس أثراً كبيراً في زيادة المعـــرفة بمنطقة منابع النيل الأبيض من البحيرات الاستوائية وأهمها بحيرة فيكتوريا ، إلى أن تم الاكتشاف الفعلي لمنابع النيل من هذه البحيرات في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي[٢٤٤] . ولاشـــك أن المكتشـــفون فـــي العصـــور الحديثة قد بدءوا محاولاتهم بعد أن فكروا جيداً في المعلومات التي وردت في جغرافية بطلميوس عن النيل بل وبعد أن اعتقدوا في صحتها .[٢٤٥]

الهوامش

١- Tozer, H.F: History of Ancient Geogrophy ,New York,1964,p.122f.

٢- Strabo: "The Geogrophy", Translated by : Horace Leonard Jones (L.C.L), London,1966F, .I.2.1.

٣- مصطفي العبادي: مكتبة الإسكندرية القديمة، سيرتها ومصيرها، اليونسكو، ١٩٩٢، ص٢٥.

٤- Law, R.C.C; North Africa in the Period of Phoenician and Greek Colonization, C.800 to 323 B.C, the Cambridge History of Africa, Vol.2, From C.500 B.C, to A.D 1050, Edited by: Fage, J.D., Cambridge,1978, P.92.

٥- إبراهيم نصحي: تاريخ التربية والتعليم في مصر، الجزء الثاني، عصر البطالمة، القاهرة، ١٩٧٥ .

٦- مصطفي العبادي : المرجع السابق ، ص ٢٩.

كانت لأكاديمية أفلاطون ومدرسة أرسطو (اللقيون) مكانة خاصة باعتبارهما أمثلة مبكرة من مكتبات ومدارس البحث العلمي لمتخصص في القرن الرابع ق.م.

Strabo : X III .1.54.

٧- Frazer, P.M. Ptolemaic Alexandria ,Oxford ,1972 ,p.312.F.

٨- أيدرس، بل هـ : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، دراسة في انتشار الحضارة الهيلينية واضمحلالها، ترجمة د. عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٧٣ .

٩- مصطفي العبادي : المرجع السابق ، ص ٨٠.

١٠- أيدرس ، بل هـ : المرجع السابق ، ص ٧٣.

١١- المرجع السابق ، نفس الصفحة .

١٢- مصطفي العبادي :المرجع السابق ، ص ٩٧.

١٣- المرجع السابق ، ص ٩٩ .

١٤- المرجع السابق ، ص ٨٤.

١٥- المرجع السابق ، ص ١٤٤.

Plutarchus: "Lives" Translated by: Bernadotte Perrin (L.C.L), Vol. VIII London, 1919 "Antonius", 58 .

١٦- سارتون، ج : تاريخ العلم "العلم القديم في العصر الذهبي لليونان" ، ترجمة لفيف من العلماء، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٣٨٠ .

١٧- Homerus : "The Ilied", XIV.243; XVIII 606-607'; XXI.193-197. Edited with English notes and introduction by : Walter leaf, Vol.2, New York ,1988.

١٨- Hesiodus : "Fragmenta", Edited by : Rzach, Al., Teunber, 1913, Frg, 94.

١٩- Aristoelt : 'Les Meteorologie' Nouvelle, Traduction et notes par : Tricot, J., Librairie philosophique, Paris,1941, 11.5.

Herodotus: "History", Translated by: Godley, A.D., (L.C.L), London,1926, 1.203; IV.41.

٢٠- Pliny : "Natural Histroy", Translated by: Rackham, H., (L.C.L), VI.175; Strabo : XVII. 790.

٢١- Herodotus : II.32; IV.43 .

٢٢- برســتيد، جـيمس هنري : تاريخ مصر من أقدم العصور إلي الفتح الفارسي ، ترجمة د. حسين كمال ، مراجعة، محمد حسنين الغمراوي ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٣٩٤ .

٢٣- المرجع السابق ، ٣٨١ .

٢٤- Law , R.C.C : Op. Cit., p.92.

٢٥- Cary, M.; Warmington, E.H.: The Ancient Explorers, London, 1928. p.93.
Herodotus ; IV.42.

٢٦- Herodotus I.203 .

٢٧- Pliny : II.17; Strabo : I.32 .

٢٨- Aeschyle : "Les Suppliants" Textes etabli et traduit par : Paul Mazon, Deuxieme edition revue et Corrigee, Societe D'Edition' Les belle lettre, Tome I,1931, I.384-386.
Plato : "Timaeus", translated by: Bury, R.G., (L.C.L), London. 1929, 24, 25 ; "Critias", 108,109; Pliny ; VI .175 .

٢٩- شـــريف محمـــد شريف: تطور الفكر الجغرافي، الجزء الأول "العصور القديمة"، القاهرة، ١٩٦٩، ص٢٩٢.

٣٠- Pliny ; VI .199; Aristotle : Meteor, II.12.

٣١- Aeschyle : Suppl., 284 f; strabo : I.47.
Herod. : VII .80; II.158; IV. 49 .

٣٢- Arrianus : 'Alexandri Anabasis Contineus' Edited by : Roos, A.G., Vol .I Lipsiae,1907, V.26 .2 , VII. 1-2 .

٣٣- Plutarchus : 'Vitae Parallelae, Alexandri et Caesaris, Edited by: Carolus Sentenis, Lipsiae, 1909, 68 .

٣٤- Strabo : II. 114, 118.

٣٥- Cary, M: Warmington, E.H. : OP. Cit., P.98.

٣٦- Strabo : II. 131, 132.
Letronne, A.,: Discussion de L 'opinion d'Hipparque sur le prolongment de l' Afrique, Journal de savannas, Paris, 1931, p.476-480.
كـــان إراتوســـثينيس قـــد استنتج من قبل ، في القرن الثالث ق.م. ، اتصال مياه المحيطين من تشابه المد والجزر في كليهما
Strabo : II . 132

٣٧- Polybius; "The Histories", 'Translated by : Paton, W.R., (L.C.L) Vol. II, London, 1923, III. 38.1.

٣٨- Pliny : II.169 .

٣٩- Strabo : II. 98.4; 101.5.

٤٠- Ibid : Ii. 98.4.

٤١- Ibid : II. 98, 99.

٤٢- Ibid : II. 97.

٤٣- هي كليوباترا الثالثة (١١٧-١٠١ ق .م) التي حكمت مع أبنها بطليموس التاسع . انظر: إيدرس بل ، هـ : المرجع السابق ، ص ٢٠٥

٤٤- هو بطليموس التاسع "سوتير الثاني" (١١٦-١٠٧ ق.م)
أيدرس بل، هــ: المرجع السابق، ص ٢٠٦ .

٤٥- Strabo : II.99.

Ibid : II. 99,100; 100. 5.
Ibid : II. 98.4; II. 100.5; 101. ٤٦-
Ibid : II. 101-102. ٤٧-
٤٨-
٤٩- نظـراً للاعتقاد السائد لدى الإغريق في ذلك الوقت بأن الساحل الغربي لأفريقيا يتجه بعد كيرني ناحية الشرق حتى مصر
Aristotle : Meteor., II. 12.

٥٠- كانـت السفن الآتية من الغرب عند دورانها حول جنوب أفريقيا تواجه أولا تيار "بنجويلا" المائـي المعـاكس لاتجـاه السفن جنوب الساحل الغربي ، وعلى الساحل الشرقي تيارين مائيـين مضادين لاتجاه السفن وهما "أجولاس" Aghulas وموزمبيق، على عكس السفن المـتجهة من الشرق للغرب ، حيث أن هذين التيارين أكثر فائدة لها لأنهما يدفعان السفن من الخلف .

Cary, M.; Warmington, E.H., OP. Cit., P.102
٥١- Mauny, R: Trans - Saharan Contacts and the Iron Age in West Africa, the Cambridge History Of Africa, Vol .2 p.299.
Cary, M.; Warmington, E.H . : OP. Cit .P. 101.
٥٢-
٥٣- شريف محمد شريف : المرجع السابق ، ص ٤٨٢ .
٥٤- Warmington, E.H.: The Commerce between the Roman Empire and India, Combridge, 1928.
Cary , M.; Warmington , E.H. : OP. Cit. ,P.102.
Strabo : XVII .825 . ٥٥-
Ibid. : 1.32. ٥٦-
Ibid. ٥٧-
Ibid. ٥٨-
Pliny :11.169. ٥٩-
Ibid :V.8. ٦٠-
Ibid: 11.169. ٦١-
Cary , M.; Warmington , E.H: .OP.Cit .P. 104. ٦٢-
Pliny :VI .175. ٦٣-
٦٤- Charlesworth, M.P. : Trade–routes and commerce of the Roman Empire, Combridge, 1926, p, 255. ٦٥-

٦٦- شريف محمد شريف : المرجع السابق ، ص ٤٨٣ .
Charlesworth , M.P. : OP .Cit , p. 255.
Keane, A.H.: The Gold of Ophir, London, 1901, p.127-129. ٦٧-
Ptolemy: "Geographia", Edited by: Carolus Fridericus Augustus Nobbe, Lipsiae, 1898, 1.9.4 ٦٨- ٦٩-
Cary, M.; Warmington, E.H. : op.cit., p.104 .
Ptolemy : 107, 17, 24 . ٧٠-
Ibid : 1.7, 10 . ٧١-
٧٢- عبد العزيز طريح شرف: جغرافية ليبيا ، الإسكندرية ، ١٩٧١ ، ص ١٨و٤٦ .
٧٣- شريف محمد شريف : المرجع السابق ، ص ٤٨٢ .
Cary, M.; Warmington, E.H.: op.cit., p.106 .
Sharaf, A.T.: A Short History of Geographical Discovery, Alexandria, 1963, p.12 .
Strabo: XVII. 789 .
٧٤-

٧٥- Cary, M.; Warmington, E.H. : op.cit., p.69.

٧٦- Pliny : VII. 208 .

٧٧- Ibid : XXXVII. 108

Naville, E.: Le Commerce de L'ancienne Egypt avec les nations voisinne, Genve, 1911.

٧٨- Pliny : VI. 169 .

٧٩- يبدو أن طبيعة هذا الحجر الذى اكتشف بالجزيرة هو الذى جعل التسمية- الثعابين – تطلق عليها .

٨٠- Strabo : XVI . 770 .

٨١- إبراهيم نصحى: تاريخ مصر فى عصر البطالمة، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٧٨، ص٥٢٧ .

٨٢- Strabo :XVII. 789 .

٨٣- Pliny : VI. 167 .

٨٤- Ibid : VI. 169 .

٨٥- Strabo : XVI. 769 .

٨٦- Ibid : XV . 768 .

وضع ديودورس الصقلى التروجوديتيس على طول ساحل البحر الأحمر ابتداء من ميناء بيرينيكى اليونانية .

Diodorus Siculus: "The library of History", translatel by: Oldfather, C.H., (L.C.L), London, 1961f, 111.32f.

٨٧- Pliny : VI. 166 .

٨٨- ذكــر بلينـــيوس أن فيلادلفوس أوقف حفر القناة بسبب خوفه من حدوث فيضان ، حيث تأكد له أن مستوى ارتفـــاع مـــياه البحر الأحمر أربعة ونصف قدم عن مستوى الأرض ، وأن البعض لم يقتنع بهذا السبب لكى يتـــرك فيلادلفوس هذا المشروع ، وقالوا أنه فعل ذلك خوفا من أن يؤدى عمل مخرج من البحر الأحمر إلى تلـــوث مـــياه النـــيل وهـــو المصدر الوحيد لمياه الشرب Pliny : VI.165. – وذكر استرابون أن الملوك الـــبطالمة (المقصود بطليموس الثانى فيلادلفوس Diodorus : 1.33. 11.) من أجل تفادى ذلك صنعوا حاجزاً وجعلوا الخليج (البحر الأحمر) طريق مغلق يفتح عند اللزوم ثم يغلق ثانية حتى لا تتسرب مياه البحر للنيل.

Strabo :XVII.804 .

Diodorus : 1.33.11 .

٨٩- Strabo : XVI.780 .

٩٠- يقـــول اســـترابون أنها ميناء كبير له مدخل واسع وتوجد ثلاث جزر أمام ساحله اثنتان بهما أشجار زيتون كثيرة بينما الثالثة بها عدد أقل ويكثر بها نوع من الزجاج .

Strabo : XVI.769 .

٩١- Ibid : XVi. 769, 770 .

٩٢- Ibid : XVI. 770 .

٩٣- Ibid : XVI..772 .

٩٤- Pliny : VI. 167,168.

٩٥- Ibid : VI.171 .

٩٦- Strabo : XVII-789 .

٩٧- فتح هذا النشاط طريقاً للتجارة بين مصر وعرب سبأ فى اليمن فى ذلك الوقت فأرسل فيلادلفوس ضابطاً من رجالـــه يدعى أرسطو عام ٢٧٨ ق.م فى رحلة لكشف الساحل الشرقى للبحر الأحمر حتى باب المندب تمهيداً لارســـال أســـطول فـــى حملـــة علـــى ســـواحل شبه الجزيرة العربية ، وأرسل لنفس الغرض " فيثاغورس" Pythagoras فى رحلة كشف مماثلة إلى بعض الجزر الواقعة بالغرب من شبه الجزيرة .

Pliny : XXXVII. 24 .

٩٨- Diodorus : III. 18-4 .

٩٩- Strabo : III. 77.

١٠٠- Ibid : XVI. 774-15 .

١٠١- انتشــر هذا التقليد الخاص بإطلاق أسماء المكتشفين أو أسماء أشهر أعضاء البعثات التى تم ارسالها إلى هناك. Cary, M.; Warmington, E.H. : op.cit., p.69.

١٠٢- Strabo : XVI. 773-774 .

١٠٣- Ibid : XVI. 774.15 .

١٠٤- Ibid .

١٠٥- Ibid : XVI. 774 , 14 .

١٠٦- Cary, M.; Warmington, E.H. : Op. Cit., p.69 .

١٠٧- إبراهيم نصحى : تاريخ مصر في عصر البطالمة ، الجزء الثانى ، ص ٥٢٥ .

١٠٨- Diodorus: III . 14f; Strabo : XVI. 774, 775 .

١٠٩- Strabo : II . 98 .

١١٠- Ibid: II . 99.

١١١- Ibid: II . 103.8.

١١٢- Ibid : XVI . 774 .

١١٣- Cary , M.; Warmington , E.H. : Op.Cit., P.70 .

١١٤- Strabo : II.118; XVII. 798 .

١١٥- Cary , M.; Warmington, E.H. : Op.Cit.; P. 197 .

١١٦- Golenischef, R.: Sur un ancient conte Egyptien, Paris, 1881, 27 .
Maspero, G. : Popular Stories in Ancient Egypt, translated by: Johns, C.W.H., London, 1895 .

١١٧- Pliny : X.2.; Strabo : II. 104.

١١٨- Diodorus :V. 41.44 .

١١٩- Ibid : V.41 . 4.6 .

١٢٠- رسم الإغريق نموذجاً للمدينة الفاضلة أو المثالية وتخيلوا أن هذه المدن توجد فى الجزء غير المعروف بالنسبة لهم من العالم أو فى المناطق التى لم يتم اكتشافها تماماً.
Cary, M.; Warmington, E.H. : Op. Cit., p. 197 .

١٢١- Diodorus : V. 42; 43; 44;45;46 .

١٢٢- Ibid : II. 55-60 .

١٢٣- Ibid : II 55.3; 6.

١٢٤- Oldfather, C.H. : Diodorus of Sicily, Vol. I, (L.C.L.) London, 1968, p.64, note, 1 .

١٢٥- مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٦٢ .
قــدم "يوهيميــروس" من "مسينا" الذي استقر بمصر في عصر بطلميوس الأول وبداية عصر بطلميوس الثانــي (٣٠١ - ٢٩٧ق.م) فــي كتابه السجل المقدس وصفاً لنظام المعيشة على جزيرة خيالية تسمى "بانخايــا" في المحيط الهندي ، أمام ساحل بلاد العرب السعيدة (اليمن). كان يعيش على هذه الجزيرة في منشــأ الأمــر آخــرون قــبل شعب بانخايا ولكن آمون طردهم، أما شعب بانخايا فكان ينقسم إلى ثلاثة طــبقات، الكهــنة والمزارعون والجنود. ورغم أن في نظمهم ثلاث حكام لكن السلطة المطلقة في جميع الأمور كانت بيد الكهنة . وتمتعت الجزيرة بوفرة العيش ونعم شعبها بحياة سعيدة ورغدة. وكانت الحياة الدينــية تتركز في معبد رائع للإله "زيوس آمون" رب القبائل الثلاث حيث توجد هناك لوحة ذهبية كتبت عليها نعم الإله بالهيروغليفية .
Diodorus : 5 . 42 – 46 .

١٢٦- مــن هذه المجموعة جزيرة "ماسيرا" Masira (مُصيرة) وخوريا موريا Khuria Muria على ساحل عُمان، والتي اكتشفت حوالي عام ١٢٠ق.م. على يد البطالمة أيضاً .

Cary, M.; Warmington, E.H. : op. cit., p. 69 .

وقـد عُرفت المنطقة التي تقع فيها هذه الجزر اسم "مياه الموت" لأنه توجد بهذا المكان رفات الملك الفارسي "إريثراس" Erythras الذي قيل أنه مات غرقاً في هذه المياه .

١٢٧- Pliny : VI. 153 .

Cary, M.; Warmington, E.H. : Op. Cit. , P.59, 199 .

١٢٨- الديوسـكوروي، همـا ولـدي زيـوس التوأم من زوجته ليدا ، وهما "كاستور" و"بوللوكس" الآلهة الحارسة للبحارة .

١٢٩- Pliny : VI. 153 .

١٣٠- Rackham, H. : Pliny, Natural History, Vol. 11, (L.C.L.), London, 1942, P. 452, Note C.

١٣١- Pliny : VI. 56 - 80 .

١٣٢- Strabo : XVI. 769 .

١٣٣- Ibid : XVI. 769; Pliny : VI. 174 .

١٣٤- Starr, Ch. G. : Emergence of Rome as Ruler of the Western World, New York, 1950.

١٣٥- Strabo : XVII . 815 .

١٣٦- Ibid : XVII . 798 .

١٣٧- Tacitus : "Annales", Edited by : Fisher, C.D., Clarendon, 11. 33.

Dio Cassius : "Roman History" translated by : Earnest Cary, (L.C.L), London, 1925. LVII . 15.

١٣٨- Strabo : XVII. 815.

١٣٩- Warmington , E.H: OP .Cit , P.7.

Muller , C. : Periplus Maris Erythrai ,P. 283 f .

١٤٠- Pliny : VI. 160-162; Strabo : XVII .780-782; Dio Cassius LIII..29.

١٤١- Warmington ,E.H: OP .Cit. , P .44.

١٤٢- جـورج فضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى ، ترجمة : السيد يعقوب بكر ، مراجعة وتقديم : يحيي الخشاب ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٦٧ .

١٤٣- Ptolemy : IV. 7 41; Pliny : VI. 100-106.

١٤٤- Pliny :V.100,104 .

١٤٥- Ibid : VI .172.

١٤٦- Dio Cassius : LVII . 15.

١٤٧- Ptolemy : IV .8.2,VII.2.1 .

١٤٨- Charlesworth , M.P. : OP. Cit , P. 255.

Muller , C. : OP .Cit , P.272-274.

١٤٩- Keane , A.H. : OP.Cit. , P .127.

١٥٠- Muller , C :OP .Cit. , P .255.

١٥١- Ptolemy : IV .7 .25.

١٥٢- Ibid : 1.9.2.

١٥٣- Ibid.

١٥٤- Charlesworth , M.P.: OP. Cit ,P 255.

١٥٥- Ptolemy : 1.9.4; Keane , A.H. : P .127 –129.

١٥٦- كان بسماتيك الأول (٦٦٣-٦٠٩ ق .م) مهتما بالكشوف الجغرافية ، وقد أولى النيل اهتمامه وبذل الجهود لمعرفة أسباب فيضانه ومنابعه.

Breasted,J,H : Ancient Records of Egypt, Chicago, 1906–1907, P. 370,640.

١٥٧- Herodotus : 11.28; Petrie, W.F.: Tanis, Part11, Nebesheh and Defenneh, Fourth Memoire of "The Egypt Exploration Fund', 1888, P.13,14 .

١٥٨- Cary , M; Warmington , E.H.:OP. Cit. ,P.170.

١٥٩- هـو ابـن "دروسـوس" Nero Claudius Drussus شـقيق الإمبراطور "تيبيريوس" وكان يعمل قائداً بالجـيش ، وقـد كلفـه عمـه الإمبـر طور بمهمـة سياسية في الشرق في الأعوام (١٧-١٩ م) وكان " جيـرمانيكوس " ينتهـز الفرص لزيارة المعالم الأثرية فذهب في زيارة سريعة لمصر لمشاهدة آثارها وهناك قام برحلة نيلية سياحية وصل فيها حتى الهيبة.

سيد الناصري : تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٣٥-١٣٦ .

ويقول تاكيتوس أن جيرمانيكوس سار جنوباً في النيل حتى أسوان وجزيرة " اليفانتين

Tacitus: "Annales", 11. 6-7 .

وقد عثر كل من " لوبو " وبروسي في الصور الحديثة على هاتين الحفرتين بالفعل.

Cary , M; Warmington , E.H.:OP.Cit. , P.170

١٦٠- Diodorus : 1.37. F.

١٦١- أطلق الإغريق اسم إثيوبيا ، وهو لفظ يوناني مركب من كلمتين بمعني الوجه المحترق ،على البلاد المتاخمة لحـدود مصر مما يلي الشلال الأول ، وهو ما كان يسميه الفراعنة "مملكة كوش" أو النوبة "ثم اتسع مدلول إثيوبـيا فـي العصـر الرومانـي فأطلق علي البلاد الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وشملت أحيانا بعض المناطق غرب النيل مثل ميروي .

فـوزي مكـاوي : مملكة ميروي ، دراسة للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مملكة ميروي من القـرن السـادس ق .م .حتـى القـرن الـرابع الميلادي وأثر الحضارة المصرية في هذه المملكة ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٧٥ .

١٦٢- Strabo : XVII .48 .

١٦٣- Diodorus : 1.37.

١٦٤- Aristotle : Meteor. , 1.13,21.

١٦٥- Tarn , W .W : Alexander the Great , Vol . 2 , London , 1948 ,P.347.

١٦٦- Quintus curtius: "History of Alexander" Translated by : john, C., Rolfe , (L.C.L), London , 1962 , IV .VII.
Arrianus : Anabasis , III-1 .

١٦٧- Quintus Curtius : IV. viii .

١٦٨- Ibid : IV.vii, Plutarchus : Alexander, 27; Arrianus: Anabasis,111.7.

١٦٩- Strabo : XV. 695; Quintus Curtius : VIII. ix.

١٧٠- Strabo : XV .690.13 .

١٧١- Ibid : XV. 689 F; Arrianus : Anabasis ,VI.1.1-6 .

١٧٢- Strabo : XV. 696.25 .

١٧٣- Ibid XV .696.25 , 692.18.

١٧٤- Arrianus : Anabasis VI .1.2-3.

١٧٥- Strabo : XV .771.

١٧٦- Ibid : XVI. 770.7,8.

١٧٧- Pliny : VI .172,173.

١٧٨- Strabo : XV. 771.8.

١٧٩- Ibid .

١٨٠- Pliny : VI .183.

١٨١- Diodorus : 1.37.

١٨٢- Pliny : VI. 183.

١٨٣- Strabo : XVI .770.8.

١٨٤- Ibid: XVII. 822 .

١٨٥- Ibid : XVII .774; XVII. 789 .

١٨٦- Cary , M.; Warmington , E.H.:OP.Cit ,p. 172 .

١٨٧- Diodorus : 1.38 .

١٨٨- Ibid .

١٨٩- Strabo : XV.771.786-787, 821-822 .

١٩٠- Bevan, E: A History of Egypt under Ptolemaic dynasty, London,1924, p.246-247.

١٩١- Ibid : p.293.

١٩٢- هـم سـكان الكهـوف الذين وصفهم ديوردوس على طول ساحل البحر الأحمر من ميناء بيرينيكي اليونانية شمالا حتى أقصى جنوب ساحل البحر.

Oldfather , C.H .: OP. Cit , V.1, p.98 , Note 1.

١٩٣- Diodorus : 1.30

١٩٤- Strabo : 11.113 -114 ,XVII . 824-25,839 .

١٩٥- Ibid : 11.98 .3

١٩٦- Diodorus : 1.32 .

١٩٧- Ibid :1.37.

١٩٨- Ibid :1.41

١٩٩- Ibid : 1.37.11

٢٠٠- Ibid :1.37.7 .

٢٠١- Cary , M.; Warmington , E.H.:OP.Cit ,P. 173

٢٠٢- Budge, E. W.: The Egyptian sudan, its History and monuments, vol .1, London ,1907, p .58 f.
Strabo :XVII. 819.53,820.54 .

٢٠٣- Ibid : XVII .819.53.
Cary , M.; Warmington , E.H.:OP.Cit ,P .174.

٢٠٤- Budge , E. W: Op .Cit,p.60

٢٠٥- Strabo : XVII .820-521; Dio Cassius : LIV .5; Pliny: VI .181
Cary , M.; Warmington , E.H.:OP.Cit ,p.164.

٢٠٦- Pliny : VI .181.

٢٠٧- Budge , E. W.: OP. Cit , P 60.

٢٠٨- Cary , M.; Warmington , E.H.:OP.Cit , P .164.

٢٠٩- Strabo : XVII. 820

٢١٠- Cary , M.; Warmington , E.H.:OP.Cit , P. 164.

٢١١- عبد اللطيف أحمد علي: مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الوراق البردية، القاهرة، ١٩٧٢ ، ص ١٢٩ .
محمد إبراهيم بكر : تاريخ السودان القديم ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص١٦٢ .

٢١٢- Pliny : VI .181.

٢١٣- محمد إبراهيم بكر : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .
فوزي مكاوي : المرجع السابق ، ٩٥ ص .

٢١٤- Pliny : VI .182.

٢١٥- Cary , M.; Warmington , E.H.:OP.Cit , P. 174.

٢١٦- Strabo : XVII. 819.

٢١٧- Pliny XII .19.

٢١٨- Ptolemy : IV .7.21.

٢١٩- Pliny: VI .184 -186; Rackham , H.: OP . Cit , VII. , P. 476, Note a .

٢٢٠- Cary , M.; Warmington , E.H .OP.Cit .P 175.

٢٢١- Pliny: V. 51.

٢٢٢- Dio Cassius : LXIII. 8; Seneca : " Naturales Quaestiones", VI. 8.3-5.

٢٢٣- Pliny: XII .19

٢٢٤- Budge , E.W. : A History of Ethiopia , London , 1907, V.I , P.99.

٢٢٥- Budge , E.W. : The Egyptian Sudan. V.2, P.172 –74 .

٢٢٦- Pliny :1.188.

٢٢٧- Budge , E.W. : A History of Ethiopia ,V.I, P.120.

٢٢٨- هـو اسـم لأحـد آلهة البحر وهو ابن "نبتونوس" Neptumus نبتون إله البحر ، وهو أيضاً اسم لبحيرة أفريقية حيث ولدت الإلهة مينرفا Minerva إلهة الحكمة والفنون .

Pliny : V.51-54.

٢٢٩- Herodotus : 11.32 .

٢٣٠- Ibid : 11.33.

٢٣١- Cary , M.; Warmington , E.H.: OP. Cit., P .181.

٢٣٢- Rackham, H:OP. Cit , P 250 , Note B.

٢٣٣- Pliny : V .44.

٢٣٤-

٢٣٥- جدير بالذكر أن فكرة الربط بين النيل والنيجر ظلت متداولة حتى بعد عام ١٨٠٠ م .

Cary , M.; Warmington , E.H.: OP. Cit.,P.178.

٢٣٦- Strabo : XVII .826 .4.

٢٣٧- Cary , M.; Warmington , E.H.: OP. Cit., P.177.

٢٣٨- Ptolemy: I. 9. 1-4.

٢٣٩- Cary , M Warmington , E.H.: OP. Cit., P.177.

٢٤٠- Ptolemy : IV. 7.23, 8.3, 6.

Tozer , H.F.: OP. Cit., P352.

Bunbury, E.H.: History of Ancient Geography, London, 1888, Vol.2, P.612.

٢٤١- Cary . M.; Warmington , E.H.: OP. Cit., P. 177.

٢٤٢- Tozer , H.F.: OP. Cit ,P. 352.

٢٤٣- Cary, M.; Warmington , E.H.: OP. Cit., P. 178.

٢٤٤- Ibid.

٨- مديح الملوك بين قصيدتي ثيوكريتوس
الرابعة عشرة والسادسة عشرة

أ.د. فؤاد شرقاوي
أستاذ الدراسات اليونانية والرومانية
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

من المعروف أن انهيار نظام دولة المدينة في بلاد اليونان ، في أواخر القرن الخامس ق.م ، قد واكبه فقدان شعور الفرد بالانتماء إلى الدولة ، وظهرت بذور هذه الروح الجديدة في بعض أعمال الشاعر الكوميدي أرسطوفانيس . ثم أخذت هذه الظاهرة تتنامى حتى أصبحت السمة الغالبة في مرحلة جديدة من مراحل الأدب اليوناني ، وذلك في فترة العصر السكندري، حيث تزايد إحساس الشاعر بذاتيته ، وحل دافع الكسب المادي محل التزامه تجاه وطنه . في ضوء هذا الوضع، ظهر فن شعري جديد ، هو مديح الملوك ، الذي يعد ثيوكريتوس واحداً من أبرز شعرائه .

بدأ ثيوكريتوس نظم قصائده في مديح الملوك ، في مسقط رأسه سيراكوز ، بقصيدة وجهها إلى هييرون حاكم سيراكوز ، وهي القصيدة التي تحمل رقم القصيدة السادسة عشرة في ديوانه . غير إنها لم تترك أثراً في نفس هييرون مما حدا بثيوكريتوس إلى أن يتجه إلى مديح بطلميوس فيلادلفوس ، في قصيدته التي تحمل رقم القصيدة الرابعة عشرة في ديوانه ، فإذا به ينجح في لفت أنظار الملك البطلمي إليه ، فيترك ثيوكريتوس سيراكوز ، وينتقل إلى الإسكندرية حوالي عام ٢٧٢ق.م ، حيث قضى في بلاط فيلادلفوس عامين كتب خلالهما قصيدتي مديح أخريين .

وتهدف هذه الدراسة إلى محاولة التوصل إلى سر نجاح ثيوكريتوس – بعد نظم قصيدته الرابعة عشرة – في التقرب من فيلادلفوس مقابلا بإخفاقه في التقرب من هييرون رغم مديحه في القصيدة السادسة عشرة .

ربما يقال أن انشغال "هييرون" بشن حرب ضد قرطاجه ، كما تشير إلى ذلك بعض أبيات القصيدة[١] ، قد استولى عليه كلية ، وصرفه عن دعوة ثيوكريتوس إلى بلاطه . بيد أن هذا الرأي مردود عليه بأن فيلادلفوس كان يخوض حرباً – أيضاً– إبان ظهور قصيدة ثيوكريتوس الرابعة عشرة هي الحرب السورية الأولى[٢] . فإن حاولنا رد موقف الملكين المتباين من ثيوكريتوس إلى تفاوت ميولهما ومزاجهما الشخصي ، فذلك تفسير لا يستند إلى دليل يقيني . لا يبقى أمامنا الآن – فيما يبدو – سوى نص القصيدتين علّنا نجد فيهما ضالتنا المنشودة .

يسأل ثيوكريتوس ، في مستهل القصيدة السادسة عشرة "هييرون" أن يفتح له أبواب قصره ، وألا يرده خائباً خالي الوفاض ، إذ يجب على الموسرين –في رأيه– رعاية الشعراء

والإغــداق علـــيهم إن شاءوا الظفر بمديحهم . ويستحث ثيوكريتوس هييرون قائلاً "إن الثروة مصـــيرها الفـــناء ، أما الإطراء والثناء فهو الذي ينفع الأثرياء"[٣] . ثم يختتم ثيوكريتوس قصيدته من حـــيث بدأ . إذ يعرض على "هييرون" أن يتخذه شاعراً في بلاطه حتى يسخر كل ملكاته الشعرية فـــي تمجيده . والتسبيح بقوته ، ومؤازرة بلاده ضد أعدائها والتغني برخائها وسلامها[٤] .

ولعلـــنا نلاحظ أن الجمود يسيطر على افتتاحية قصيدة ثيوكريتوس السادسة عشرة ، ويشـــمل كلا من مقاطعها ونهايتها[٥] . بل إن القصيدة تتصف –فوق ذلك– بالمباشرة المتمثلة فـــي عرض الشاعر الصريح بيع شعره إلى هييرون مقابل مديحه، مما يجعل القصيدة تنبو عن الـــذوق الفني السليم . مثل هذه العيوب الفنية تنقص من قدر القصيدة وتشي بانعدام تأثيرها . وعلى الرغم من أن ثيوكريتوس قد حاول التأثير على "هييرون" بالتلويح له بمناصرة سيراكوز ضد أعدائها ، فإن هذه المحاولة قد أضعفتها مساومة الشاعر للملك "هييرون" .

أما القصيدة الرابعة عشرة فتصور –في شكل درامي– عاشقاً ، هو آيسخيناس ، أقام فـــي بيته حفل شراب دعا إليه حبيبته "كينيسكا" وأصدقاءه الجندي كلينيكوس ، ومروّض الجياد (أو تاجر الخيول) آجيس الثسالي ، وصديقاً ارجوسيّاً . وأثناء الشراب تفوهت كينيسكا بكلمات تبـــين مـــنها آيســـخيناس أنها انصرفت إلى غيره، فثارت ثائرته. وانهال عليها بالضرب ففرت هاربة تلاحقها لعناته[٦] .

ورغـــم كل ما حدث ، لم يصبر آيسخيناس على فراق كينيسكا ، وإنما تمكن منه حبها فأهمـــل هيئـــته ، وأصيب بالهزال والسقام ، وكاد يفقد –من فرط حبها– عقله[٧] . ويستحضر آيســـخيناس محـــنة مماثلـــة مر بها صديقه سيموس مع نفس هذه الفتاة[٨] ، إلا أنه استطاع اجتـــيازها حين وجد سلواه في العمل جنديا خارج البلاد . ويتراءى لا يسخيناس أن يفعل مثلما فعل سيموس ، ويستشير –في ذلك– صديقه الجندي ثيونيخوس[٩] . ويرحب ثيونيخوس بفكرة صديقه ، وينصحه بأن يختار العمل في جيش بطلميوس فيلادلفوس إذ أنه خير سيد يعطي أجرا إلـــى رجل حر[١٠]، فضلاً عن أنه حكيم ، محب للفنون ، مفطور على الحب ، يعرف صديقه من عـــدوه، جواد لا يرد سائلاً ، إلا أن ذلك يجب ألا يغري على كثرة السؤال[١١] . وتنتهي القصيدة الرابعة عشرة لثيوكريتوس بتشجيع من جانب ثيونيخوس لصديقه آيسخيناس يتمثل في عرضه المضي معه إلى مصر كي يلتحقا سوياً بجيش بطليموس فيلادلفوس[١٢] .

فـــي هـــذه القصيدة ، يلجأ ثيوكريتوس إلى الشكل الدرامي فيبني أركانه الرئيسية من عرض وأزمة وانفراج حتى يخلص إلى مديح بطليموس فيلادلفوس ، محاولاً تجنب الوقوع في مـــثالب المباشـــرة . وبيـــنما تقترب القصيدة من نهايتها تطل علينا كلمات المديح والإطراء ، لبطليموس فيلادلفوس ، التي وصفها بعض الدارسين بأنها من النوع المبتذل الممجوج[١٣] ، أو المفضوح[١٤] ، على أساس أنها مقحمة على السياق دونما ضرورة فنية .

علـــى أنـــه من الواضح أن الحديث عن كرم بطليموس وسخائه[١٥] . يجئ على لسان ثيونـــيخوس ، الذي عمل – فيما يبدو – جندياً مرتزقاً بمصر[١٦] . ومن هذه الناحية فإن حديث ثيونـــيخوس عن بطليموس يجئ نتيجة "منطقية" لقرار صديقه آيسخيناس العمل جندياً مرتزقاً ، إذ يجب أن يشير عليه بأفضل مكان يمكنه التوجه إليه . ولما كان الدافع إلى الخدمة في جيوش الدول الأجنبية هو الكسب المادي[١٧] ، فإن حديث ثونيخوس –بوصفه جندياً مرتزقاً – عن كرم بطليموس وسخائه ليس فيه ما يعيب من الناحية الفنية .

أمـــا وصـــف بطليموس بأنه حكيم. محب للفنون. يعرف صديقه من عدوه[١٨]، فعلى الـــرغم من إنها صفات لا تتصل من قريب بموضوع القصيدة ، إذ لا تفيد في شئ جندياً مرتزقاً يـــنوي العمل في جيش الملك ، فإنها تتصل –من الناحية الفنية– بالبناء الرمزي للقصيدة. إن آيســـخيناس الـــذي يفكر في طلب الرزق خارج البلاد ، إنما يرمز –هنا– إلى الشاعر ثيوكريتوس[١٩] ، ممـــا يعتبر بمثابة دعاية تخدم بطليموس في اجتذاب أهل الفن من الإغريق لتصبح مصر نقطة الإشعاع في العالم الهلينستي .

ولعلـــنا نخـــرج من نظرتنا إلى تلك القصيدة أن ثيوكريتوس قد تعلم –فيما يبدو– من تجربته السابقة مع هييرون ألا يكون مباشراً . أي لا يلجأ في التقرب من الملوك إلى التصريح الرخيص . وإنما إلى التلميح الذكي[٢٠] .

على أن البعد عن المباشرة ليس العامل الأوحد الذي أكسب – في رأينا– هذه القصيدة النجاح والتأثير . وإنما استمدتهما – كذلك– مما تضمنته من جوانب الصدق التاريخي فلقد كان بطلـــيموس فيلادلفوس – طبقاً للمؤرخ أبيان– منفقاً سخياً . وكانت خزائنه عامرة بثروة تقدر بـــ ٤٧٠,٠٠٠ تالنت[٢١] . ولقد فاق بطليموس فيلادلفوس في ثروته – طبقاً لاثينايوس– ملوكاً كثيرين[٢٢] . والواقع أن اشتهار مصر بالغنى ، واشتهار بطليموس بالكرم جعل جماعات كبيرة من الجنود المرتزقة تأتي إلى مصر[٢٣] . وتلتحق بالجيش البطلمي لتنعم بالأجر الوفير الذي لا تمنح نظيره سائر الجيوش الأخرى في العالم الهلينستي[٢٤] .

ومـــن الـــثابت تاريخـــياً أن مصر في العصر البطلمي تميزت – دون غيرها من بلدان العـــالم الهلينستي– بمنح الجنود المرتزقة اقطاعات من الأرض κλήρου يكون دخلها مرتبات لهـــم ، ويدعـــى هـــؤلاء أرباب الأقطاعات κληρουχοι[٢٥]. وكانت الفرصة سانحة أمام كل صـــاحب إقطـــاع يجـــتهد في زراعة أرضه أن يجني من ورائها خيراً وفيراً من زراعة العنب والـــزيتون والفاكهـــة ، وأن يضـــم إليها إقطاعيات من الأراضي الخاصة γή ιδιοκτητοs ، خاصـــة وأن الضرائب المفروضة على صاحب الإقطاع العسكري كانت أقل من المفروضة على الفلاح الملكي[٢٦] وكان نصيب الجندي المرتزق من هذه الإقطاعيات يتراوح ما بين عشرين إلى مائـــة أرورا[٢٧] ، ولم يكن من حق صاحب الإقطاع –قبل نهاية القرن الثالث ق.م– بيع أراضيه

أو توريــثها ، ولكــن جاز له تأجيرها وكان الملوك البطالمة يعوضون الجنود عن ابتعادهم عن الأرض أثناء الحرب بمنحهم راتباً ومكافآت ونصيباً في الأسلاب[٢٨] . وكان الجندي المرتزق – في مصر في العصر البطلمي– يتمتع بمسكن خاص يمنحه إياه الملك[٢٩] . وكان لدي كل جندي مرتزق عبد – على الأقل– يقوم على خدمته[٣٠] . ولا ريب أن كل هذه الميزات التي كان الجنود المرتزقة يحظون بها ، في مصر في العصر البطلمي قد جعلت منهم طبقة متميزة .

وفي ضوء هذه الحقائق التاريخية الثابتة عن ثراء مصر وكرم بطليموس ، وامتيازات الجنود المرتزقة ، فإن نصيحة ثيونيخوس لصديقه آيسخيناس بالعمل في جيش فيلادلفوس –إن شــاء الظفر بالأجر الوفير– هي نصيحة لا تنطوي على مغالاة أو مجافاة للحقيقة . ومن هنا قد لا يكــون وصــف هــذه الأبيات بالملق وصفاً دقيقاً ، لذا من الأوفق –في تقديرنا– أن نستخدم وصف "روستوفتزف" إياها بأنها قطعة دعائية[٣١] . والشيء نفسه يقال عن وصف ثيونيخوس الملــك بطلــيموس فيلادلفوس بأنه محب للفنون ، إذ من الثابت تاريخياً أن فيلادلفوس ، الذي تربى على يدي الشاعر فيليتاس[٣٢] ، كان يرعى الشعر والأدب والفن[٣٣] .

ونضــيف إلى ما تقدم عاملاً آخر أكسب قصيدة ثيوكريتوس الرابعة عشرة النجاح والتأثير ، وهــو حســن اختــيار موضوع القصيدة ، وتوقيت تأليفها . فالقصيدة تصور –كما بينا– محنة العاشق آيســخيناس الذي هجرته معشوقته ففكر في أن يجد سلواه في العمل جندياً خارج البلاد ، وعندئذ أشار عليه صديقه الجندي ثيونيخوس بأن يعمل في جيش بطليموس فيلادلفوس.

ومــن الناحية الفنية ، فإن اختيار العمل في الجندية –على وجه الخصوص– يتفق مع الجــو العــام للقصــيدة ، إذ أن معظم أصدقاء آيسخيناس جنود أو قريبي الصلة بهذه المهنة . فهــناك مــن الجنود "كلينيكوس" و"ثيونيخوس" و"سيموس" الذي مر بتجربة آيسخيناس وهناك "آجــيس" مــروض الجياد (أو تاجر الخيول) . ومن ناحية أخرى ، فإننا إذا وضعنا في الاعتبار حاجــة الجيش البطلمي الماسة إلى مزيد من آلاف الجنود وبخاصة في وقت نظم هذه القصيدة الــذي يتــزامن مــع اشــتعال الحرب السورية الأولى ، لأدركنا مهارة ثيوكرتيوس في اختيار موضــوع القصــيدة وتوقيت نظمها ، واهتدينا –في الوقت نفسه– إلى واحد من العوامل التي أكســبتها الــنجاح والتأثيــر . إن حــديث ثيوكــريتوس عن مزايا العمل في جيش بطليموس فيلادلفوس يعتبر بمثابة دعاية كان بطليموس فيلالفوس في حاجة إليها .

فإذا كانت القصيدة الرابعة عشرة قد لفتت أنظار بطليموس فيلادلفوس إلى ثيوكريتوس وجعلــته يقــربه إليه ، فإن ذلك يعزى –فيما نرى– إلى ما تميزت به تلك القصيدة من بعد عن المباشــرة . وقــدرة علــى المزج بين الصدق الفني والتاريخي ، ومهارة في اختيار موضوع القصــيدة وتوقــيت نظمها ، فضلاً عن أن بطليموس قد لمس في ثيوكريتوس قدرة بارزة على الدعاية لشخصه ولنظام حكمه .

الهـوامـــــــش

-١ Theoc.. Idy.. XVI. VV. 76 -89 .

استخدمت في هذه الدراسة نص طبعة كمبردج .

-٢ وقعت الحرب السورية الأولى في الفترة من ٢٧٥ ق.م – ٢٧٢ ق.م .

-٣ Theoc.. Idy.. XVI. VV. 5 -60 .

-٤ Ibid.. v. 66 ff .

-٥ A.S.F. Gow, op. cit., Vol.11, p.305

-٦ Theoc.. Idy.. XVI. VV. 76 -89 .

-٧ Ibid.. vv. 2-9 .

أســهب شــعراء عصر الإسكندرية –وعلى رأسهم ثيوكريتوس– في وصف أعراض الحب الفسيولوجية كما لو كان مرضاً يعتري الجسم ، ويعذب النفس . أنظر :

د. محمد حمدي إبراهيم ، الأدب السكندري، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة عام ١٩٨٥، ص١٧٣ .

Michael Grant. From Alexander to Cleopatra, The Hel lenistic World. P. 209.

-٨ مــن الواضــح أن هذه الفتاة كانت تمتهن البغاء ، إذ أن اسم Κύνισκα ينتسب إلى اسم Κύννα الذي كان اسماً مألوفاً يطلق على الخليلات . ولقد أراد ثيوكريتوس الإشارة إلى مهنة هذه الفتاة عندما أختار لها ذلك الاسم ، انظر :

A.S.F. Gow. Theocritus, Edited With A Translation and Commentary, Vol. II, Cambridge University pr., p.,245, Note 9, p.252 Note 21 .

-٩ Theoc..Idy. XIV. VV. 52-56.

-١٠ Ibid.. v. 59 .

-١١ Ibid.. vv. 61-64 .

-١٢ Ibid.. v. 55 ff .

تعكــس الآثــار الباقية شيوع استخدام الجنود المرتزقة بمصر في ذلك العصر ، كما نستدل على ذلك من أحد شــواهد القــبور مــن مقابر الشاطبي بالإسكندرية ، الذي يصور فارس مرتزق من الجيش البطلمي . انظر الشكل رقم (١) .

-١٣ فيلــيب امــيل لجران ، الأدب اليوناني في عصر الإسكندرية ، شعر الإسكندرية، ترجمة محمد صقر خفاجه ، مكتبة النهضة المصرية ، عام ١٩٥٢ ، ص ص ٥٣-٥٤ .

-١٤ د. محمد حمدي إبراهيم ، المرجع السابق ، ص١٧٤ ، ص٢٧٣ .

-١٥ Theoc .. Idy. XIV V. 59, vv. 63-64 .

-١٦ A.S.F. Gow. Op. cit, p.247, Note 1.

-١٧ F.E. Adcock, The Greek And Macedonian Art of War, pp.19-20.
A.R. Hands. Charities And Social Aid in Greece And Rome .pp. 68 – 69 .
Yvon Garlan, War in The Antient World, A Social History, p. 93 .

ونستدل مما وقع في ٣٠٦ق.م أن دافع الجندي المرتزق إلى الخدمة في الجيوش الأجنبية كــان دافعــاً ماديــاً فحسب . فعندما حاول انتيجونوس وديمتريوس غزو مصر – في ذلك الوقت – لجأ بطليموس إلى حيلة ذكية لإضعاف جيشهما إذ أصدر قراراً بمنح مائة دراخمة للجــندي و٦٠٠٠ دراخمة للضابط الذي يترك جيش أنتيجونوس وديمتريوس وينضم إلى جــيش بطليموس الأول . ولاقى عرض بطليموس صدى كبيراً بين الجنود والضباط الذين

تــركوا جــيش المعتدي وانضموا إلى جيش المعتدى عليه وبذلك تحقق النصر لبطليموس الأول ، انظر :

H.W Parke, Greek Mercenary Soldiers from the Earliest Times to the Battle of Ipsus, p. 217.

١٨- Theoc .. Idy. XIV vv. 61-62.

١٩- J.M. Edmonds, op. cit, p. X.

ولا نجـد فـي القصيدة الدرامية الخامسة عشرة طلباً صريحاً للمال ، وإنما تلميحاً ذكياً إلى ثــراء مصــر ورخائهــا (البيت ٩٥ وما بعده) . وعلى الرغم من ظهور شخصية الشاعر في قصــيدته السادسة عشرة ، في مديح بطليموس ، فإننا لا نجده -أيضاً- يطلب المال صراحة ، وإنمــا يكتفــي بالإشــارة إلى أن بطليموس كريم مع الملوك والمدن ومع أصدقائه المخلصين (الأبيات ١١٠ - ١١١) .

٢٠- Appian, Prooem, 10.

ويرى "روستوفتزف" أن هذا الرقم ينطوي على مبالغة قصد أبيان من ورائها إلى التعبير عن ضخامة ثروة فيلادلفوس . انظر :

M. Rostovtzeff, The Social And Economic History of The Hellenistic World, Vol. 11, p. 1152.

٢١- Athen.. v, 203C.

٢٢- د. مصطفى العبادي ، مصر من الإسكندر حتى الفتح العربي ، ص٤٨ .

٢٣- Mostafa El-Abbadi, The life and Fate of The Ancient Library of Alexandria, p.46.

٢٤- M.Rostovtzeff, op. cit.. Vol. I.. p. 284.

٢٥- Ibid. pp. 326 - 327.

٢٦- تُقدر الأرورا بحوالي ٢٨٠٠م .

٢٧- Yvon Garland, op. cit., p. 98 - 99.

٢٨- Claire Preaux, L'economic Royale de Lagides, p.31.

٢٩- M.Rostovtzeff, op. cit.. Vol. II.. p. 1260.

٣٠- M.Rostovzeff, op. cit.. Vol. I.. p. 407.

٣١- P.M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, Vol. I. P. 309.
Elizabeth M. Craik, The Dorian Aegean, p.82.

٣٢- د. مصطفى العبادي ، مكتبة الإسكندرية القديمة ، ص١٢ ، ص٢١٩ .

د. عبد الله المسلمي، كاليماخوس القوريني شاعر الإسكندرية، ص ص٧١-٧٥

مراجع الدراسة

أولاً : المصادر القديمة والمراجع الأجنبية :

- A.R. Hands. Charities And Social Aid in Greece & Rome, Thames& Hudson, London, 1968 .
- Appian, Edited with an English Translation By Horace White, Vol.I, L.C.L.,1972 .
- Athenaeus, Edited With an English Translation By, Charles Burton Gulik, Vol. II, L.C.L. 1929 .
- Claire Preaux, L'economic Royale de Lagides, Bruxelles,1939 .
- Elizabeth M. Craik, The Dorian Aegean, Routledge & Kegan paul, London, 1980 .
- F.E. Adcock. The Greek and Macedonian Art of War, University of California pr. 1957 .
- H.W Parke, Greek Mercenary Soldiers from the Earliest Times to the Battle of Ipsus, Oxford University press, 1933 .
- J.M. Edmonds, the Greek Bucolic poets, with an English Translation L.C.L.,1912.
- M.Rostovtzeff, The Social & Economic History of The Hellenistic World, 3 Volumes, Oxford University pr., 1941.
- Michael Grant. From Alexander to Cleopatra, The Hellenistic World. New York, 1982.
- Mostafa El-Abbadi, The Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria, UNESCO/UNDP, 1990 .
- P.M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, Vol. I. Oxford University pr., 1972.
- Theocritus, Edited with A Translation and Commentary in two Volumes, by A.S.F. Gow Cambridge University Pr., 1950 .
- Yvon Garlan, War In The Ancient World, Social History, Translated from the French by, Janet Lloyd, Chatto& Windus, London, 1975 .

ثانياً : المراجع العربية والمترجمة :

- إبـــراهيم (د. محمـــد حمـــدي) ، الأدب السكندري ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٥ .
- العـــبادي (د. مصـــطفى عـــبد الحميد) ، مصر من الإسكندر حتى الفتح العربي ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٥ .
- نفـــس المؤلـــف ، مكتبة الإسكندرية القديمة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٧ .
- لجـــران (فيلـــيب أميل) ، الأدب اليوناني في عصر الإسكندر ، شعر الإسكندرية ، ترجمة د. محمد صقر خفاجة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٢ .
- المســلمي (د. عـــبد الله) ، كالـــيماخوس القوريني شاعر الإسكندرية ، منشورات الجامعة الليبية ، ١٩٧٣ .

٩- مؤثرات* سكندرية في شعر بروبرتيوس

أ.د. ماجدة النويعمي

أستاذ الدراسات اليونانية والرومانية

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

تُعنـــى هـــذه الدراسة بإيضاح مسألة على قدر عظيم من الأهمية ، وهي مسألة تأثير مدرسة الإسكندرية الأدبية على ما تلاها من أدب ، فعظمة مدرسة الإسكندرية لم تقتصر على ما حققـــته مـــن منجـــزات أثناء فترة ازدهارها فحسب ، بل تخطتها زمانياً ومكانياً ، بحيث صار لمدرســـة الإســـكندرية امتداد عند شعراء روما خاصة في القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد المـــيلاد. خلقـــت مدرســـة الإســـكندرية ذوقاً جديداً كان له تأثير في تغيير كثير من التصورات والمفاهيم الأدبية . واستطاعت هذه المفاهيم أن تفرض نفسها إلى مدى بعيد على الحياة الأدبية فـــي روما[١]. ومن هنا فدراسة المؤثرات السكندرية لدى الشعراء الرومان هي في ذات الوقت إسهام في إبراز عظمة مدرسة الإسكندرية الأدبية.

ســـار التجديد جنباً إلى جنب مع القديم في الإسكندرية ، بل واختصما[٢] كما حدث بين الشـــاعرين كاليماخوس Callimachus [٣] ، وأبولونيوس Apollonius[٤] ، ولكن ما انجذب إليه الرومان بصفة خاصة هو اتجاه المجددين ، وعلى رأسهم كاليماخوس [٥]. وكان حتماً أن يبقى للإســـكندرية كثيـــر مـــن النفوذ في أدب الرومان ، فحدث في روما في نهاية القرن الأول قبل المـــيلاد ما يشبه الثورة الفكرية ، قام بها مجموعة من الشعراء الشبان أطلق عليهم "الشعراء الجدد" أو "الشعراء المجددون"[٦] وهم من تمثلت الإسكندرية في أشعارهم [٧]. ولست مبالغة لو قلت إنه بدون الإسكندرية لجاء الأدب الروماني مختلفاً كل الاختلاف عما هو عليه الحال.

يطـــول بنا المقام لو استقصينا جميع المؤثرات السكندرية لدى الشعراء الرومان ، لذا فقـــد آثـــرت أن أتـــناول أحد أبرز الشعراء الذين أحيوا الإسكندرية في شعرهم ، وهو الشاعر الإليجـــي بروبـــرتيوس Propertius[٨] ، الـــذي كان بطبعه أميل إلى ذوق الإسكندرية ، وكان لمدرســـتها أثرها الكبير والواضح في كثير من أفكاره وأسلوبه الشعري ، على نحو ما سنرى. جـــاء تأثـــر بروبـــرتيوس بالإســـكندرية بوسيلتين : الأولى هي تأثر مباشر من جراء قراءاته المباشـــرة فـــي شـــعر كل من كاليماخوس وفيليتاس Philetas [٩]. والوسيلة الثانية من خلال الشعراء الرومان المجددين في أواخر عصر الجمهورية ، وهم من يُطلق عليهم شعراء الحركة الســـكندرية في روما ، على نحو ما أوضحت. ورغم أن بروبرتيوس جاء في جيل تال لهؤلاء، إلا أن الميول السكندرية انتقلت إليه عن طريقهم.

كـان بروبـرتيوس فـناناً مدركاً لذاته أيما إدراك ، ومدركاً لقدسية رسالته كشاعر ، ومفاخـراً بفـنه الأدبـي[10]. اتجه إلى الكتابة في فن الإليجية ، وهو فن له دعائمه القوية في مدرسـة الإسـكندرية الأدبـية[11] ، حتـى وإن لـم يكـن السكندريون أول من نظم فيه. نظم بروبـرتيوس أربعـة كتب في الفن الإليجي ، وهو الفن الذي عبـر فيه الشعراء الرومان عن مكـنون أنفسـهم ، وعـن مشاعرهم العاطفية الخاصة[12]. لم يكن شعر بروبرتيوس يعبر فقط عـن خواطر وجدانية ، بل عبر أيضاً عن ثقافة واسعة ودراية بالآداب السابقة[13]. وفي عديد من المواضع حرص بروبرتيوس على تأكيد ميله الأدبي تجاه هذا الفن دون سواه ، فهو يرفض الكـتابة الملحمـية بكل ما يحف بها من إغراءات المجد والشهرة وإرضاء الإمبراطور الحاكم، فمـيوله الخاصة تتجاوز ميول الحاكم ونظامه[14]. خصص بروبرتيوس الكتابين الأولين للحديث عـن تجربته العاطفية ، ولكن منحى آخر ما لبث أن ظهر في آخر قصيدة بالكتاب الثاني. تمثل هـذا المنحـى في الاتجاه نحو الإسكندرية. فيختتم هذه القصيدة موجهاً حديثه إلى شاعر آخر صـديق له ، هو لينكيوس Lynceus [15] ، ناصحاً إياه بالكتابة في الفن الإليجي ، وتقليد اثنين من أكبر شعراء الإليجية في الإسكندرية ، فهما الجديران بالتقليد . يقول بروبرتيوس:

Quid tua Socraticis tibi nunc sapientia libris.
    Proderit aut rerum dicere posse vias? [16]
Aut quid Cretaei tibi prosunt carmina plectri? [17]
    Nil iuvat in magno vester amore senex.[18]
Tu satius Musis leviorem imitere Philitan
    Et non inflati somnia Callimachi. [19]

(Prop. 2. 34. 27-32)

"بماذا ستفيدك الحكمة التي استقيتها من كتب سقراط؟ وبماذا تفيدك مقدرتك على قول الأشياء المتعلقة بالكون؟ وبماذا تفيدك أغاني القيثارة الكريتية؟ شاعرك القديم لا يقدم المساعدة في الحب الكبير. الأفضل لربات فنك أن تقلد فيليتاس وحلم كاليماخوس غير الطنان".

يحـاول بروبرتيوس أن يقنع صديقه بأن يهجر الفلسفة والعلم الطبيعي ، ويحجم عن الملحمـة والتـراجيديا بغية الاتجاه نحو الإليجية السكندرية. ولا يجد الشاعر حرجاً من إعلان تفضـيله للإسـكندرية على كتابات سقراط . ومنذ ذلك الوقت انبرى بروبرتيوس لمدح شاعري الإسكندرية الكبيرين: كاليماخوس وفيليتاس ، فهما محط إعجابه.

ومما يجدر بالذكر في هذا المقام أن بروبرتيوس بعد نشر كتابه الأول جذبه مايكيناس Maecenas لدائـرته الأدبـية ، وهي الدائرة التي تمثل البلاط ، علّه يستطيع أن يوجه إمكانات الشـاعر الأدبـية . ورغم كون هذا الأمر مألوفاً بين الشعراء الرومان ، إلا أن مردوده هو ما يعنينـي هنا ، فدخول هذه الدائرة له تبعات ، حيث صار الشاعر مطالباً بخدمة النظام الحاكم ، وإرضـاء الـذوق التقليدي . غير أن محاولات إقناع بروبرتيوس بتغيير مساره الشعري ذهبت

ســدى وظــل الشاعر على عقيدته السكندرية. ومن الطريف الذي لا يخلو من دلالة أن رفض بروبــرتيوس للسياســة وللكــتابة فــي ملحمــة تمجد الإمبراطور صار قريناً بتحوله إلى الفن الســكندري. لــم يــرغب بروبرتيوس في كتبه الثلاثة الأولى أن يكرس قلمه لمدح الإمبراطور وخدمة نظامه ، والبديل الذي وجد نفسه متفتحة للحديث عنه هو المبادئ النقدية التي نادى بها كاليماخوس[٢٠]. فكلما زادت الهوة بينه وبين الحاكم ، كلما حاول أن يدنو من كاليماخوس ، أي أنه كلما ازداد رفضاً للنظام الحاكم كلما ازداد قبولاً للفكر النقدي لكاليماخوس[٢١]. ورغم إدراكي لحقــيقة كون كاليماخوس أحد شعراء الملق في الإسكندرية ، فقد تملق الملك بطلميوس الثاني فــي أناشــيده لزيوس Zeus ، وأبولو Apollo ، وديلوس Delos . وقد ذهب في تملقه إلى حد الإســراف ، إلا أن بروبــرتيوس لــم يتأثر بهذا الجانب . وحين أقول إنه دنا من كاليماخوس فأعنــي بــذلك دنــوه من المبادئ النقدية التي أرساها كاليماخوس باعتباره على رأس مدرسة المجــددين بالإسكندرية . ولذلك فحين حاول بروبرتيوس تقديم اعتذاره عن التغني بالإمبراطور ونظامــه في أشعاره ذكر أن ما يناسب موهبته هو السير على نهج كاليماخوس السكندري[٢٢]. ومن هنا بدت الإسكندرية في شعره كما لو كانت تقف في مقابل روما، وهو الشاعر الروماني . ولــم يكــن ذلك بغريب على شاعر وصف نفسه بأنه "كاليماخوس الرومانــي"[٢٣] على نحو ما سنرى . وقد فاق بهذا الوصف سائر الشعراء الرومان.

يســتهل بروبــرتيوس الكــتاب الــثالث بإعلان نيته بأن يسير على نهج كاليماخوس وفيليــتاس[٢٤] فــي الأسلوب والموضوعات ، فيطالعنا في القصيدة الأولى من هذا الكتاب[٢٥] بمخاطــبة روحي كاليماخوس وفيليتاس ليسمحا له بالدخول في غابتهما المقدسة، أي في الفن الإليجي الذي نظما فيه. يقول بروبرتيوس:

Callimachi Manes[٢٦] et Coi sacra[٢٧] Philitae,
In vestrum, quaeso, me sinite ire nemus[٢٨]
Primus ego[٢٩] ingredior puro de fonte[٣٠] sacerdos
Itala per Graios orgia ferre choros.
Dicite[٣١], quo pariter carmen tenuastis[٣٢] in antro
quove pede ingressi?[٣٣] quamve bibistis aquam?[٣٤]
(Prop. 3.1.1-6)

"أي روحــي كاليــماخوس وفيليتاس الكوسي وشعائرهما المقدسة ، أطلب منكما أن تسمحا لي بدخــول غابــتكما ، فأنا أول من قدمت خطاه من النبع الصافي ، كاهنا يحمل الشعائر الإيطالية خــلال الرقصــات اليونانية. اذكرا لي من أي كهف غزلتما معاً الخيوط الدقيقة لأغانيكما ؟ بأي بحر شعري أدخل لكما؟ ومن أي ماء أشرب؟"

هكـذا رفـع بروبرتيوس شاعري الإسكندرية إلى مصاف الأبطال المؤلهين الذين تقدم إليهم الشعائر. بالإضافة إلى أن دور كاليماخوس وفيليتاس في مقدمة هذه القصيدة مماثل لدور ربـات الفن مصدر الإلهام. وإذا كان بروبرتيوس قد استبدل ربات الفن بالشاعرين السكندريين فـي عملية الإلهام فهذا ينم عن مكانة هذين الشاعرين. ثم يمضي بروبرتيوس متحدثاً عن فنه الشـعري السـكندري الذي سيجعل شهرته تحلق في الآفاق ، وسيرفعه من الأرض إلى عنان السـماء. وبكلمـات تحمل الكثير من المدلولات المرتبطة بمنهج كاليماخوس في النقد الأدبي ، يوجه بروبرتيوس اعتذاره إلى روما قائلاً:

Multi, Roma, tuas laudes annalibus addent,

Qui finem imperii Bactra(٣٥) futura canent.

Sed, quod pace legas, opus hoc de monte Sororum (٣٦)

Detulit intacta(٣٧) pagina nostra via.

Mollia(٣٨), Pegasides(٣٩), date vestro serta poetae:

Non faciet capiti dura(٤٠) corona meo.

(Prop.3.1.15-20)

"كثيـرون يـا رومـا سيضيفون مدائح إلى حولياتك، وهم الذين سيتغنون بباكترا المقبلة كحد للإمبـراطورية. ولكـن عملـي هذا الذي تقرأينه في وقت السلم ، جاءت به صفحتي من جبل الأخوات ، خلال طريق لم يطرق من قبل. أيا ربات الفن فلتمنحن شاعركن إكليلاً رقيقاً ، فإكليل الملحمة لن يناسب هامتي".

وهـنا ، مـثل عديـد من المواضع الأخرى ، لعبت بخيال بروبرتيوس مقدمة قصيدة كاليماخوس المسماة "الأسباب" Aetia ، والتي أعلن فيها كاليماخوس رفضه للملحمة التقليدية ، وللسـير علـى الـدرب الشـائع الذي يسير عليه الكثيرون ، وتفضيله للطرق غير المرتادة ، وللطريق الضيق الذي لا تسير فيه العربات الكبيرة. يقول كاليماخوس:

"اسلك طريقاً لا تسلكه العربات الكبيرة ، ولا تسر بعربتك في طرق عامة يسلكها الآخرون ، ولا في طريق واسع ، وإنما في طريق جديد ولو كان ضيقاً".

("الأسباب" ١/٢٥ وما بعدها)

ومـن هـنا اسـتخدم بروبـرتيوس فـي عديد من السياقات الصفات المرتبطة بشعر كالـيماخوس القصير(٤١)، فكاليماخوس الذي تجنب الملحمة وعالج الموضوعات الخفيفة وصف في إحدى قصائد بروبرتيوس بأنه شاعر "ذو قلب محدود".(٤٢)

ولـو أردنا أن نتمثل بقصيدة نموذجية أخرى لتأثر بروبرتيوس في برنامجه الشعري بالإسـكندرية، لكانـت القصيدة الثالثة من الكتاب الثالث من أنسب الأمثلة.(٤٣) يبدأ بروبرتيوس

هــذه القصيدة بحلم على غرار حلم كاليماخوس[44]، مع الاختلاف. فقد "رأى بروبرتيوس نفسه مضطجعاً في ظل جبل الهليكون" ، مقر ربات الفن:

Visus eram molli recubans Heliconis in umbra,
(Prop. 3.3.1)

يكتب في موضوعات ملحمية ، أسطورية وتاريخية ، وكاد أن يشرب من ذات النبع الذي شرب منه الشاعر الملحمي الروماني القديم إينيوس Ennius :

Parvaque iam magnis admoram fontibus ora
Unde pater sitiens Ennius ante bibit,
(Prop.3.3.5-6)

"مــا أن وضــعت شفتي الصغيرتين[45] على الينابيع العظيمة[46] التي شرب منها من قبل الأب إينيوس وهو ظمآن" .

مستمداً الإلهام كي يتغنى بالتاريخ الروماني، حتى رآه أبولو ، إله الشعر[47] فصاح فيه:

Quid tibi cum tali, demens, est flumine? Quis te
Carminis heroi tangere iussit opus?
Non hinc ulla tibi speranda est fama, Properti:
Mollia sunt parvis prata terenda rotis;
(Prop. 3.3.15-18)

"يالك من مجنون . ما شأنك بهذا النهر؟[48] من أمرك أن تقترب من مهمة الشعر البطولي؟ أي بروبــرتيوس، ينبغــي علــيك ألا تــتطلع إلى أية شهرة من هنا فالعشب الناعم ينبغي أن تطأه العجلات الصغيرة". [49]

عــن طــريق تــدخل أبولو وتحذيره لبروبرتيوس من القيام بما يتعارض مع موهبته المحــدودة ذات الطابــع الخفيف ، فقد وضعت الإسكندرية في مقابل الشاعر الروماني إينيوس الــذي كان يلقى التقدير من الشعراء الرومان ، خاصة في العصر الأغسطي. ويستمر بروبرتيوس في تصــوير حــديث أبولــو مســتخدماً مفــردات تشير إلى إعتذار كاليماخوس الشهير عــن عدم الكتابة الملحمية [50]، الوارد في مقدمة قصيدته "الأسباب" ، على نحو ما رأينا. ويتساءل أبولو مستنكراً:

Cur tua praescriptos evecta est pagina gyros?
(Prop.3.3.21)

"لماذا خرجت صفحتك عن المسارات المحددة لها؟"

ثم يقدم أبولو لبروبرتيوس النصيحة الكاليماخية التالية :

Non est ingenii cumba gravanda tui
(Prop. 3.3.22)

"قارب موهبتك ينبغي ألا يُثقل بالأحمال".

ويقود بروبرتيوس، إلى طريق ضيق جديد:

Nova .... Semita (26) [51]

يــؤدي إلـــى غابـــة ربـــات الفـــن. وفي نهاية القصيدة يتصور بروبرتيوس ربة الفن كاليوبي Calliope تـــوجه إلـــيه حديثاً مشابهاً لحديث أبولو (الأبيات ٣٩-٥٠) كي يقلع عن التفكير في الكتابة الملحمية ويتجه صوب الإليجية[٥٢]. وينهي بروبرتيوس قصيدته بقوله:

Talia Calliope, lymphisque a fonte petitis
Ora Philitea nostra rigavit aqua.
(Prop.3.3.51-52)

"هكذا بعد أن أحضرت كاليوبي الماء من النبع، بللت شفتيّ بمياه فيليتاس" [٥٣]

وفي مقابل هذه المواضع التي تتجلى فيها المؤثرات السكندرية إلى أقصى مداها، نجد بروبـــرتيوس نادراً ما يتخذ أمثلته من الأدب الروماني السابق ، فقد رفض أن يحصر نفسه في تقاليد الأدب الروماني القديم ، لما في ذلك من الحد من حريته وانطلاقه، ولهذا أشاح بوجهه ، كما رأينا ، عن إينيوس الذي يعد " أبا الأدب الروماني" وقبلة الشعراء الرومان.[٥٤]

ورغـــم أن بروبـــرتيوس ينتمي لدائرة مايكيناس الأدبية ، ورغم أن مايكيناس بصفته راعياً للأدب يقدم العون المادي والمعنوي لأدباء دائرته ، إلا أن بروبرتيوس لم يتحدث عنه إلا فـــي قصـــيدتين اثنتين[٥٥] فقط من مجموع قصائده التي يقترب عددها من المائة قصيدة ، في الـــوقت الـــذي بالغ فيه في الإشارة إلى كاليماخوس السكندري تصريحاً أو ضمناً في العديد من المواضـــع في أشعاره ، حتى أنه ليبدي إزاء تكراره نوعاً من الإصرار على الإسكندرية . ومن الطـــريف أن يجـــتمع كاليماخوس مع مايكيناس في قصيدة واحدة ، وهي القصيدة التاسعة من الكـــتاب الـــثالث: كاليماخوس الذي يمثل ميول بروبرتيوس السكندرية ، ومايكيناس الذي يمثل الـــبلاط الإمبـــراطوري الرومانـــي والنظام الحاكم. وهذه القصيدة هي نوع من قصائد الاعتذار الشائعة بين الشعراء الأغسطيين، والإليجيين منهم بصفة خاصة.

يخاطب بروبرتيوس مايكيناس في هذه القصيدة متسائلاً باستنكار:

Quid me scribendi tam vastum mittis in aequor?
Non sunt apta meae grandia vela rati.
(Prop.3.9.3-4)

"لمـــاذا تدفـــع بـــي إلـــى ذلـــك البحر الشاسع من الكتابة؟ فالأشرعة الضخمة لا تناسب قاربي الصغير".[٥٦]

وفي ذات القصيدة يعدد بروبرتيوس كثيراً من الموضوعات الملحمية المتعلقة بالحروب، والتي يرفض الكتابة فيها ، ويختتم بقوله:

Inter Callimachi sat erit placuisse libellos [٥٧]
Et cecinisse modis, Coe poeta, tuis.
Haec urant pueros, haec urant scripta puellas
Meque deum clament et mihi sacra[٥٨] ferant!
(Prop. 3.9.43-46)

"ســوف يرضيني أن أسعد بوجودي بين كتب كاليماخوس الصغيرة ، وأن أنشد يا شاعر كوس (أي فيليــتاس) فــي البحــر الشعري الذي نظمت فيه ، ولتشعل كتاباتي هذه الفتيان والفتيات ، ولينادوا بي إلهاً ، وليحملوا لي الطقوس والقرابين".

فــي الوقت الذي يعتذر فيه بروبرتيوس لمايكيناس عن كتابة ملحمة بناء على طلبه ، يحــيطه علمــاً بأنـــه يكفيه أن تحتل كتاباته مكاناً بين كتب كاليماخوس ، وأن يكتب على نهج فيليــتاس . ومن وجهة نظر بروبرتيوس فسوف يرتفع إلى مصاف الآلهة بأشعاره التي نظمها على نهج شاعري الإسكندرية الكبيرين.

وهكذا كان هناك دائماً عنصران يتجاذبان بروبرتيوس كل في اتجاه: ميوله الأدبية نحو الإســكندرية مــن جهـــة ، ومن جهة أخرى النظام الحاكم بمتطلباته . وأخيراً قدم بروبرتيوس محاولة للتوفيق بين هذين العنصرين في كتابه الرابع والأخير. لم يكن هذا الكتاب خروجاً على المــبدأ العــام الذي اقتنع به اقتناعاً ذاتياً وهو الكتابة في الشعر الخفيف، ولكن ربما أن إلحاح ظــروف العصر من جهة، ورغبته في تأكيد اقتداره على مجاراة كاليماخوس في فنه السكندري من جهة أخرى حددا اختياره لموضوع الكتاب الرابع واسلوب المعالجة فيه.

تنقسم آراء لنقاد فيما يتعلق بالكتاب الرابع إلى قسمين متباينين أيما تباين:

١- هــناك رأي بــأن هــذا الكــتاب له دلالة وطنية حقيقية مختلفة عن أشعار بروبرتيوس السابقة.(٥٩)

٢- أمــا الــرأي الثاني فيرى أن الكتاب الرابع ما هو إلا امتداد لشعر بروبرتيوس العاطفي السابق.(٦٠)

ولكــن من دراسة الكتاب الرابع نستطيع أن نلمس معالجة مختلفة عن تلك الموجودة بالكتب الثلاثة الأولى:

أولاً: لم يسد موضوع الحب في الكتاب الرابع كما كان من قبل ، وإنما جاء في عدد محدود فقط من القصائد.

ثانياً: أن محبوبــته كينثــيا Cynthia التــي سيطرت على الكتب الأولى لم تظهر سوى في قصــيدتين اثنتــين فقــط مــن الكتاب الرابع هما السابعة والثامنة. ورغم ذلك يختلف تصوير بروبرتيوس لعاطفته فيهما عما هو وارد بالكتب الأولى.

ثالثاً: تناول بروبرتيوس في الكتاب الرابع نوعاً جديداً من الحب لم يتطرق إليه من قبل وهو حسب الــزوجة الوفية لزوجها مثل أريثوزا Arethusa (في القصيدة الثالثة من الكتاب الــرابع)، وكورنيليا Cornelia (في القصيدة الحادية عشرة من الكتاب الرابع). ويأتي هــذا التصــوير علــى النقيض مما أعلنه بروبرتيوس في الكتب الأولى برفض مسألة الزواج وتكوين أسرة.

ولكنـــي أرى في الكتاب الرابع توجهاً جديداً رومانياً- سكندرياً. فقد وجد بروبرتيوس الحـــل في إليجيات يتحدث فيها عن أصول العادات والتقاليد الرومانية وأصول الطقوس الدينية. وهـــذا النوع من الكتابة موجود في قصيدة كاليماخوس الإليجية الشهيرة "الأسباب". وهذا النمط يشـــبع ميول بروبرتيوس السكندرية ويمنحه الفرصة ليكيف مبادئ كاليماخوس الفنية لأغراضه الأدبية[٦١] من ناحية، ويكيفها كذلك لخدمة روما من ناحية أخرى ، فيتحدث عن الآلهة الإيطالية والأســـاطير الـــرومانية. أي أنـــه حتى حين يكتب في الموضوعات الرومانية فهو يخدم روما بطـــريقة سكندرية ، وهذه نقطة لافتة للانتباه تتجلى في خلط بروبرتيوس الدائم بين العنصرين السكندري والروماني في هذا الكتاب الأخير:

Moenia namque pio coner disponere versu:
Ei mihi, quod nostro est parvus in ore sonus![٦٢]
Sed tamen exiguo[٦٣] quodcumque e pectore rivi [٦٤]
Fluxerit, hoc patriae serviet omne meae.
Ennius hirsuta[٦٥] cingat sua dicta corona:
Mi folia ex hedera porrige, Bacche, tua,
Ut nostris tumefacta superbiat Umbria[٦٦] libris,
Umbria Romani patria Callimachi!
(Prop.4.1.57-64)

"ســـأحاول أن أضع قلاع روما في شعر ورع: يا لشأني ، فصوت خفيض في فمي! ولكن أياً ما يكـــون المجـــرى المائي الصغير الذي سيتدفق من صدري الضيق، فسيخدم هذا كله وطني. دع إينـــيوس يـــتوج أشـــعاره بإكلـــيل غير مصقول : أي باكوس فلتمنحني أوراقاً من نبات العليق المفضل لديك ، حتى تفاخر أومبريا مزهوة بكتبي، أومبريا موطن كاليماخوس الروماني".[٦٧] مـــثلما تـــزهو أومبريا مفعمة بالتفاخر بكاليماخوس الروماني ، فبروبرتيوس أيضاً يزهو مفعماً بالتفاخـــر بفـــنه الســـكندري. وهكـــذا يعلن بروبرتيوس أنه سيكتب ليس على طريقة إينيوس الملحمية ، وإنما بأسلوب كاليماخوس.

ويخاطب كاليماخوس الروماني مدينته ، روما ، قائلاً:

Roma, fave, tibi surgit opus; date candida, cives,
Omina; et inceptis dextera cantet avis!
Sacra deosque canam et cognomina prisca locorum
(Prop. 4.1.67-69)

"أيـــا رومـــا، فلتحييني ، فعملي يشمخ من أجلك، أيها المواطنون امنحوني البشائر الميمونة، وليشدو طائر اليمين بمنجزاتي. سأنشد عن الطقوس والآلهة والأسماء القديمة للأماكن".

بالـــرغم من النغمة الرومانية الظاهرة في الأبيات السابقة، إلا أن البيت الأخير (٦٩) يظهـــر نـــوايا بروبرتيوس الكاليماخية ، فهو يعلن أن تبعيته لكاليماخوس ليست تبعية ظاهرية

فقط، وإنما سيسير المضون على نمط قصيدة كاليماخوس. سيقدم كاليماخوس الروماني قصيدة "الأسباب" Aetia الرومانية. [١٨]

لــم تتوقف مؤثرات الإسكندرية على بروبرتيوس عند هذا الحد بل تجاوزته إلى العديد مــن المظاهــر الأخرى التي تحتاج إلى دراسة مستقلة[١٩] ولكنني اكتفيت هنا بالمؤثرات التي تــتعلق ببــرنامجه الشــعري كما أعلنه، ومنه اتضح كيف ظفرت مدرسة الاسكندرية بأثر قوي مزدوج في عصرها وفي العصر الذي تلاها.

الهـوامش

• لما كانت المؤثرات السكندرية في شعر بروبرتيوس تحتاج دراسة مستفيضة تخرج عن حدود المقال الواحد، لذا آثـرت في مقالي هذا أن أتناول بعضاً من هذه المؤثرات، وهي المتعلقة ببرنامجه الشعري الذي أعلنه. وعلى هذا قصدت أن يكون العنوان: "مؤثرات سكندرية" وليس "المؤثرات السكندرية".

١ – مـن اللافـت للانتـباه فـي السنوات الأخيرة ظهور بعض الدراسات الحضارية الجادة التي تبتعد عن فكرة المركـزية الأوربـية بحثاً عن المؤثرات الشرقية في الحضارة الرومانية، من ذلك على سبيل المثال الدراسة الحضارية الجادة التي قدمها واروبك بال ، في مجلد ضخم يربو على الخمسمائة صفحة:

Warwick Ball, Rome in the East (Routledge 2000).

تحـدث في مقدمته عن افتتان روما بالشرق ، وكيف أن الشرق حول روما ، بحيث صارت قصة روما هي قصة الافتتان بالشرق، افتتان وصل إلى حد التسلط والاستحواذ.

٢ – بعـد أن تـزعمت الإسكندرية المراكز الأدبية الأخرى، فكر الشعراء العلماء بالإسكندرية في إعطاء مدرستهم شخصـية خاصـة بها، ومن هنا شغلوا أنفسهم بمسألة علاقتهم بالقديم: أولاً إلى أي حد يمكن الاعتماد على القـديم؟ ثانياً كيف يمكن تكييف الأشكال القديمة كي تتناسب والعصر الجديد؟ ومن هنا نشب نزاع أدبي بين فريقين بالإسكندرية ، كان لهذا النزاع أهميته في علم النقد بالإسكندرية.

١ – فريق المحافظين الذي يرى ضرورة المحافظة على التراث القديم والسير على منواله ، مع إظهار بعض سمات العصر من خلاله.

٢ – فـريق المجـددين الـذي درس التـراث القديم . لكنه حاول إنتاج شعر جديد يتناسب مع العصر واتجاهاتـه ، ودعا هذا الفريق إلى استقلال مدرسة الشعر السكندري فتكون لها سماتها المستقلة ولا تفرط في محاكاة القدامى . عن المعركة الأدبية بالإسكندرية بين المجددين والمحافظين، انظر:

P.Fraser, Ptolemaic Alexandria (Oxford 1972) 746 ff.

٣ – كالـيماخوس هـو أحد كبار الشعراء العلماء بالإسكندرية. عاش في الفترة من حوالي ٣٠٥ إلى ٢٤٠ ق.م ويسـتمد كنيته بالشاعر العالم من عمله في المكتبة والموسيون. وهو شاعر وناقد وناثر، كما أنه مصنف ومعلـق فـي ذات الوقت. أنتج في العديد من الفنون. ورغم تعدد أعماله إلا أنه لم يصلنا منها سوى القدر الضـئيل ولعـل "الفهـارس" التي وضعها تعد بحق مفخرة لهذا الكاتب، فهي ليست مجرد فهارس بأسماء الكـتب ومؤلفـيها ، وإنما ضمنها كاليماخوس الكثير من المعلومات النقدية مما يشهد له بسعة الاطلاع . وتعـد الفهـارس أول موسـوعة عـن تـاريخ الأدب الإغريقي ، لذا يعد فقدها خسارة كبيرة . وقد كان كاليماخوس على رأس مدرسة المجددين بالإسكندرية . لمزيد من المعلومات عن هذا الشاعر العالم انظر:

Fraser(1972) 717-793;G.Hutchinson, Hellenistic Poetry (Oxford1997)26-84.

٤ – ولد أبولونيوس حوالي ٢٩٥ ق.م ، وفي حدود معرفتنا فهو الشاعر السكندري الوحيد الذي ولد بمصر. كان أسـتاذه هـو كاليماخوس . وقد وصلنا منه ملحمة تعد الوحيدة التي وصلتنا من الملاحم السكندرية، وهي

"رحلـــة الســـفينة أرجو" Argonautica ، التي هاجمها كاليماخوس لطولها وكثرة ما بها من عيوب. وقد كان أبولونيوس يمثل مدرسة المحافظين بالإسكندرية . لمزيد من التفاصيل انظر:

T. Webster, Hellenistic Poetry and Art (Methuen 1964) 63 ff.; Fraser (1972) 625 ff.; Hutchinson (1997) 85 ff.

٥- عن انجذاب الرومان إلى كاليماخوس بالتحديد أكثر من أي شاعر سكندري آخر، انظر:

W. Clausen, "Callimachus and Latin Poetry", in: Approaches to Catullus, ed. K. Quinn (Cambridge 1972) 269-284; J. Sullivan, Propertius: A Critical Introduction (Cambridge 1976) 111 ff.

انظر كذلك:

P. Veyne, Roman Erotic Elegy: Love, Poetry, and the West. trans. D. Pellauer (Chicago 1988) 17 ff.

يـــرى فان أن سبب انجذاب الرومان لكاليماخوس هو فنه المصقول الرقيق ، على العكس من الملحمة ذات الأسلوب الطنان . ويرى أركينز:

B.Arkins, "The Freedom of Inbluence: Callimachus and Latin Poetry", Latomus 47 (1988) 285 ff.

أن الـــرومان انجذبوا إلى كاليماخوس بالتحديد لأنه منحهم الفرصة لتقليده مع الحرية في تكييف ما أخذوه. أما هتشينسون Hutchinson (1997) chap. 6 فيرى (ص ٢٧٩) أن الشعراء الرومان حين يشيرون إلى كالـــيماخوس انـــذاك لأنه النموذج الرئيسي لفن الإليجية، وهدفهم من ذلك تأكيد شرعية فنهم. ولكني أود أن أشير في هـــذا الصــــدد إلـــى أن هـــذا الموقف تجاه كاليماخوس لم يكن صادراً عن شعراء الإليجية فحسب ، بدليل أن الشاعر الروماني فرجيليوس تأثر بكاليماخوس في كل من "الرعويات" ، و "الزراعيات" ، و"الإنيادة".

٦- هناك عدة تسميات أطلقت على هذه المجموعة:

Poetae novi, neoteroi, neoterici

وقـــد أطلق شيشرون عليهم (في المناقشات التوسكولانية ٣/٥٤) تسمية "منشدي يوفوريون" Cantores Euphorionis ، أي أولـــئك الـــذين حاولوا تقليد الشاعر السكندري يوفوريون . وأبرز هؤلاء الشعراء : كاتولوس Catullus ، وكالفوس Calvus ، و كينا Cinna ، وفارو من أتاكس Varro Attacinus.

٧- هـــذه هي حركة التجديد السكندرية الشهيرة في روما في أواخر عصر الجمهورية، والتي ولت وجهها شطر الإســـكندرية: إلـــى كالـــيماخوس وفيليتاس ويوفوريون وثيوكريتوس. وقد استمدت هذه الحركة الإلهام من هـــؤلاء الشـــعراء السكندريين، ومن هنا جاءت ميولها نحو الأنواع الشعرية القصيرة، كالملحمة القصيرة ، والإبيجـــراما ، والإليجـــية ، مـــع الحرص على تجنب الملحمة الطويلة التي تتحدث عن الحروب والأبطال . لدراسة جيدة عن هؤلاء الشعراء وعن برنامجهم الشعري انظر:

Clausen (1972) 28 f.; R.Q. Lyne, "The Neoteric Poets", CQ 28 (1978)167-187.

أنظر أيضاً:

B. Otis, Virgil: A Study in Civilized Poetry (Oxford 1963) 26 ff.; idem, Ovid As An Epic Poet (Cambridge 1970) 4ff.

ويقال أن بارثينيوس Parthenius من نيكايا Nicaea هو معلم الشعراء المجددين في روما ، وهو شاعر يوناني أسر أثناء الحرب مع ميثريداتيس Mithriadates ، وجئ به لروما حيث حصل على حريته عام ٧٣ ق.م. وكان عظيم التأثير على الشعر الروماني ، خاصة على المجددين. ولا يمكن التعرض لحركة التجديد في روما دون الحديث عنه، حيث أنه أهم من جذب انتباه الرومان إلى مبادئ كاليماخوس في النقد الأدبي (حتى وإن لم يكن أول من عَرَّف الرومان بكاليماخوس). نظم بارثينيوس على نهج كاليماخوس وفيليتاس، ولاقت أشعاره الإليجية تقديراً ، وكان له تأثير كبير على الشاعر الروماني الأغسطي كورنيليوس جالوس Cornelius Gallus كما أهداه مجموعة من قصص الحب الأسطورية البائسة Erotika Pathemata ليستخدمها في أشعاره. عن دور بارثينيوس في نقل التراث الكاليماخي إلى روما ، انظر:

Clausen (1972) 275 f. 278 ff.; F. Cairns, Tibullus: A Hellenistic Poet at Rome, (Cambridge 1979) 225 f.; Arkins (1988) 286.

٨- بروبرتيوس هو أحد الشعراء الأغسطيين، ولد في الفترة من حوالي ٥٤ إلى ٤٨ ق.م وتوفي بعد ١٦ ق.م

٩- ولد فيليتاس حوالي ٣٢٠ ق.م في جزيرة كوس، وهو أستاذ كاليماخوس ، ويعد كلا الشاعرين من كبار شعراء الإليجية في الإسكندرية . كما أنهما أرسيا خصائص الشعر السكندري، وبدونهما لما وصلت الإليجية الرومانية إلى ما وصلت إليه من الجمال والكمال.

١٠- هناك اتفاق بين النقاد على أن بروبرتيوس شاعر مدرك لذاته ، اعتماداً على ما ورد في أشعاره ، ومن الدراسات التي أبرزت هذا الموضوع:

M, Comber., "A Book Made New: Reading Propertius Reading Pound. A Study in Reception", JRS 88 (1998) 38.

وجدير بالذكر أن الشعراء الأغسطيين بصفة عامة كانوا مدركين لذاتهم الفنية إلى حد كبير، ومن هنا لم يكن تقليدهم للنماذج السابقة مجرد تقليد imitatio ، وإنما كان تقليداً ومنافسة aemulatio في الوقت ذاته. انظر:

K. Quinn, Texts and Contexts (Routledge & Kegan Paul 1979) 36:

"It became increasingly evident that, with rare exceptions, the writers of imperial Rome could have non except the cultivation of their own ego".

وهذا يصدق على بروبرتيوس إلى حد بعيد ، فهو دائم الفخر بموهبته الأدبية وبرسالته المقدسة كشاعر ، وفي هذا الصدد يطلق على نفسه: sacerdos (3.1.3) أي الكاهن . وفي موضع آخر (٢١/٧/١ وما بعدها) يؤكد أنه شاعر لا يستهان به ، بل ويضع نفسه كشاعر للحب فوق عباقرة الرومان :

tunc ego Romanis praeferar ingeniis.

(Prop.1.7.22)

ناقش بروبرتيوس في أشعاره طبيعة فنه وصعوبة مهمته كشاعر ، وقيمة موهبته الشعرية ودوره كشاعر مجدد ، انظر القصائد:

٨/١ ، ٩/١ ، ١/٢ ، ٥/٢ ، ٧/٢ ، ١٠/٢ ، ١٢/٢ ، ١٣/٢ ، ١٤/٢ ، ٣٠/٢، ٣٤/٢، ١/٣-٣ ، ٣/ ٥ ، ١٠/٣ ، ٢٤/٣ ، ١/٤ ، ٦/٤. وهـو يتشابه بصورة ما مع هوراتيوس، إلا أنه لم يكتب مقالاً في فن الشـعر كمـا فعـل هوارتيوس وإنما جاءت آراؤه متناثرة في قصائده ، وهـي التي يطلق عليها لك "فن الشعر" Art Poetica:

G. Luck, The Latin Love - Elegy (London 1959) 124.

إلا أنني لا أتفـق مع لك (ص ١٣١) في أن بروبرتيوس كان يشعر بالحرج بسبب موهبته المحدودة ، وأنه لذلك شعر بالحسد تجاه أعضاء دائرة مايكيناس الآخرين الذين انبهر بموهبتهم أمثال فرجيليوس وهوراتيوس.

لقـد فاق اهتمام بروبرتيوس بفنه الشعري أي اهتمام آخر لديه ، بل أنه فاق اهتمامه بفتاته كينثيا، التي سيطرت على أشعاره ، على نحو ما لاحظت باربرا جولد:

Barbara Gold, "Time, Poetry, and Immortality In Propertius (Propertius 1.8)" CJ 81 (1986) 148-157.

١١- يقول سيلار عن الإليجيين الرومان:

W. Sellar, The Roman Poets of the Augustan Age (Oxford 1892) 208:

"They nationalized the Alexandrian elegy of Philetas and Callimachus, as Virgil had nationalized the Sicilian pastoral of Theocritus".

عن تأثير الإليجية السكندرية على الرومانية ، انظر:

Cairns (1979) 214 ff.

١٢- تنقسم الإليجوات السكندرية إلى ثلاثة أنواع:

١- إليجية الحب ٢- الإليجية القصصية ٣- إليجية المناسبات

بيـنما تختلف الإليجية الرومانية عن السكندرية في كونها تتركز أساساً في نوع واحد وهو إليجية الحب ، حتـى وإن تخللـته الـرواية. الإليجية الرومانية هي إليجية ذاتية، كما يتضح من أشعار كل من تيبولوس Tibullus ، وسـولبيكيا Sulpicia ، وبروبرتيوس و أوفيديوس Ovidius. وجميعهم من شعراء العصر الأغسطي.

١٣- يمكنـنا أن نطلـق على بروبرتيوس Poeta doctus "شاعر مثقف ودارس" ، وهي الصفة التي ارتبطت بمصطلح doctrina السكندري ، الذي يطلق على أعمال الشعراء العلماء بالإسكندرية. وقد كان بروبرتيوس شـاعراً ، وناقـداً ، ودارساً، يتمثل بكاليماخوس - مع الاختلاف- وقد انعكست اهتماماته هذه على فتاته ، فصورها هي الأخرى "فتاة مثقفة" docta puella . ويتوقع لنفسه المديح لأنه يسر فقط الفتاة المثقفة:

me laudent doctae solum placuisse puellae,

(Prop 1.7.11)

ومـن المواضع الطريفة التي استخدم فيها بروبرتيوس هذه الصفة لفتاته :(٢/١٣/٩-١٢) حيث يعلن أن ما يروقه في المرأة ليس جمالها أو حسبها ونسبها، وإنما ثقافتها. فما يسعده حقاً هو أن يقرأ أشعاره في أحضان فتاة مثقفة، ذات أذن ذواقة.

وقد استخدم بروبرتيوس نفس الصفة ليصف بها كتاباته . وفي إحدى قصائده (٣/٢٣) يعبر عن حزنه لفقد ألواح الكتابة الخاصة به: doctae tabellae . ولا تخفى علينا دلالة هذه الصفة التي يصف بها ألواح الكتابة المليئة بالثقافة . يقترح بيكر:

R. Baker, "Propertius Lost Bona", AJP 90 (1969)336.

أن بروبرتيوس قصد بهذه الصفة (doctae) الإشارة إلى كاليماخوس تحديداً . وأنه بذلك يفاخر بالهجية الحب التي نظمها على منوال كاليماخوس والتي كتبت على هذه الألواح المفقودة كي تقرأها كينثيا فتاته المثقفة أولاً ، ثم العالم ثانياً.

١٤ - رغم أن الكتاب الأول لبروبرتيوس نشر بعد موقعة أكتيوم Actium ، إلا أن الشاعر لم يتغن فيه بأغسطس المنتصر ، بل ولم يذكره على الإطلاق . وفي حين حفلت الكتب الثلاثة التالية بذكر أغسطس إلا أن بروبرتيوس لم يكن من الشعراء الذين تعاطفوا مع سياسة الإمبراطور. وفي عديد من الأمثلة التي ورد فيها ذكر أغسطس تصريحاً أو ضمناً ، كان ذلك إما على سبيل الاعتذار عن عدم تمكنه من مدحه، أو على سبيل وضع أغسطس وسياسته في سياق ساخر ، انظر على سبيل المثال:

"at magnus Caesar". Sed magnus Caesar in armis:

devictae gentes nil in amore valent.

(Prop 2.7.5-6)

"بالرغم من أن قيصر عظيم، ولكن قيصر عظيم في الحروب : الشعوب المهزومة ليس لها قوة في الحب".
انظر أيضاً السياق الساخر في (٢/٧/١٣ وما بعدها)

١٥ - لم يظهر اسم لينكيوس في أي موضع آخر من أشعار بروبرتيوس. ويتضح من الأبيات (٢/٣٤/٧٧-٢٨) أن لينكيوس له اهتمامات فلسفية. كما يتضح من البيت الحادي والأربعين من نفس القصيدة أنه شاعر تراجيدي : ويرجح ريتشاردسون:

L. Richardson, Propertius. Elegies I-IV, ed. with introd. & commentary (Oklahoma 1976)312.

أن اسم لينكيوس هو اسم مستعار ، ولكنه لم يقترح شخصيته الحقيقية.

١٦ - عبارة (28) rerum..vias تعني حركة الأشياء ، أي حركة الطبيعة ، والمقصود بذلك الفلسفة الطبيعية التي تهتم بالكون. وكلمة rerum هنا لها نفس الدلالة الموجودة في عنوان قصيدة لوكريتيوس Lucretius الشهيرة "في طبيعة الأشياء" De Rerum Natura.

١٧ - هناك خلاف كبير بين الدارسين حول عبارة:

"(29) Cretaei.. plectri" القيثارة الكريتية"، وهناك عدة اقتراحات قدمها ناشرو النص كبديل لهذه العبارة حول هذا الموضوع انظر:

Richardson (1976)313.

هناك عبارة بديلة موجودة في الطبعة التي قام كامبس بنشرها وهي عبارة (29) Aratei... lecti :

W. Camps, Propertius Elegies Bk II, ed. with introd. & commentary (Cambridge 1967).

ويفسـر كامبس (ص ٢٢٤ وما بعدها) المقصود بهذه العبارة "الإنتاج الشعري لمضطجع أراتوس Aratus لأنه يعتقد أن أراتوس كان ينظم قصيدته الشهيرة "الظواهر" Phaenomena وهو مضطجع كما نعرف من سـنيكا Seneca (الرسـائل ٧٢/٢). وهـذا الاعتقاد قائم على عبارة وردت عند كاليماخوس (الأنثولوجيا البالاتينية ٥٠٧/٩) بأن شعر أراتوس هو ثمار تعب الليالي.

١٨- المقصـود بعبارة.(30) vester... senex " شاعرك القديم" الشاعر السكندري التعليمي أراتوس، الذي يدين بشـهرته لقصيدته " الظواهر" ، سالفة الذكر ، وهي في علم الفلك. وموضوع الأجرام السماوية الذي تعالجه هـذه القصيدة بعيد كل البعد عن موضوع الحب. وضمير الملكية vester في البيت رقم (٣٠) يعني شاعرك الـذي اسـتحوذ علـى إعجابك . أم كلمة senex (القديم أو كبير السن) فهي إما لأن أراتوس عاش حوالي خمـس وسـبعين عامـاً (من ٣١٥ إلى ٢٤٠ ق.م) ، أو أن هذه الكلمة تعني ، كما يرى كامبس ، شخصاً متميزاً من العصر القديم، دون أن يكون بالضرورة كبير السن:

Camps (1967) 225.

١٩- الإشـارة إلـى حلـم كالـيماخوس هنا تعني الإشارة إلى قصيدة "الأسباب" الإليجية . ففي مقدمتها يصور كالـيماخوس نفسـه وقـد انتقل في منامه إلى جبل الهليكون Helicon ، مقر ربات الفن، حيث التقى بهن وتلقـى مـنهن الإلهـام بمـا يكتب في قصيدته. وهذه الفكرة تعود في أصلها إلى ما أعلنه الشاعر التعليمي اليونانـي هسـيودوس Hesiodus ، في مقدمة قصيدته "أنساب الآلهة" Theogonia (٢٢ وما بعدها) عن لقائه بربات الفن على جبل الهليكون حيث ألهمنه. عن هذا الموضوع انظر:

Clausen (1972)272 f.

٢٠- لـم يضـع كالـيماخوس كتاباً في النقد الأدبي، وإنما قدم لنا نظرات نقدية متفرقة في أعماله، خاصة في مقدمـة ديـوان " الأسباب" ، وفي خاتمة "أنشودته إلى أبولو". ويبدو أن كاليماخوس كان يتبوأ مكانة الناقد الأول فـي ذلـك العصر ، ويشهد على ذلك آراؤه النقدية التي وجهها إلى أبولونيوس وما كان لها من تأثير. وتتركـز مـبادئ كالـيماخوس النقدية في عزوفه عن الملحمة التقليدية الطويلة ذات الموضوع الواحد، بل ومناهضـته لها . وهذا لا يعني على الإطلاق أنه أنقص من شعر هوميروس ، بل على النقيض فهو يرى أن عصـر الملحمة قد انتهى بهوميروس لأن أحداً لا يستطيع أن يصل بالملحمة إلى المستوى الذي بلغته ملحمتا هوميروس ، وأن أية محاولة لتقليد هوميروس ستكون محاكاة قاصرة . إذا فهجوم كاليماخوس ليس موجهاً لهوميـروس وإنما لمقلدي هوميروس والبديل في نظر كاليماخوس هو أن يطرق الشعراء أغراضاً جديدة من الشـعر القصـير، حتى يكون مستطاعاً حبكه وتنقيحه وصقله كالإبيجراما، والأناشيد ، والإليجية . كما نادى كاليماخوس أيضاً بمعالجة موضوعات جديدة. عن مبادئ كاليماخوس النقدية انظر:

Clausen (1972) 269 f.; Fraser (1972) 747 ff.;

T. Klein, "The Role of Callimachus in the Development of the Concept of the Counter-Genre, "Latomus 33 (1974) 221 ff.

Edwards, M., "Callimachus, Roman Poetry and the Impotence of Song", Latomus 53 (1994) 807 ff,; Hutchinsom (1997) 77 ff.

٢١- أتفق مع سوليفان Sullivan (1976) 45 ، في الملحوظة التي أبداها عن استخدام ترث كاليماخوس في روما الأغسطية كرمز للمعارضة السياسية، ثم يؤكد مرة أخرى:

"Cynthia andCallimachus were his protection againtst public pressures". p.160.

أمـا كومبر Comber (1998) 43, n.37 ، فيرى أن مبادئ كاليماخوس التي اتخذت موقفاًمعارضاً للسلطة الأدبيـة للملحمـة والتـراجيديا ، حـين انتقلت إلى روما انسجمت مع موقف معارض للناطة الاجتماعية والسياسية . أي أن اختيار الأسلوب الأدبي يمكن أن يمثل أيضاً اختيار اسلوب الحياة . ويرى توماس:

R. Thomas,Reading Virgil and His Texts (Michigan 1999) 211,n.13

أن الـنموذج الكاليماخـي مناسـب تماماً من الناحية السياسية ، فأي ضغط يتعرض له الشاعر كي يكتب ملحمة يواجه بحقيقة أن ذلك سيشكل صدعاً في المبادئ الشعرية . أما لاين :

R.O. Lyne, The Latin Love Poets (Oxford 1980) 147.

فمـع تبنـيه لـنفس الخط الفكري السابق ، إلا أنه على قناعة بعدم جدية النزعة الكاليماية التي أعلنها بروبـرتيوس في الكتابين الثاني والثالث ، مدللاً على وجهة نظره بأن بروبرتيوس في الكتب الأول، وقبل أن يلـتحق بالدائرة الأدبية التابعة للإمبراطور لم يخطر على باله أن يكون بأية صورة كالماخوس. ولكن مـع بدايـة الكـتاب الثانـي حين التحق بدائرة مايكيناس ووجد أن هناك نوعاً من الضغط يرتبط بوضع الجديد كي يكـتب عـن منجـزات الإمبراطور ، عندئذ فقط بدأ بروبرتيوس يصدر أصواتاً كاليماخية. وعن طريق إعلان النزعة الكاليماخية فقد وجد بروبرتيوس طريقة أنيقة وذكية ومتحضرة ليقول "لا" ثم يختتم لاين بقوله:

"He (Proeprtius) was not in any real sense a Callimachean poet but he was prepared to adopt Callimachus' mantle and invoke his authority for this purpose (i.e. declining the pressure) p.147

أما جريفين:

J.Griffin, "Augustan Poetry and the life of Luxury", JRS 66 (1976) 104 n. 43.

فهـو يلفـت أنظارنـا إلـى أنه بالكتاب الأول حيث لا يوجد مايكيناس ، فلا توجد مسألة كتابة ملحمة عن أغسـطس ، ولا يـوجد ذكـر لكالـيماخوس . ولكـن في أول قصيدة بالكتاب الثاني، وهي الموجهة إلى مايكيـناس ، يظهـر العنصران في الحال، ويظلا معاً خلال عمل بروبرتيوس . وحتى الكتاب الرابع يخدم كاليماخوس كحيلة لرفض الملحمة . كما يرى جريفين.

٢٢- يقول فان :

Veyne (1988) 30:

"Propertius, more than Tibullus, had the strength to take hold of Callimachus' art as if it were his own, in allits subtlety and all its strangeness"

٢٣- هـذه المـبالغة التـي نجـدها عـند بروبرتيوس يمكن أن يعلل لها من جانب آخر بما شاع لدى الشعراء الرومان في ذلك العصر من إعلان دينهم لنماذج اليونانية والسكندرية السابقة. وقد أوجز راسل:

D. Russel, "De Imitatione", in: Creative Imitation and Latin Literature, ed. D. West & T. Woodman (Cambridgde 1979) 1

موقف الشعراء الرومان بصفة عامة من النماذج اليونانية والسكندرية السابقة في القول التالي:

"One of the inescapable features of Latin literature is that almost every author, in almost everything he writes, acknowledges his antecedents, his predecessors- in a word, the tradition in which he was bred".

٢٤ – ارتــبط كالــيماخوس وفيليــتاس معاً في أكثر من موضع آخر من شعر بروبرتيوس باعتبارهما نموذجي الإليجــية الســكندرية ، انظــر : بروبــرتيوس (٢/٣٤/٣١ وما بعده ، ٣/٦/٤ وما بعده). قارن ستاتيوس Statius ("الغابات" ١/٢/٢٥٠ وما بعده).

يفسر سولمسن:

F.Solmsen, "Propertius in his Literary Relaions with Tibullus and Vergil", Philologus 105 (1961).

ســر توجه بروبرتيوس إلى كاليماخوس وفيليتاس هو أنه في القصائد الأولى من الكتاب الثالث يقدم نفسه لقــرائه على أنه شاعر الحب وليس محباً، على العكس مما هو موجود بالكتابين الأولين. ويربط توماس ، Thomas (1999) 83 ، بــين كـل مــن مقدمــة قصــيدة بروبرتيوس (٣/١) ومقدمة الكتاب الثالث من "الزراعيات" من ناحية، وبين مقدمة ديوان " الأسباب" لكاليماخوس من ناحية أخرى، وذلك على اعتبار أن الإشــارة إلــى "الــزراعيات" تأتي من خلال إعلان بروبرتيوس ولاءه لكاليماخوس، وهذا ما يراه توماس تأكيداً من جانب بروبرتيوس لأهمية كاليماخوس ، واعترافه بوجود كاليماخوس وراء مقدمة الكتاب الثالث مــن "الزراعيات". فمن وجهة نظر توماس يعد دمج بروبرتيوس للشعر الكاليماخي والفرجيلي دليلاً إضافياً على وجود الشاعر السكندري في مقدمة الكتاب الثالث من "الزراعيات".

٢٥ – يقسم كونتي:

G. B. Conte, "Proems in the Middle", YCS 29 (1992) 147-159.

المقــدمات في القصائد الشعرية إلى مجموعتين : المقدمة التقليدية في بداية العمل ، وتعنى بالمحتوى أي بالموضــوع الذي سيتحدث عنه الشاعر (quid) . أما المقدمة الأخرى فهي توضح الشخصية الفنية للعمل ، وتأتي في وسط العمل ، ويعلن فيها الشاعر مبادئه الشعرية، أي الكيفية التي سيقدم بها العمل (quale). وهــذا الــنوع الأخيــر هــو المقدمــة التــي يطلق عليها كونتي مقدمة سكندرية ، وتندرج تحتها مقدمة بروبرتيوس في أولى قصائد الكتاب الثالث ، باعتبار أن هذا الكتاب يقع في وسط العمل.

٢٦ – يعلق لك على كلمة Manes بقوله:

G. Luck, "The Cave And The Source:, CQ 7 (1957) 178:

"Propertius, too, approaches the Manes of Philetas and Callimachus, now the mediators between man and the Muses, because he desires concrete and specific knowledge".

٢٧- يعلن لك Luck (1957) 175 ff. ، أنه يوافق على التفسير الذي قدمه شاكلتون بيلي:

D.Shackleton-Bailey, Propertiana (Cambridge 1956) 135-6:

بـأن كلمـة sacra في (٣/١/١) ليس لها صلة مباشرة بالشعر، وإنما هي مرادف لكلمة Manes الواردة فـي نفس البيت، أو أنها ربما تشير إلى الطقوس التي تقدم للموتى، أو قد تؤخذ بمعنى رفاتهم. بينما يرى ريتشاردسـون، Richardson (1976) ad loc. 318 f. ، أن كلمـة sacra توحـي أن لهذين الشاعرين السكندريين شعائر ، وأن قبريهما تحولا إلى ضريحين . كما يقترح ريتشاردسون أيضاً أن كلمة sacra قد تعني رفاة الموتى.

٢٨- يقترح لك Luck (1957) 175 ، أن بروبرتيوس أراد أن يدخل الغابة إما لتقديم طقوس العبادة، أو لتلقيها باعتـبار ه الخلـف الشـرعي لهـذين الشـاعرين السكندريين البارزين. ثم يضيف لك اقتراحاً ثالثاً وهو أن بروبـرتيوس دخـل الغابة طلباً للوحي الإلهي من الشاعرين السكندريين للإجابة على أسئلته . ولكنني أميل إلـى تفسـير دخـول بروبـرتيوس للغابة ، كما يرى أركينز Arkins (1988) 290 ، على أنه يعني قبوله كشـاعـر يكتب نوع الشعر الذي يكتبه شاعرا الإسكندرية . ويرى ريتشاردسون Richardson (1976) ad loc. 318 ، أن الغابـة المعنـية هـنا هي غابة ربات الفن ، اكتشفها كاليماخوس وفيلتياس أو كانت تحت رعايتهما الخاصة.

٢٩- انظر حاشية ٢٣ أعلاه .

قـد تكـون عبارة بروبرتيوس في (٣/١/٣) رد فعل على تفاخر هوراتيوس بأنه أول من نقل تراث الشعر الغنائي اليوناني إلى روما:

Ex humili potens

Princeps Aeolium carmen ad Italos

deduxisse modos...

(Od. 3. 30. 12-14)

المعـروف أن هـناك نـوعاً مـن لمنافسة قامت بين هوراتيوس وبروبرتيوس . وجاء العديد من قصائد بروبرتيوس كرد فعل على ما قاله هوراتيوس . عن تفاصيل هذه المنافسة انظر:

Sullivan (1976) 10 ff., 21,120 ff.

يـــرى سوليفان أن الكتاب الثالث لبروبرتيوس هو المقابل الذي قدمه للرد على "أغاني" Odes هوراتيوس. وأن العلاقـــة بـــين الشـــاعرين كانت علاقة عداء قامت على أسس نقدية وفكرية ، فبروبرتيوس هو أبرز ناطق باسم المبادئ السكندرية ، بينما يميل هوراتيوس نحو القدامى. وعلى هذا الأساس أستطيع أن أقول أن الإســـكندرية وقفـــت فـــي مقابل روما واليونان: فبروبرتيوس "كاليماخوس الروماني" وقف في مقابل هوراتـــيوس "ألكايوس الروماني". يؤكد كومبر 44,n.42، Comber (1998) ، أن عين بروبرتيوس كانت علـــى هوراتـيوس فـــي ("الأغانـــي" ٣/٣٠) ومع ذلك فبروبرتيوس ، من وجهة نظر كومبر ، علا على هوراتـــيوس وذلـــك لأنه وضع مطمحه في الخلود في بداية كتاب (الثالث). وليس كما فعل هوراتيوس في نهاية كتاب (آخر قصيدة بالكتاب الثالث).

٣٠- مســـألة النـــبع الصافي puro de fonte (3.1.3) هي مسألة مرتبطة بالنقد الأدبي الكاليماخي ، ففي خاتمة أنشـــودة كاليماخوس الثانية " إلى أبولو" ، يذكر على لسان الإله أن كاهنات ديميتر لا يحملن إليها المياه من كل منبع ، وإنما المياه النقية الصافية الواردة من النبع المقدس ، انظر:

Callim. Hymn 2,110-112.

٣١-يقتـــرح لـــك Luck (1957) 175 f. ، أن الأســـئلة المطروحة في القصيدة (٣/١) أجاب عنها أبولو وربة الفن في حلم بروبـــرتيوس بالقصـــيدة (٣/٣) . ففي (٣/١/٥) يسأل أبولو عن الكهف، وفي (٣/٣/٢٧) يريه أبولو كهفاً . وفي (٣/١/٦) يسأل بروبرتيوس عن الماء ، فتبلل كاليوبي شفتيه بماء فيليتاس في (٣/٣/٥١ وما بعده).

٣٢- ارتـــبطت الصـــفة tenuis بشـــعر كاليماخوس الموصـــوف بأنه leptaleos ، كما جاء في مقدمة ديوان "الأسباب" . وكلمة tenuastis (5) لدى بروبرتيوس تشير إلى الصقل.

٣٣- يقـــول ريتشاردســـون في تعليقه على هذا البيت ، Richardson (1976)ad loc.319 ، أن الرومان كانوا يستبشـــرون بدخول الأماكن المقدسة بالقدم اليمنى أولاً، وعلى ذلك يلعب بروبرتيوس بكلمة pes التي تعني أيضاً القدم في الوزن الشعري.

٣٤- تكـــررت فكـــرة المـــياه وارتباطها بنظم الشعر في العديد من المواضع من شعر بروبرتيوس، والمياه هي مصدر الإلهام. وهي فكرة مستمدة من كاليماخوس : (Hymn 2,105ff.) . عن هذا الموضوع انظر:

C. Tuplin, "Catullus 68", CQ 31 (1981) 136-7.

٣٥- باكتـــرا هي لمدينة الرئيسية في باكتريا Bactria بأفغانستان حالياً. وهي واحدة من أقدم المدن في العالم، وكانت تقع في قصى حدود إمبراطورية الإسكندر.

٣٦- المقصـــود بـــ "جـــبل الأخوات" monte sororum هو جبل الهليكون، مقر ربات الفن، ويقع في بويوتيا Boeotia بـــبلاد اليونان . وحين يقول بروبرتيوس (في البيت ١٧) أن صفحته جاءت من جبل الأخوات فهو يعنـــي أنـــه مثل كاليماخوس أخذ الإلهام من الهليكون حيث توجد ربات الفن ، ويؤكد هذه الفكرة (في البيت ١٩) حيث يطلب من ربات الفن أن تتوج رأسه بإكليل الإليجية.

٣٧-تشـــير عـــبارة "الطريق الذي لم يطرق من قبل" via.. intacta إلى كاليماخوس الذي يدعو إلى التجديد مستخدماً المقابل اليونانـــي لهذه العبارة في مقدمة ديوان "الأسباب" . وقد صار للطريق دلالات نقدية في شعر بروبرتيوس في العديد من المواضع ، انظر على سبيل المثال (٣/٣/٢٦) حيث يقوده أبولو إلى طريق ضيق جديد.

٣٨- "الإكليل الرقيق" mollia...serta ، هو إكليل الزهور، والمقصود به إكليل الشعر الإليجي الخفيف . يرى ريتشاردسون ، Richardson (1976) ad loc.320 ، أن الفكرة الرئيسية هنا هي أن بروبرتيوس يود أن يكون إكليله هدية من ربات الفن وليس من السناتوس كالمنتصرين في الحروب.

٣٩- المقصود بكلمة Pegasides ربات الفن ، نسبة إلى الحصان بيجاسون Pegasus ، الذي ضرب بحافره في صخر جبل الهليكون، مقر ربات الفن ، فتفجرت عين هيبوكريني Hippocrene ، التي ارتبطت بربات الفن لوجودها على جبل الهليكون.

٤٠- ترتبط الصفة durus بالشعر الملحمي، وعبارة dura corona ، تعني الإكليل الجاف، أي إكليل الملحمة ، وقد تعني أيضاً إكليل المنتصر في الحرب.

٤١- نظراً لأن أبولو ينصح كاليماخوس أن يسير بعربته في طرق جديدة ضيقة ، صارت هذه الصورة تستدعي شعر كاليماخوس ذا المدى القصير . ومن هنا يوجه بروبرتيوس حديثه لمنافسيه الذين يسيرون في إثر عربته متهماً إياهم بأنهم يحاولون بلا جدوى ، فالطريق الواسع ليس هو الطريق الذي يؤدي إلى ربات الفن:

Non datur ad Musas currere lata via.

(Prop. 3.1.14)

طريق كاليماخوس الضيق هو الذي يحقق لبروبرتيوس التفوق على منافسيه.

بالإضافة إلى ذلك ، ترتبط الصفة angustus ، بمعنى "الضيق" دائماً بشعر كاليماخوس القصير، انظر على سبيل المثال عبارة:

Angusto lecto (Prop. 8B.33).

وتعني السرير الضيق. وهنا يكيف بروبرتيوس التعبيرات الأدبية الكاليماخية لأغراض الحب، أي صار كاليماخوس أيضاً النموذج الذي يحتذيه بروبرتيوس في علاقته بكينثيا . فالفراش الذي تفضله كينثيا ضيق لأنه ملك لبروبرتيوس الشاعر الإليجي الذي يسير على نهج كاليماخوس الذي آثر الشعر القصير. وفي سياق اعتذار بروبرتيوس عن كتابة ملحمة، ورفضه للموضوعات الحربية، فهو يتمثل موقف كاليماخوس الذي لا يستطيع بصدره الضيق أن يرعد بمعارك جوبيتر:

Sed neque... intonet angusto pectore Callimachus

(Prop. 2.1. 39-40)

وبعد أن عزز بروبرتيوس وجهة نظره بذكر موقف كاليماخوس من الملحمة ، أعلن أنه نقل معاركه إلى سريره الضيق:

Nos contra angusto versamus proelia lecto:

(Prop. 2.1.45)

والسرير الضيق هنا angusto..lecto(45) ، هو المقابل لصدر كاليماخوس الضيق angusto pectore (45) في ذات القصيدة . ترى ويجرز:

Nancy Wiggers, "Reconsideration of Prop. II.2", CJ 72 (1977)338.

أن تكــرار الصفة angusto في البيتين المذكورين توحي بالعلاقة بين مصدر صوت الشاعر (Pectore40) والفــراش الذي يمارس عليه الحب (lecto45) . ولأن الصفة angustus ذاتها هي إشارة أدبية للأسلوب الكاليماخــي القصــير، فإن "السرير الضيق" angusto lecto ، من وجهة نظر ويجرز ، قوت العلاقة بين الشعر والجنس.

٤٢ - Prop.2.1.4.

٤٣ - يطلق كومبر 44 (1998) Comber ، على هذه القصيدة أنها "literary manifesto" لأنها تشير بوضوح إلى ولائه لكاليماخوس من حيث استخدامه لأفكار الحلم ، وأبولو ، والماء وكلها وردت عند كاليماخوس.

٤٤ - انظر حاشية رقم ١٩ أعلاه. عن تأثير حلم كاليماخوس، وصداه لدى الشعراء الرومان، انظر:

Peter Bing, The Well-Read Muse (Hypomnemata 1988) 70 f.; Hutchinson (1997) 278 f.; R.O. Lyne, "Propertius 2.10 and 11 and the Structures of Books "2A" and "2B", JRS 88 (1998) 25 ff.

٤٥ - هنا أيضاً يستخدم بروبرتيوس عبارة تشير إلى فن كاليماخوس القصير(Parvaque...ora(5 .

٤٦ - المقصود "بالينابيع العظيمة" (5) magnis...fontibus الشعر الملحمي الذي يتسم دائماً بالفخامة.

٤٧ - ظهــور أبولو هنا في هذه القصيدة (٣/٣) يشير إلى ظهوره لكاليماخوس في مقدمة قصيدته "الأسباب" وقد صار أبولو الرمز الذي يمثل فن كاليماخوس.

٤٨ - حــين همس الحسد في أذن أبولو، في أنشودة كاليماخوس الثانية "إلى أبولو" ، قائلاً إنه لا يروقه الشاعر الــذي لا تزخر قصائده كما يزخر البحر بالأمواج ، يركله أبولو بقدمه قائلاً ما أضخم نهر الفرات ، ولكن ما أكثر ما تحمله مياهه من قاذورات . انظر:

Callim. Hymn 2, 105 ff.

انظر كذلك:

D. Traill, "Callimachus Singing Sea (Hymn 2. 106)" CP 93 (1998) 215-220.

٤٩ - يشير العشب الناعم إلى أسلوب بروبرتيوس ، وتشير العجلات الصغيرة إلى الفن الإليجي الخفيف.

٥٠ - فــي عديد من المواضع يرفض بروبرتيوس الكتابة الملحمية على نمط الرفض الكاليماخي الشهير . ومن هذه المواضع القصــيدة الأولــى من الكتاب الثاني ، على سبيل المثال. يقدم بروبرتيوس اعتذاره في (٢/١/٣٩-٤٦) على أساس أنه لــيس من نمط الشعراء الذين يكتبون في الموضوعات الملحمية ، فهو لا يستطيع أن يهرب من قدره كمحب ، ولتعزيز وجهة نظره يسوق مثال كاليماخوس (الأبيات ٣٩-٤٠) عن هذا الاعتذار انظر:

Wiggers (1977) 334 ff.; B. Heiden, "Learned Allusions and Political Expression in Propertius 2.1.51-70", Latomus 47 (1988).

عن قصائد الرفض بصفة عامة ، بما فيها بروبرتيوس ، انظر :

Magda El-Nowieemy, "Catullus 68 and the Tradition of the Recustio Poems", in: Bulletin 46 of Société D'Archéologie D'Alexandrie, in Honour of Mostafa El-Abbadi (Alexandria 2001) 249-277.

٥١- هذه العبارة تعادل عبارة intacta...via الواردة في (٣/١/١٨).

٥٢- تستهل كاليوبي حديثها مع الشاعر بقولها إنه يكفيه أن يركب دائماً العربة التي يجرها البجع الأبيض:

Contentus niveis semper vectabere cycnis,

(Prop.3.3.39)

وهـذه العربة من مخصصات الربة فينوس: cf. Hor. Od.3.28.13-15. والمقصود بركوب بروبرتيوس هذه العـربة هو كتابته شعر الحب، وبكلمات لك Luck (1959)131 ، فقد أعارت فينوس طيورها الخاصة للشاعر بغية تسهيل مهمته.

٥٣- هذا ما يطلق عليه سوليفان Sullivan (1976)125:

"baptism in the water of Philitas".

٥٤- سـبق أن رأيـنا كيف أن بروبرتيوس في (٣/٣/١٥-١٨) حين شرع في الكتابة في تراث إينيوس أنكر عليه أبولو ذلك بشدة . واعتبر هذا ضرباً من الجنون، ونصحه بالعزوف عن فن إينيوس والاتجاه نحو الفن الإليجـي والأسـلوب الكاليماخي (يتكرر مرة أخرى عزوف بروبرتيوس عن فن إينيوس في القصيدة الأولى من الكتاب الرابع) يناقش باتريكا هذه النقطة، وهل بدأ بروبرتيوس في كتابة ملحمة بالفعل أم لا :

J. Butrica, "Propertius 3.3.7-12 and Ennius" CQ 33 (1983) 464-468.

فـي الـوقت الـذي تأثـر فيه الكثيرون من الرومان بتيار التجديد في مدرسة الإسكندرية ، وجدت حركة مضـادة أعجـبت بالأسـلوب القديم بصفة عامة ، ولمتمثل في حوليات إينيوس. والأدب الروماني المبكر المتمـثل في كتابات أكيوس Accius ، وباكوفيوس Pacuvius ولوكيليوس Lucilius. وجدير بالذكر أن شيشرون كان من أبرز المعترضين على المجددين بسبب إهمالهم للتراث الشعري اللاتيني القديم.

٥٥- انظـر: بروبـرتيوس (٢/١) ، (٣/٩). والملاحظ أنه حتى في الكتاب الرابع ذي التوجه الروماني لم يذكر مايكيناس مطلقاً تصريحاً أو ضمناً.

٥٦- المقصـود بالبحـر الشاسـع والأشـرعة الضـخمة الكـتابة الملحمية ، أما القارب الصغير فهو موهبة بروبرتيوس المحدودة والمنوطة بكتابة إليجية الحب. ويؤكد بروبرتيوس نفس الفكرة في الأبيات (٣٥-٣٦) من نفس القصيدة وهي فكرة مستمدة من كاليماخوس . انظر حاشية ٤٨ أعلاه.

٥٧- الملاحـظ هنا أن بروبرتيوس لم يستخدم كلمة liber بمعنى كتاب ، وإنما استخدم التصغير libellus والتي تعني كتيب بما يتمشى مع قصائد كاليماخوس القصيرة.

٥٨- يسـتخدم الشـاعر في هذا البيت كلمة sacra التي سبق أن استخدمها في القصيدة (٣/١/١) ليشير إلى الشـعائر المقدسـة لكل من كاليماخوس وفيليتاس (انظر حاشية ٢٧ أعلاه). وتكرار هذه الكلمة هنا قد تعني أن بروبرتيوس صار في منزلة شاعري الإسكندرية ، تقام له الطقوس والشعائر مثلهما.

٥٩-انظـر علـى سـبيل المـثال : Solmsen (1961) 281 الذي يرى أن الكتاب الرابع هو رد فعل بروبرتيوس على نشر "الإنـيادة" ، التـي وصفها قبل عدة سنوات بأنها أعظم من "الإلياذة" : maius Iliade (2.34.66) وأن بروبرتيوس نفسه قد تحول إلى الموضوعات ذات الدلالة الوطنية . ومؤخراً تذهب ديرومن إلى ما هو أبعد من ذلك:

Jeri Debrohun, "Redressing Elegy's Puella: Propertius IV And The Rhetoric Of Fashion", JRS 84 (1994) 43.

فهي ترى أن الشاعر استبدل عبوديته للحب servitium amoris بعبودية لروما servitium Romae.

٦٠- انظر على سبيل المثال:

Sullivan (1976) 44f.; 134 f.; 138, 147

الـذي يـرى، أن جوهـر الكتاب الرابع لا يزال شعر الحب ، وأن أنجح قصيدتين به هما السابعة والثامنة اللـتان تتحدثان عن كينثيا . ويؤكد سوليفان أن بروبرتيوس في الكتاب الرابع لم يبتعد عن المواقف التي عرضـها في كتابه الأول ، ولكنه ببساطة هذبها بسبب الضغوط الفكرية التي شعر بها كل شاعر أغسطي. ورغـم أن سـوليفان يـرى أن الكتاب الرابع هو إذعان بروبرتيوس لضغوط أغسطس إلا أنه يعتبر هذا الكتاب الاعتذار النهائي عن كتابة شعر وطني. هناك رأي شبيه قدمه ستار قبل ذلك بسنوات:

C. Starr, Civilization and the Caesars (Cornell 1954) 197.

يـرى سـتار أن الضغوط التي موررست من علٍ على بروبرتيوس أجبرته على إنتاج كتاب إضافي (الرابع) يحتفل فيه بالعقائد القديمة كنوع من أداء الواجب لا غير.

عن سيطرة موضوع الحب على الكتاب الرابع انظر:

Shelley Kaufhold, "A Look Back at Propertius 4.1.150", Eranos 94 (1996) 29-33.

٦١- الكـتاب الـرابع باتفـاق الكثيـرين مـن النقاد هو بوضوح أكثر كتب بروبرتيوس كاليماخية في كل من الموضوعات والمعالجة . انظر في ذلك:

H. Pillinger, "Some Callimachean Influences On Propertius Book 4", HSCP 73 (1969) 171 ff.; Arkins (1988) 292.

يوضـح سـوليفان ، Sullivan (1976) 44 f. ، أنه حين فاخر بروبرتيوس في أول قصيدة بالكتاب الثالث بأنه الممثل الرائد والمبتكر للشعر الكاليماخي في روما الأغسطية ، جاء الكتاب الرابع ليبرر هذا الادعاء .

٦٢- يقصد الشاعر بالصوت الخفيض في فمه: parvis in ore sonus (58) ، صوت الإليجية ، على العكس من الصوت العظيم الذي يرتبط بالموضوعات الجادة ، كما يتضح ، على سبيل المثال ، مما يقوله أوفيديوس عن صوت التراجيديا الجاد:

magnus in ore sonus (Am. 3.1.64)

٦٣- عـبارة exiguo... pectore (59) 'صـدري الضيق' هي عبارة كاليماخية تتمشى مع تعليمات كاليماخوس، كما أنها مساوية للعبارة التي أطلقها بروبرتيوس على كاليماخوس في : (٢/١/٤٠).

٦٤- كلمة rivi (59) تطلق على المجرى المائي الصغير مما يتمشى أيضاً مع فكر كاليماخوس.

٦٥- المقصـود بعـبارة hirsuta... corona (61) إكلـيل الملحمـة ، وإن كانـت الصفة hirsuta تعني غير المصقول، وقد ألصقها بروبرتيوس بالشاعر الروماني إينيوس مما يثير انتباه القارئ عن نظرة بروبرتيوس لذلك الشاعر القديم وعزوفه عنه وتفضيل شعراء الإسكندرية عليه، على نحو ما تم عرضه من قبل.

٦٦- تقع أومبريا بوسط إيطاليا.

٦٧- يعلق أركينز Arkins (1988) 289 f. ، على هذه العبارة قائلاً :

"Propertius makes the most explicit claim of any Latin poet to follow in the footsteps of Callimachus. Indeed he is not merely a follower, but the actual Latin embodiment of Callimachus".

٦٨- يرى سوليفان ، Sullivan (1976) 159 ، أن بروبرتيوس في أول قصيدة بالكتاب الرابع (الأبيات ٥٧ وما بعده) يزف نبأ خروج الطبعة الرومانية لقصيدة " الأسباب" لكاليماخوس.

٦٩- من ذلك على سبيل المثال:

١- المعالجة السكندرية بالكتاب الرابع.

٢- كيف دفعت المؤثرات السكندرية بروبرتيوس إلى الاستخدام المفرط للأساطير في أشعاره، ولعله من أكثر الشعراء الرومان استخداماً للأساطير .

وهذان الموضوعان من الأهمية بحيث يستحقان أن أفرد لكل منهما دراسة مستقلة مقبلة بمشيئة الله ، حيث أنه من غير الإنصاف للمؤثرات السكندرية على بروبرتيوس أن تعرض جميعها في دراسة سريعة في حدود المقال الواحد.

١٠ – مفهوم العالمية في فنون الإسكندرية القديمة

أ.د. منى حجاج

أستاذ الآثار اليونانية والرومانية

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

حظيت فنون الإسكندرية القديمة المختلفة بالعديد من الدراسات التى تناولتها من خلال نشر القطع الفنية المكتشفة أو تحليل أصولها ودراسة مكانة هذه الفنون بين فنون العصر الذى نشأت فيه وهو العصر الهلينستى . ذلك العصر الذى شهد فيه العالم مجموعة من المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية أدت إلى ظهور وجه حضارى جديد فى منطقة حوض البحر المتوسط بخاصة وفى العالم المتحضر آنذاك بعامة . كانت الإسكندرية فى ذلك العصر حاضرة العالم الثقافية فهى فضلاً عن دورها الاقتصادى المحورى كانت مركزاً علمياً رائداً بفضل دار الحكمة Museion التى أسسها فيها البطالمة – وما ألحق بهذه الدار من منشئات مساعدة كان من أشهرها المكتبة إلى جانب حديقة الحيوان ، حديقة النبات ، المرصد الفلكى والمعامل المختلفة . كان من شأن هذه الحركة العلمية النشطة أن تصبغ العصر بصبغة أكاديمية ظهر تأثيرها فى معظم أنحاء العالم. انعكس هذا التأثير على النتاج الفنى للمراكز الحضارية المختلفة فى ذلك الوقت كبرجامة ورودس وأثينا وأنطاكية وغيرها . وظهرت لكل مدرسة فنية فى تلك المراكز خصائص ميزتها . أما الإسكندرية فقد كانت محط أنظار الفنانين من ذوى المواهب المتميزة ، فجاءوا إليها ليستمتعوا برغد من العيش فيها ، فى ظل ملوك كانوا يضعون العلماء والفنانين فى مرتبة عالية ويغدقون عليهم من سعة . وكان من الطبيعى أن يقدم هؤلاء الفنانون الوافدون فناً يقوم فى أساسه على الموروث الفنى الذى تربوا فيه فى ظل الحضارة اليونانية والأتيكية على وجه التحديد، التى كانت قبل عصر الإسكندر هى المركز الحضارى الأول فى حوض البحر المتوسط. وكان من الطبيعى أيضاً أن يتأثر فن هؤلاء بالبيئة الجديدة التى يعيشون فيها ، وكانت النتيجة أن كان فنهم يونانياً جديداً أو لنقل هلينستياً . وتحددت مواطن الجدة فى ذلك الفن بظهور أنماط جديدة فى مجالات العمارة والنحت والفنون الصغرى .

فى مجال العمارة انتشر فى العالم نمط جديد لتخطيط المبانى الخاصة كالمنازل والقصور والمقابر يقوم على فناء مكشوف أوسط يحاط بالأعمدة من جميع النواحى، ومن وراء هذه الأعمدة تقوم الجدران المكونة للوحدات المعمارية المختلفة للبناء بحيث تكون هذه الجدران مع الأعمدة ممراً مسقوفاً مفتوحاً على الفناء . سمى هذا المخطط Peristyle ويمكن تعريبه بالمخطط ذى الفناء المحاط بالأعمدة . وقد كشفت أمثلته المبكرة خارج مصر فى بريينى وترجع

إلى القرن الثالث ق.م ، إلا أن أقدم أمثلته ظهرت فى مقابر الإسكندرية المبكرة التى ترجع أولى مراحلها إلى أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الثالث ق.م مثل مقبرة الشاطبى ومقبرة أنطونيادس ومقبرة الأنفوشى ، وكانت هذه المقابر تحمل نفس تخطيط المنازل المعاصرة لها . لذا فإن معظم العلماء يعتبرون هذا المخطط ابتداعاً سكندرياً[1] .

أما أكثر المظاهر المعمارية السكندرية انتشاراً فى العالم فكان منارة الإسكندرية التى اتخذت مثالاً يحتذى فى بناء المنارات المعاصرة والتالية لها . واعتبار منارة الإسكندرية واحدة من عجائب الدنيا السبع ما هو إلا اعتراف من الكتاب القدامى بعالمية هذا البناء ، وعالمية الميناء الذى أقيم فيه[2] .

تحوى مقابر الإسكندرية أيضاً الملامح الأولى لنشأة أسلوب الزخارف الجدارية المعروفة باسم أسلوب بومبى الأول أو incrustation style المتمثل فى محاولة الفنان رسم شكل معمارى يحاكى فيه طريقة البناء بالرخام . تظهر هذه الزخارف فى مقابر الورديان والأنفوشى، ويؤكد العلماء أصله السكندرى[3] . كذلك يرجع البعض نشأة أسلوب بومبى الثانى والمعروف باسم الأسلوب المعمارى إلى أصل سكندرى وتظهر فيه الزخارف على شكل نوافذ وأبواب وهمية فى المسافة بين عمودين أو نصفى عمودين . وكانت هذه الزخرفة تنفذ فى البداية بنحت بارز كما فى مقبرة الشاطبى ثم نفذت بالرسم بالألوان كما فى مقبرة سيدى جابر . وتقدم مقبرة أنطونيادس خطوة جديدة فى سبيل تطوير الأسلوب الثانى حيث تظهر خاصية مراعاة المنظور فى العمود الخلفى المرسوم فوق الفتحتين الرئيسيتين فى حجرة الدفن[4] .

والواقع أن زخارف الجدران شهدت فى العصر الهلينستى نمطاً جديداً يتفق العلماء على سكندريته ألا وهو المناظر النيلية التى تمثل جوانب طبيعية من البيئة المصرية . وعلى الرغم من أن الإسكندرية لا يمكن أن تعتبر بيئة نيلية ، إلا أن سكان الإسكندرية كانوا يشربون ماء النيل ويحصلون على احتياجاتهم الغذائية منه عن طريق ميناء الإسكندرية على بحيرة مريوط ، وكانوا على اتصال دائم بالوادى. لقد تأثر فنانو الإسكندرية بالبيئة النيلية تأثراً كبيراً جعلهم يبتدعون فن الزخرفة الطبيعية ذات المناظر النيلية . بدأت أولى مظاهر هذا النوع من الفن فى مقابر الأنفوشى[5] . كما كشفت عام ١٩٨١ بعض اللوحات المغطية لفتحات الدفن بالقرب من جبانة الشاطبى تحمل المناظر النيلية (صورة رقم١)[6] وقد اعتبرت رسوم هذه اللوحات النماذج المبكرة التى ظهرت على غرارها بعد ذلك لوحات الفسيفساء التى تحمل هذا النمط الفنى خارج مصر[7] .

على الرغم من أن فنانى النحت السكندريين قد ساروا فى بداية العصر البطلمى فى المسار العام لفن النحت الهلينستى الذى وضع أسسه فنانا القرن الرابع الشهيران براكسيتليس Praxiteles وليسيبوس Lysippus ، إلا أننا نستطيع أن نتتبع خطوات جديدة ظهرت فى منحوتاتهم ولاقت رواجاً كبيراً فى المراكز الحضارية الأخرى فى العصر الهلينستى حتى

أصبحت علامات على العصر . يظهر ذلك واضحاً فى الصور الشخصية لملوك البطالمة المنفذة علـــى النمط اليونانى ففى الرأس الرخامية للملكة أرسينوى الثانية المحفوظة بالمتحف اليونانى الرومانـــى بالإسـكندرية (صورة ٢أ)(٨) . يظهر تأثير براكسيتيليس فى نعومة السطح ومحاولة التركيــز علـــى مــواطن الجمـــال فى الوجه ، بينما يضيف الفنان السكندرى ذلك الإيحاء بقوة الشخصـــية المصـــورة وعمق الفكر والنظرة البعيدة ، فقد بدأ فنانو الإسكندرية فى التحرر من المثالية اليونانية نحو محاولة لإضفاء بعد فكرى جديد للشخصية المصورة . تنعكس هذه الفكرة ربمـــا بوضـــوح أكثر فى الصورة الشخصية من الرخام للملكة كليوباترا السابعة المحفوظة فى بـــرلين (صـــورة رقـــم ٣أ)(٩) والتـــى يظهر فيها الجمال البراكستيلى مندمجاً مع البعد الفكرى للشخصـــية المصورة ، ومحاولة التغلغل داخل النفس . غير أن أكثر الخصائص أهمية فى هذا الـــنحت هـــو ظهـــور نوع من الشفافية بحيث يخيل للناظر إليه أن حاجزاً من دخان يفصل بينه وبين التمثال ، والتى عرفت فى المراجع الحديثة بالكلمة الإيطالية Sfumato(١٠). وهى الظاهرة التى يعتقد العلماء أنها سكندرية النشأة وتكررت بعد ذلك فى المنحوتات الرومانية .

كان ميدان الفنون الصغرى واحداً من الميادين التى أبدع فنانو الإسكندرية فيها الكثير مـــن الإنجـــازات التـــى أصـــبحت علامة عليهم وعلامة على العصر بأكمله . وتأتى فى مقدمة الأعمال الفنية فى هذا الميدان تلك الأوانى المعدنية التى وجد الفنان فى مادتها وحجمها فرصة لإثبات قدرته على تنفيذ فن دقيق ومؤثر . من ذلك إناء بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية مـــن الفضـــة والـــذهب (صـــورة رقم ٤)(١١) يصور بالتشكيل البارز منظراً أسطورياً ديونيسياً لعصـــر العنـــب وتجمـــيـــع العصير بواسطة مجموعة مـــن أشكال إيروس الطفل (Putti-Erotes). كانـــت الإسـكندرية فـــى النصف الأول من القرن الثالث ق.م موطناً لنوع آخر من الأوانـــى الـــزجاجية المعروفة باسم ναλινα διαχρμσα(١٢) بمعنى الزجاج المذهب – وسميت أيضاً Sandwich glass – وهى أوانى مصنوعة من طبقتين من الزجاج الشفاف الرقيق بينهما طبقة من رقائق ذهبية مطروقة ومشكلة بأشكال زخرفية نباتية . عثر من هذه الأوانى على ستة عشر إناء فقط معظمها كشف فى أوروبا وبخاصة إيطاليا ولكن واحدة منها فقط يرجعها العلماء إلى البلاط الملكى بالإسكندرية وهى الموجودة بالمتحف البريطانى (صورة رقم ٥)(١٣) وإن اتفق على سكندرية المنشأ للنوع ذاته .

أمـــا الأوانـــى الفخاريـــة من نوع الهيدريا hydria والمسماة بأوانى الحضرة ، نسبة إلى جـبانة الحضرة بالإسكندرية التى كشفت فيها أكبر كمية من هذه الأوانى ، فهى الأخرى تحمل لمحة فنـــية سكندرية . كانت هذه الأوانى فى معظمها تستخدم كأوانى جنائزية لحفظ رماد الجثث المحروقة . وعلى الرغم من أن التحاليل المعملية والدراسات الحديثة على أنواع الطينة المستخدمة فى صناعة هـــذه الأوانـــى قـــد أثبتت أن جانباً كبيراً منها قد صنع من طينة كريتية بما يشير إلى استيرادها من هـــناك(١٤) ، وعلـــى الـــرغم مـــن شيوع الأنماط الزخرفية بها فى أماكن مختلفة من العالم ، إلا أن

اســتخدام الــزخارف الملونة فوق طلاء أبيض بأشكال تمثل أدوات من الحياة اليومية يعتبر ابتداعاً ســكندرياً(١٥) . لقد ظهرت عليها المرايا والدروع ، الصناديق ، المراوح ، الأحذية والزهور ، منفذة بطــريقة الضــوء والظــل وخــداع النظــر (illusionism) . كانت هذه الأوانى تستخدم أنواعاً من الــزخارف النباتية والهندسية أو أشكال الأشخاص والحيوانات وهى أشكال نمطية ، أما أدوات الحياة اليومــية فتتفق مع الاتجاه العام للفن السكندرى نحو النزول إلى الشارع ونقل صورة حية منه، وهو الأمر الذى سنتطرق إليه عند الحديث عن جانب آخر من مفهوم العالمية فى الفن السكندرى .

فــى مجــال الفــنون الصــغرى ، وزخــارف الأوانــى علــى وجــه الخصــوص لا يمكــن إغفــال الإنــاء الشهير المسمى إناء فارنيز Tazza Farnese (صورة رقم ٦)(١٦) والــذى يعتقد أنه كان مستخدماً فى البلاط البطلمى على الرغم من اختلاف العلماء حول تفسير المنظر المصور عليه من الداخل وحول التاريخ الدقيق له . يظهر فى المنظر المحفور فى حجر الســاردونيكس ، الذى صنع منه الإناء ، امرأة ترتدى الملابس ذات العقدة الإيزيسية المعروفة عــند الصدر ، تضطجع على تمثال لأبى الهول وتحمل فى يدها اليمنى حزمة من سنابل القمح. إلــى يسارها يجلس إله ملتح على جذع شجرة يحمل فى يده اليسرى قرن الخيرات ، إلى يمين المنظــر تجلــس فــتاتان تحمل إحداهما إناء يشبه إناء الفارنيز نفسه، بينما تسند الثانية يدها اليمنــى علــى قــرن خيرات . ويظهر فى الوسط بين السيدة المضطجعة والإله شاب يعلق فى ذراعــه الأيسر حقيبة بذور وفى اليد يحمل نصلاً، بينما تحمل يده اليمنى ما يمكن تفسيره بأنه محــراث. فــى أعلى المنظر شابان طائران ينفخ أحدهما فى بوق أو صدفة والآخر يحمل طرف عــباءته . فســر الإلــه الجالس بالنيل والمرأة المضطجعة بيوثنيا Euthenia تشخيص الوفرة والثروة ، التى اعتبرت رفيقة للنيل ، ولا يخلو ارتداؤها لملابس إيزيس من مدلول على اقتران النيل بالوفرة والخصوبة التى تمثل إيزيس نفسها . بينما الشاب ذى المحراث فهو تريبتوليموس Triptolemos ، أول من علم الناس الزراعة فى الأساطير اليونانية . الفتاتان تمثلان الفصول Horai وبالتحديد فصلى الفيضان والحصاد، والشابان الطائران يمثلان الرياح التى تسبب هذين الفصلين(١٧) . ويرى المحللون على اختلاف تفسيراتهم نقطة هامة تعتبر خاصية سكندرية وهى الرمــزية فــى المنظــر المصور ، فإن المنظر يحمل رسالة ما يقولها للعالم ، إن خصب مصر ونماءهــا ، وبالتالــى القوة الاقتصادية للبطالمة ، إنما تنبع من نسق عالمى حيث تأتى الرياح بالفيضان فيسقى النيل الأرض فيزرعها الناس الذين يعرفون جيداً كيف يفلحونها (تريبتوليموس وحقيــبة البذور والمحراث) فيعم الخصب والخير (يوثنيا وقرن الخيرات) . هذا ولا يجب إغفال أنها فى كل الحالات نفذت بأيدى فنان على درجة عالية ليس فقط من الموهبة والاتقان ، وإنما من الثقافة والفكر العميق ، صنعها هذا الفنان المثقف العالى الذوق لأناس يحملون نفس الدرجة مــن الفكر العميق والنظر البعيد والذوق المرتفع ، ولا يكون أمراً مبالغاً فيه إذا ما قلنا إن بيئة

الإسكندرية وبلاطه في العصر البطلمي كانت هي البيئة المناسبة لظهور مثل هذا الفكر العميق المتمثل في فن راق يحمل رسالة إلى العالم .

نخلص من الأمثلة السابقة إلى أن جانباً ليس بالقليل من الفن السكندري كان فناً يونانياً ولكنه كان يونانياً متفرداً تأثر بالبيئة العلمية والحياة الجديدة فقدم أفكاراً جديدة وخطوات جديدة اتخذها فنانو المراكز الهلينستية الأخرى نقطة انطلاق ، ليقدموها ويطوروها في نتاجهم الفني. والسؤال هنا: هل هذه هي العالمية في الفن؟ هل انطلاق أفكار وخطوات فنية جديدة من فن بعينه وشيوعها في أماكن كثيرة من العالم هو ما يجعلنا نطلق على هذا الفن المبتدع فناً عالمياً؟

قد تكون الإجابة على هذا السؤال بنعم – وهو ما يراه الكثيرون منطقياً – سبباً في إسباغ صفة العالمية على الفن السكندري .

لكن من وجهة نظر أخرى ، يمكن تتبعها في الفن السكندري قد تؤدي بنا إلى إيجاد سبب آخر مقنع ومنطقي ، لإسباغ صفة العالمية عليه. ذلك أن فن الإسكندرية لم يكن قط مقتصراً على المظهر اليوناني ، وإنما وجدنا ومنذ بداية العصر البطلمي، ما يمكن أن نطلق عليه الازدواجية في الفن . فالملوك البطالمة الذين احترموا تراث المصريين ولم يهملوه راحوا يقيمون في الوادي منشئات دينية ومعابد على غرار المعابد المصرية ، مثل معبد إدفو وكوم أمبو وغيرهما ، صوروا فيها أنفسهم في صورة الفراعنة ، يقدمون القرابين للآلهة المصرية ويفعلون كما كان يفعل الفراعنة[18] ، بينما كانوا في نفس الوقت يقيمون في المدن اليونانية ، وبخاصة الإسكندرية ، المعابد اليونانية على غرار المعابد المعروفة في بلاد اليونان ، ويصورون أنفسهم في صورة الإغريق . تظهر هذه الازدواجية في التصوير الشخصي للملوك ونستطيع أن نجد أمثلتها منذ أواخر القرن الرابع ق.م كما في التمثال الجرانيتي الذي يصور الملكة أرسينوي الثانية (صورة رقم ٢ب)[19] المحفوظ في متحف الفاتيكان بروما . إننا في هذا التمثال لا نستطيع أن نجد شيئاً يونانياً وإنما الوقفة المصرية التقليدية والملابس الشفافة والشعر المستعار والملامح المثالية التي لا تعبر عن الملامح الشخصية للملكة كما تظهر في رأس المتحف اليوناني الروماني المشار إليها آنفاً (صورة رقم ٢أ) وكما تظهر أيضاً في العملة التي تحمل ملامح الملكة وأمكن من خلالها التعرف على شكلها . أما التمثال الجرانيتي فقد أمكن التعرف على شخصيتها فيه من خلال نقش على القاعدة يحمل اسمها . ولكن الأمر لم يدم كذلك طويلاً . ففي أبي قير عثر على تمثال من الجرانيت الوردي لبطلميوس الرابع (١٨٦ – ١٤٥ ق.م) يصور الملك مرتدياً تاج الوجهين كالفراعنة (صورة رقم٧)[20] وغطاء الرأس المصري تعلوه الكوبرا المقدسة . غير أن تماثيل الفراعنة التي أراد النحات أن يصوره على غرارها لم تكن تظهر شعراً على الجبهة ، الأمر الذي اعتاده الإغريق . فظهر التمثال مصرياً تشوبه مسحة إغريقية . إن الفنان الذي يعيش في مجتمع يختلط فيه العنصر الإغريقي مع

العنصر المصرى – ذلك الذى يحمل ملامح حضارة طالما أبهرت الإغريق أنفسهم بإنجازاتها – أصـبح يحمل فى وجدانه تيارات فكرية وعقائدية وسلوكية مختلفة ، بل وظهر جيل من شباب تختلط فيه الأصول المصرية بالإغريقية ، فكان من الطبيعى أن ينتج الفنان الإغريقى فناً مختلطاً ولا نقول مزدوجاً، فلا هو بالمصرى الخالص ولا هو بالإغريقى الخالص. بدأت الأمثلة على هذا الفن المختلط تترى ، فنجد الملكة البطلمية (غير المحددة) تصور فى تمثال من الرخام[٢١] على الـنمط المصـرى مـرتدية الشعر المستعار وغطاء طائر العقاب المصرى ولكن بملامح الوجه الإغريقى وبالخطوط المنحنية المرنة للفن الإغريقى . ثم نجد بطلميوس السادس[٢٢] تظهر على جبهـته خصـلات الشعر المنحوتة على النمط الإغريقى رغم التماثيل الجرانيتية المصرية . أما كليوباتـرا السابعة فقد وجدناها تصور على النمط الإغريقى (صورة رقم ٣أ) بملامح تجديد فى الفن الهلينستى بينما تصور فى معبد دندرة (صورة رقم ٣ ب)[٢٣] على النمط المصرى المجدد ولـيس القديم حيث تبدأ خطوط النحت فى الحجر تنحنى ، وتصقل الأسطح المعبرة عن البشرة لتظهـر ناعمـة مائلـة إلى الواقعية ، ولكنها محتفظة بالغموض والسمو والمثالية التى أصر المصـريون علـيها فـى تماثيل ملوكهم. هذا النحت لا يمكن أن نحدد هوية صانعه ، فهل كان مصـرياً متأثراً بالخطوط الفنية اليونانية[٢٤] ، أم كان يونانياً عاش فى صعيد مصر وتأثر بالفن المصرى، بينما بقيت فى داخله مؤثرات براكسيتيليس الناعمة؟

أما التمثال الجرانيتى الضخم الذى اكتشفته بعثة المعهد الفرنسى لدراسات الإسكندرية، تحـت المـاء فـى مـنطقة قلعة قايتباى والذى يمثل واحداً من الملوك البطالمة الثلاثة الأوائل (صـورة رقـم٨)[٢٥] ، فإنه يصور الملك بالوقفة والملابس والتاج المصرى بملامح وجه الملك الحقيقـية ، ذات المظهـر اليونانى . فلماذا إذن أراد هذا الملك أن يظهر فى الإسكندرية – تلك المدينة التى أريد لها أن تكون يونانية الطابع – وفى مدخل الميناء الكبير (الشرقى) على النمط المصـرى؟ هـل أراد أن يتلقى القادمون إلى المدينة رسالة سريعة بأنهم قادمون إلى عاصمة يحكمهـا ورثـة الفراعنة ويحكمون معها كل الوادى – كما يرى المكتشف؟[٢٦] هل كان الملك يتباهى بتلك الحضارة التى يجلس على عرشها؟ أم أن طبيعة الحياة والمجتمع جعلا من الملوك البطالمة ساسة تختلط فيهم الاتجاهات الإغريقية المتأصلة مع تلك المصرية التى لا يملكون لها سوى الاحترام والإكبار! ولا يجب أن نغفل عن تفسير وجود مثل هذا التمثال لواحد من البطالمة الأوائل عند مدخل ميناء الإسكندرية الكبير نقطتين هامتين: أولاهما أن الفن الهلينستى كان فى جانب كبير منه يميل إلى خدمة أغراض الدعاية السياسية للملوك ، الأمر الذى يجعل من تفسير أمبـرور تفسـيراً منطقياً ، ولكن الدعاية السياسية كانت تحمل معها فى مصر بالتحديد دعاية سـياحية ، ذلـك أن ملـوك الـبطالمة سعوا بوسائل شتى إلى استقطاب الإغريق للسكنى فى الإسـكندرية وبخاصـة العلماء والفنانين ممن تمكنهم ثقافتهم ومعارفهم من تقدير قيمة الحضارة

المصرية . وربما اتخذ تمثال بطلميوس المظهر المصرى الفخم بغرض الجذب السياحى لهؤلاء . أما الــنقطة الثانـــية فهـــى اعتياد الإغريق إقامة تماثيل ضخمة عند مداخل الموانى الهامة تمثل الآلهة الحامية للميناء ومدينته مثل تمثال هليوس Helios فى مدخل ميناء جزيرة رودس Rhodes وتمثال بوسيدون Poseidon فى سوينون Sounion وغيرهما. ونحن نعرف أن البطالمة كانوا يؤلهون بعد مــوتهم ، فمـــنذ أن ألـــه الإســـكندر ، بدأ بطلميوس الثانى فيلادلفوس Philadelphus تأسيس عبادة لأرســـينوى زوجته وأخته ثم عبادة أخرى لأبيه بطلميوس الأول سوتير Soter(٢٧) وهكذا . ولا مانع والحال كذلك أن يقام تمثال الملك بصفته الإله الحامى للميناء فى الإسكندرية . ولا مانع أيضاً من أن يتقمص البطالمة شكل الفراعنة حتى فى الإسكندرية ، منذ عصر البطالمة الثلاثة الأول .

لــم تكن الحضارة المصرية هى الوحيدة ذات التأثير الواضح فى فن الإسكندرية ، وإن كانت هى صاحبة التأثير الأقوى والأوسع انتشاراً ، لكن الاتصال الدائم واليسير بين الإسكندرية كميـــناء رئيسى فى حوض البحر المتوسط وبين مواطن الحضارات الأخرى ، أدى إلى تأثر فن الإســـكندرية بغيـــره مـــن الفـــنون. فظهرت المؤثرات السورية والفارسية من الشرق وظهرت المؤثرات البرجامينية والأتيكية أيضاً . فى طوق الكرموز بالدلتا كشف عدد من الأوانى المعدنية المميـــزة لفـــن الإسكندرية ترجع إلى القرنين الرابع والثالث ق.م . من بين هذه الأوانى ريتون Rhyton مـــن الفضة محفوظ الآن بمتحف القاهرة (صورة رقم ٩)(٢٨) اعتقد مكتشفه أنه ورد إلى الإسكندرية من بلاد فارس نظراً لظهور الملامح الفنية الفارسية بوضوح فيه(٢٩) . غير أنه تبين بعد ذلك أنه صنع فى الإسكندرية واتخذ الملامح الفارسية التى عمد الفنانون إلى إظهارها تذكيراً بانتصارات الإسكندر الأكبر ، وتمجيداً له .

أما أوانى الملكات الشهيرة وهى تلك الأوانى التى كانت تصنع خصيصاً لتقديم القرابين للملكـــات البطلميات المؤلهات فى الأعياد التى تقام على شرفهن. وكانت هذه الأوانى تصنع من القاشـــانى وتحمـــل بالتشكيل البارز صوراً للملكات يحملن قرن الخيرات فى اليد اليسرى وإناء قربان فى اليمنى . وهن تقفن أمام مذبح إلى اليمين ودعامة من المحراب إلى اليسار . هذا هو الـــنمط السائد المتكرر لهذا النوع من الأوانى ، غير أن ما يلفت النظر هو ظهور أولاد الملكات وملابسهن بطريقة أتيكية صرفة وكأن فنانين جاءوا من أتيكا خصيصاً لصنعها. إنها تجمع إذن بـــين الفكرة الشرقية فى تأليه الحكام ، وبين الشكل اليونانى الأتيكى لهم . لقد أثبتت الدراسات أن هذه الأوانى كانت نتاجاً فنياً سكندرياً(٣٠) .

إذن لقد كان فن الإسكندرية بوتقة انصهرت فيها أولاً الملامح الرئيسية للفنين اليونانى والمصـــرى ، وتقـــبلت إلـــى جانـــب ذلك المؤثرات الوافدة من الشرق والغرب . فهل هذه هى العالمـــية فـــى الفـــن؟ هـــل يعتبر تقبل حضارة ما للتيارات الوافدة من هنا وهناك وظهور هذه التيارات جنباً إلى جنب مع الخطوط المحلية بشكل مضطرد حتى يصبح تداخل التيارات المختلفة ســـمة لهذا الفن . هل يعتبر هذا عالمية؟ ونعود ونقول أن الإجابة بنعم على هذا السؤال تعطينا

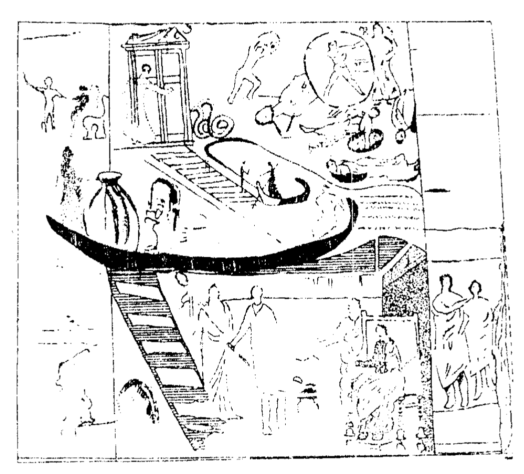
سبباً منطقياً لإسباغ صفة العالمية على الفن السكندرى .

مع كل ذلك فقد بقيت وجهة نظر أخيرة لا يجب أن نغفلها ، ألا وهى سكان الإسكندرية القديمـــة ومجـــتمعها. فقد كان السكان خليطاً من الإغريق ، الإيطاليين ، السوريين ، الليبيين ، الكيليكيـــين ، الإثيوبيـــين ، العـــرب ، السكيثيين ، الهنود والفرس. لكن العنصرين الأساسيين للســـكان كانا هما المقدونيين ومعهم الإغريق والمصريين . إن مدينة بكل هذه العناصر العرقية المختلفة لابد وأن تخرج فناً يعبر عن هؤلاء العناصر . لقد تميز الفن الهلينستى فى جانب كبير مـــنه بالواقعـــية ونزول الفنان إلى الشارع لتصوير الأحداث البسيطة التى تحدث فى البيئة التى يعيش فيها، ولا غرو إذا ما قلنا أن الفنان السكندرى كان أول من بدأ هذا الاتجاه، فمدينته كانت تدفعه إلى ذلك دفعاً من خلال ذلك الزخم من الأشكال والتصرفات ، وتقدم له معيناً لا ينضب من موضـــوعات جديـــدة لم تكن قبل ذلك العصر متاحة للفنانين من قبله أو بالأحرى لم تكن عقلية الفنانين من قبل أو فكرهم يسمح بمكان لتلك الموضوعات ، فقد كان الفنانون من قبل منشغلين بأصـــول الفكـــر الدينـــى وكانـــت الأسطورة بكل تنوعاتها، موضوعاً رئيسياً للفن . وقلما جنح الفـــنانون فـــيما قبل العصر الهلينستى إلى موضوعات الحياة اليومية . هكذا كانت موضوعات الشـــارع السكندرى تمثل أنماطاً فنية نفذها الفنانون السكندريون ببراعة ، فالتقط الفنان أشكال المعاقـــين والمرضـــى لتكون موضوعات لكميات كبيرة من منحوتات الطين المحروق Terra Cotta ، وظهـــر بـــين ذلك تصوير للمشوهين مع شئ من المبالغة فى إظهار هذا التشوه فيما عـــرف بفن الجروتسك Grotesque ، الذى أدى إلى ظهور فن آخر يعتمد على تخيل تشوه ما فـــى الجسم والتركيز عليه مع المبالغة فى تصويره بغرض السخرية والإضحاك فيما نعرفه الآن باســـم فـــن الكاريكاتير[٣١] كذلك شاعت مناظر الأطفال والمسنين بقصد إظهار الفنان قدراته فى التعبيـــر عن المراحل العمرية المختلفة . وأدى تعدد الأجناس إلى تصوير الأفراد ذوى الأصول العـــرقية المخـــتلفة على نطاق واسع ، فظهر الغال الذين كانوا فى معظمهم يعملون فى الجيش البطلمـــى كمرتزقة[٣٢] . والجرمان والفريجيين والبيثينيين والهنود وغيرهم . أما أكثر العناصر التـــى ظهـــرت فى التراكوتا السكندرية فقد كانت الأفارقة وبخاصة النوبيين والزنوج[٣٣] . ممن شكلوا جانباً كبيراً من العبيد والعمال فى المدن المصرية . واهتم الفنان بتصوير الأقزام اهتماماً كبيراً حيث كانوا يشكلون عدداً كبيراً من عبيد الأسرات الثرية .

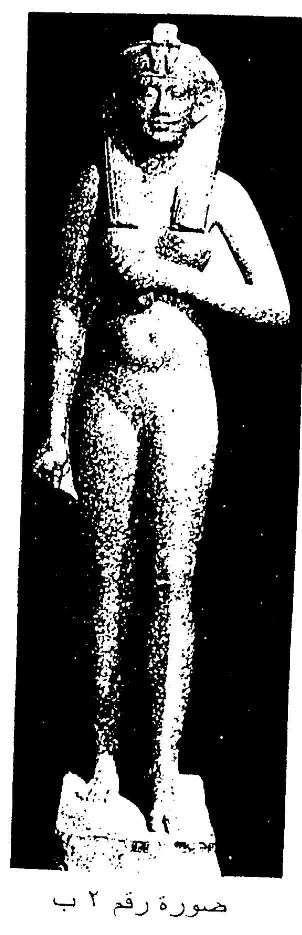
ويـــبدو أن تصـــوير الأفارقـــة عموماً كان من الموضوعات المحببة والمألوفة للفنان الســـكندرى حتـــى أن صورهم أصبحت تستخدم لزخرفة أدوات الحياة اليومية كما نرى فى إناء علـــى هيئة شاب زنجى يجلس القرفصاء (صورة رقم ١٠)[٣٤] تظهر فيه الملامح الزنجية حيث الأنف الأفطس والشفاه الغليظة والشعر المجعد .

فهل يعد تصوير الأجناس المختلفة من الشعوب التى كانت تعيش فى مجتمع الإسكندرية القديمة والأعمال المختلفة والأحوال الجسمية غير الطبيعية . وظهورها كنمط فنى متميز، فناً عالمياً كما كانت المدينة عالمية ؟

الحقيقة أن اختلاف وجهات النظر فى تحديد مفهوم العالمية فى الفن لا ينفى عن الإسكندرية أنها قدمت فناً عالمياً بكل المعايير .



صورة رقم ١



صورة رقم ٢ ب



صـــــورة ٢ أ

صورة رقم ٢



صــــورة رقــم ٣ أ



صورة رقم ٣ ب

صورة رقم ٣



صورة رقم ٤



صورة رقم ٥

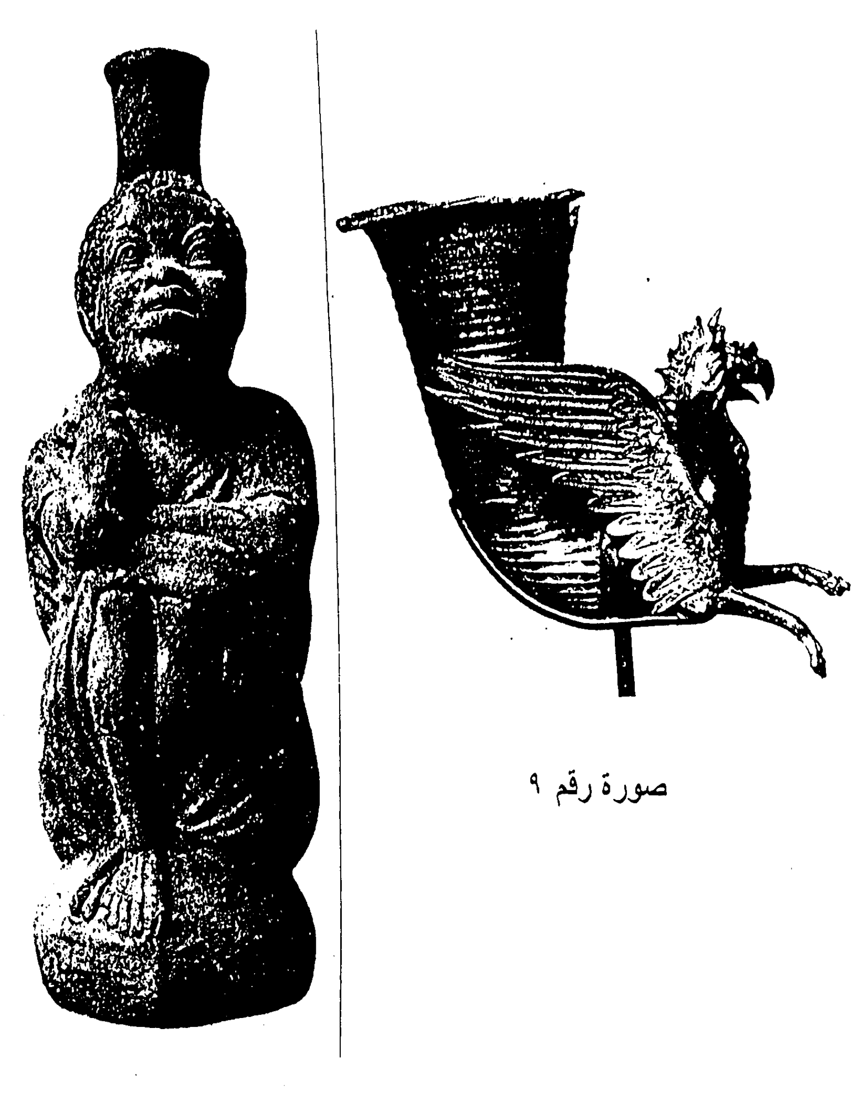


صورة رقم ٦



صورة رقم ٧

صورة رقم ٨



صورة رقم ٩

صورة رقم ١٠

الهوامـــــش

١ - M. Rodziewicz, "Remarks to the Peristyle House in Alexandria and Mareotis", in: Congrès international d'archéologie classique,12,1983, 1988, pp. 175ff.

٢ - J. Y., Empereur, Alexandrie redécouverte, Paris, 1998, pp. 63 ff.

٣ - I. Noshy, The Arts in Ptolemaic Egypt, Oxford, 1937, pp. 26 ff.

٤ - Ibid, pp. 33 ff.

٥ - A. Adriani, Annuaire du Museé Gréco - Romain, III, (1940 - 1950), Alexandrie, 1952, pp. 55 ff, pl. XLIV - XLV.

٦ - الصورة منقولة عن:

M. Rodziewicz, "On Alexandrian Landscape Paintings", in: Alessandria e il mondo Ellenistico - Romano, L'Erma di Bretschneider, Roma, 1995, pp. 329 - 337.

٧ - W.A. Daszewski, "Hellenistic and Early Roman Finds from Alexandria and its ighbourhood", in: Internationaler Kongress für Klassische Archäologie, Berlin, 1988, p. 141.

٨ - الصورة منقولة عن:

J.J.Pollitt,Art in the Hellenistic Age,Cambridge,1986,fig.266, p. 251.

٩ - الصورة منقولة عن:

Ibid, fig. 272, p. 253.

١٠ - بمعنى الدخان أو البخار.

١١ - الصورة منقولة عن:

J.Y. Empereur, A Short Guide to the Graeco - Roman Museum - Alexandria, Harpocrates Publishing, Alexandria, 2000, fig. 40.

١٢ - Adriani, "Un Verto dorato alessandrino del Caucaso", Bulletin de la société archéologique d'Alexandrie, no,42, Alexandria,1967,pp.105-127.

١٣ - الصورة منقولة عن:

Pollitt, op. cit., no. 277, p. 256.

١٤ - P. I. Callaghan & R. E. Jones, "Hadra Hydriae and Central Crete: Fabric Analysis", in BSAA, no. 80, Alexandria, 1985, p. 2.

١٥ - Pollitt, op. cit., p. 257.

١٦ - الصورة منقولة عن:

Pollitt, op. cit., no. 279, p. 258.

والإناء سمى كذلك نسبة إلى مجموعة أسرة فارينز التى كانت تجمع التحف الأثرية والتى انتقلت مقتنياتها إلى معظم المتاحف الإيطالية. والإناء الذى نحن بصدده محفوظ الآن بالمتحف الأثرى بنابولى.

١٧ - قـدم فورتفانجلـر Furtwängler هذا التفسير فى بداية القرن العشرين ولازال تفسيره هو أقرب التفسيرات إلـى الصحـة علـى الـرغم من ظهور تفسيرات شاربونو Charbonneaux وباستيه Bastet وتومبسون Thompson، لمعرفة تفاصيل هذه التفسيرات ومراجعها إرجع إلى:

Pollitt, op. cit., p. 259 and notes.

١٨ - M. V. Seton - Williams, Ptolemaic Temples, London, 1978, passim.

١٩ - الصورة منقولة عن:

Pollitt, op. cit., fig. 267, p. 251.

٢٠ - الصورة منقولة عن:

Empereur, A Short Guide, fig. 14.

٢١ - Noshy, op. cit., pl. XVII, fig. 2.

٢٢ - Pollitt, op. cit., fig 283, p. 262.

٢٣- الصورة منقولة عن:

K. Zambucka, Cleopatra Goddess / Queen, London, 1989, p. 133.

٢٤- تظهـر المؤثرات الهلينستية فى الفن المنفذ على النمط المصرى خلال العصرين البطلمى والرومانى بوضوح فى العديد من الأعمال. راجع:

B.V.Bothmer, "Hellenistic Elements in Egyptian Sculpture of the Ptolemaic Period", in: Alexandria and Alexandrianism, The J. Paul Getty Museum, Malibu, California, 1996, pp. 215 - 230.

٢٥- الصورة منقولة عن:

Empereur, Alexandrie redécouverte, p. 77.

٢٦- Ibid, loc. cit.

٢٧- P. M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, Vol. I, Oxford, 1972, pp. 213 ff.

٢٨- الصورة منقولة عن:

Pollitt, op. cit., fig. 275, p. 255.

٢٩- C.C. Edgar, Le Musée égyptien, in: Melanges G. Maspero, Vol. II, Cairo, 1906, p. 61.

٣٠- D. Thompson, Ptolemaic Oinochoai and Portraits in Faience, Aspects of the Ruler Cult, Oxford, 1973, pp. 104 ff.

٣١- لمعرفة المزيد عن فن تصوير المعاقين والمشوهين فى الإسكندرية، راجع:

سلوى حسين محمد، الجروتيسك فى الفن اليونانى والرومانى فى الفترة من القرن ٣ ق.م - ٣ م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة طنطا، ١٩٩٢، ص ص ٢ وما بعدها.

٣٢- A. J. Reinach, Les Galates dans l'art Alexandrin, Paris, 1911, pp. 5 ff.

٣٣- فـى العصـر البطلمـى، اختلط النوبيون مع الزنوج بالتزاوج ونشأ جيل مختلط بينهما، مما جعل من الصعوبة بمكان التفريق بينهما فى الأعمال الفنية.

٣٤- الصورة منقولة عن:

P. Perdrizet, Les terres cuites Grecques d'Egypte de la collection Fouquet, 1921, pl XCVII, no. 368.

١٤ - السحر في مصر في العصرين البطلمي والروماني

أ.د. حسين عبد العزيز
أستاذ الآثار اليونانية والرومانية
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

يمثل السحر محاولة التأثير على قوى ما وراء الطبيعة ، والكائنات الغيبية الخارقة من أجل تحقيق هدف ما باستخدام القوى الكامنة في تلك الكائنات . وقد نشأ السحر منذ أقدم العصور متداخلاً في نسيج الدين ومكوناً في كثير من الأحيان جزءاً منه .

عُرف عن المصريين القدماء ممارستهم للسحر وبراعتهم فيه، وتسخيرهم لهذه البراعة في خدمة أغراض دينية ودنيوية مختلفة. وقد شهدت لهم الشعوب القديمة كالإغريق والرومان واليهود بالتفوق في هذا المجال[١] ، كما أشارت الكتب المقدسة كالإنجيل[٢] والقرآن[٣] إلى ذلك. وقد كثرت لدى المصريين أدوات السحر وتعددت مجالاته . واتخذت بعض الأشكال والتماثيل مدلولات سحرية لا تتغير كتماثيل المجيبين Ushapti وأبناء حورس ، صلاة إيزيس، الريشة ، السلم ، عين حورس، الضفدع ، عين حورس والجعارين وغيرها[٤] . وقد ظلت الطقوس السحرية تمارس في مصر القديمة طوال العصر الفرعوني ، وامتدت لتستخدم دون تغيير جوهري في العصرين البطلمي والروماني، غير أن الوجود الإغريقي ومن بعده الروماني في مصر قد فتح الباب على مصراعيه لظهور قوى جديدة مستمدة من الديانة الإغريقية والمفاهيم الأسطورية الحافلة بالكائنات المركبة ذات القوى الخاصة .

لقد ظهرت في العصرين البطلمي والروماني أفكار جديدة أمكن التعرف عليها من خلال ما كشف من تمائم سحرية وما كتب في البرديات السحرية التي يرجع أغلبها للعصر الروماني. إلى جانب ذلك ، ظلت الطقوس المصرية الخالصة تمارس جنباً إلى جنب مع الأفكار الجديدة .

يقوم السحر على مبدأين هما مبدأ التماثل Law of similarity والذي يمكن أن يطلق عليه أيضاً مبدأ التقليد ، ومبدأ العدوى Law of contagion[٥]. يهدف مبدأ التماثل إلى إيقاع أثر بالإنسان عن طريق إيقاع الأثر بصورته، كأن ترسم صورة للشخص المراد التأثير عليه أو ينحت له تمثال ، ثم تمارس عليه الطقوس السحرية المؤدية إلى إحداث الأثر المطلوب. أما مبدأ العدوى فيهدف إلى إحداث الأثر عن طريق تنفيذه في جزء من جسم الشخص أو في شئ سبق له استعماله ، ذلك أن أجزاء أو أشياء الشخص تحتفظ بخصائصه بعد انفصالها عنه[٦] ، مثل قلامة الأظافر أو الشعر أو الملابس. هذه الأشياء نعرفها الآن في السحر الحديث باسم الأثر.

اســـتخدمت الطلاسم اللغوية فى كل ممارسات السحر القديم لعمل الرقى والتعاويذ. وقد اعـتقد الســحرة أن استخدام لغة غامضة بمفردات غريبة يحدث تأثيراً قوياً. فمثل هذه الكلمات تتضــمن أسماء آلهة أجنبية ذات سطوة أو تمثل الاسم المكنون لإله بعينه لا يعرفه أحد سوى الســحرة. فالســاحر المتمكن يحث الإله أو القوة الخفية ويدفعه دفعاً لتأدية ما يرغب فيه عن طــريق الــتهديد بكشــف اسمه المكنون لعامة الناس ، وهو الاسم الذى يجعل هذا الإله ممتثلاً لــرغبة من يناديه به، ومكرهاً على إجابة طلبه . ولعل أصدق دليل على اعتقاد القدماء فى قوة الاسم المكنون هو أسطورة إيزيس حين تحايلت على رع كبير الآلهة لكشف اسمه . كان رع قد بلــغ من العمر أرذله وارتخت عضلات شفتيه وبدأ اللعاب يسيل من فمه . أخذت إيزيس جزءاً مــن اللعاب المتساقط وعجنته بالتراب ، وصنعت منه ثعباناً وضعته فى طريق رع فلدغه. تألم الإله ألماً شديداً وتجمع الآلهة من حوله ، وجاءت إيزيس لتعده بشفائه ، إن هو أخبرها باسمه المكــنون. لقد كانت إيزيس تريد معرفة هذا الاسم لتستخدمه فى سحرها . راوغها رع حتى إذا مــا اشتد عليه الألم وأصبح لا يستطيع الصبر عليه وعدها بأن يبوح بالاسم على أن يكون من جــوفه إلى جوفها وألا يطلع عليه أى مخلوق سوى ابنها حورس[٧]. حين عرفت إيزيس الاسم المكنون لرع صارت أقوى الإلهات فى السحر.

فــى إحدى البرديات خوطب العديد من الآلهة المحلية والأجنبية بأسماء لم تعرف بها ولا يعرف عنها شئ فى أساطير هذه الآلهة سوى فى مثل هذه البرديات السحرية . لقد ورد فى إحداها هذا القسم[٨] : "بحق زيوس الملك أدوناى السيد ياؤو Iaoouée والرب السورى العظيم زالاير Zalaer وإيفو Iphphou ، وبحق الأسماء العبرية أبلاناثانالبا Ablanathanalba ، أبراســيلاو Abrasilao ، سيلساخوخ Silsakhoukh ، باروخ Barouch ... إلخ " يتضح من المثال السابق أن الساحر يبدأ قسمه بالاسم المعروف للإله (زيوس) ، ثم يضيف له أسماء أخرى غير معروفة ، ثم يقسم بأسماء آلهة أجنبية مجهولة ليزداد سحره قوة على قوة .

نلاحظ أيضاً أن الساحر يستخدم حروفاً متحركة مكررة ومتبادلة فى نسق معين لتكوين الطلســم ، وقــد انتشــر هذا الأسلوب فى العصر الرومانى ، وهو أسلوب معروف فى السحر الــيهودى . وكــان الطلسم فيه يتخذ شكلاً مثلثاً (صورة رقم١)[٩] أو مربعاً (صورة رقم٢)[١٠] تكــتب بداخله حروفاً تمثل أرقاماً ، تُنظم بحيث يكون حاصل الأرقام المسجلة فى صف واحد أو عمــود مــتماثلة عــند قراءتها فى أى اتجاه . وقد عرف هذا النوع من الطلاسم باسم المربع الســحرى . هكــذا كانــت الأرقام والعمليات الحسابية تحمل هى الأخرى قوى خاصة فى سبيل إنجاح العمل السحرى . ولازال هذا الأسلوب يتبع فى السحر الحديث (قارن بصورة رقم٣)[١١] .

ومن التأثيرات المستوحاة من السحر اليهودى أيضاً ظهور أسماء الملائكة فى التعاويذ مثل ميخائيل μιχαηλ وروفائيل ραθαηλ وجبريل γαβριηλ[١٢] ، وهى أيضاً صيغ لاتزال مستخدمة فى السحر الحديث .

وفى بردية محفوظة بالمتحف البريطانى (صورة رقم ٤)[١٣] ، ترجع للفترة ما بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، نجد طلسماً لدفع شر الأعداء . والطلسم عبارة عن مربع ينقسم من الداخل إلى مستطيلين حيث نجد فى أعلاه الكلمة السحرية الشائعة Αβλαναθαναλβα ، وفى الجانبين وفى الأسفل والوسط حروفاً مختلفة ، المستطيل العلوى والسفلى يحملان رموزاً سحرية ، ومن العصر الحديث يمكن مقارنة المثال السابق بطلسم حديث مشابه (صورة رقم٥)[١٤] .

استخدمت الحروف أيضاً بشكل قهقرى ، إذ اعتقد أن الكلمة التى يمكن قراءتها من اليسار إلى اليمين أو العكس من أشد الصيغ تأثيراً فى الأعمال السحرية. وأكثر الكلمات شيوعاً فى ذلك كلمة أبلاناثانالبا αβλαναθαναλβα وكلمة أثباثا αθθαβαθθα[١٥] . لقد اعتمدت الألفاظ السحرية أيضاً على التأثير الصوتى المتشابه فى مقاطعها وحروفها مثل خوخ باخوخ باكاخوخ χυχ βαχυχ βακαχυχ[١٦] وغيرها .

وكان يستخدم للكتابات السحرية عادة الحبر الأحمر ، حيث يكتب به على مواد مختلفة حسب طبيعة التعويذة أو العمل السحرى ، فهناك طلاسم يجب كتابتها على ورق البردى أو الرق أو تنقش على الأحجار سواء الكريمة أم النصف كريمة ، وكذلك بعض المعادن كالذهب والفضة والبرونز والرصاص ، وكتب أيضاً على العظم أو الفخار أو الطين أو الشمع .

إلى جانب كتابة التعاويذ على هذه المواد فيما نسميه بالطلاسم ، كانت هناك الأحجبة وهى واحدة من أدوات السحر التى مازال استخدامها باقياً حتى اليوم ، وهى عبارة عن أكياس صغيرة من الجلد أو القماش توضع بها الطلاسم المكتوبة على الورق أو الجلد ، وقد يصاحبها بقايا حيوانية كالعظام وغيرها ، وكانت هذه الأحجبة تعلق بخيط على الرقبة ، ويكون الخيط معقوداً عدداً محدوداً من العقد ، أو توضع فى الجيوب (صورة رقم٦)[١٧] . وحتى عهد قريب وجدت فى مثل هذه الأحجبة أجزاء من فئران أو طيور أو نباتات ، وبتحليل بعض بقايا الأحجبة القديمة والحديثة وجدت متشابهة إذ وجدت عظام هدهد فى بعضها وفى بعضها الآخر وجدت حرباء مجففة أو جلد ثعبان[١٨] .

شهد العصران البطلمى والرومانى انتشاراً كبيراً للتمائم السحرية التى كانت تصنع من الأحجار الكريمة أو النصف كريمة وتعلق على الصدر أو توضع فى الخواتم أو تحفظ فى الجيوب . كان لكل نوع من الأحجار خواصه السحرية ، فيذكر بلينيوس أن حجر الأجيت الأحمر Agate كان يستخدم للحماية ضد لدغات العقارب والثعابين ، بينما الأخضر منه استخدم للوقاية

مـــن أمـــراض العين أما البني فقد تعددت خصائصه فهي يدفع أذى الهوام والزواحف، ويشفي المرض ويجلب النصر والصحة والسعادة وطول العمر[١٩] .

أما حجر الجمشت Amethyst فقد كان بلونيه الأرجواني والبنفسجي ذا خواص قوية فـــي الحماية ضد السحر كما يذكر بلينيوس[٢٠] حجر الكارنيليان الأحمر سمي حجر الدم نظراً لخواصـــه المانعـــة لتدفق الدم ، فهو يمنع الرعاف ، ويحمي الجلد ضد الدمامل والقروح[٢١] . يتمتع الزمرد ذو اللون الأخضر بقدرته على شفاء أمراض العين والصرع ودفع الحسد[٢٢] . أما الهـيماتايت Haematite فقـد كـان مـن أكثـر الأحجار شيوعاً في الاستخدام السحري في الأغراض الطبية فكان مسحوقه يستخدم لإيقاف النزيف وعلاج عضات الأفاعي[٢٣] . كان حجر اليشـب الأحمر Jasper شائع الاستخدام كتمائم سحرية ضد الحسد وضد شياطين الليل ، كما يســاعد المرأة الحامل ويدر لبن الرضاع. والساردونيكس Sardonyx أيضاً ذا تأثير كبير في منع ولادة الأطفال قبل موعدهم، وكان يستخدم كمضاد للسحر. كذلك الياقوت يبطل عمل السحر ويساعد على وقف النزيف وعلاج أمراض المعدة وبعض الأوبئة .

كـذلك كـان للألوان مدلولاتها المتميزة في السحر. فالأخضر يزيد الخصوبة والأحمر يوقـف نـزيف الـدم ، ويعالج لدغات الثعابين والعقارب ، البني يطرد المرض والأسود يقاوم الحسد ويزيد الانتعاش والشجاعة[٢٤] .

كـان للمعـادن المخـتلفة أيضـاً اسـتخداماتها السحرية كالذهب والفضة والبرونز والرصـاص. إذ كتـبت عليها التعاويذ والرقى. وأشهر الاستخدامات السحرية للمعادن كان تلك اللـوحات التـي عرفت بلوحات اللعنة defixiones tabellae التي كانت تنقش عليها طلاسم لتدميـر الأعـداء أو تعاويذ العشق التي كانت تدفن مع تماثيل سحرية أو تربط بها[٢٥] . وكانت التماثـيل تصـنع مـن الطـين النئ أو المحروق terra cotta أو الشمع ، للأشخاص المراد إغـوائهم أو تدميـرهم . كان التمثال يصور الرجل أو المرأة مربوط اليدين إلى ظهره وتخترق جسـده مجمـوعة مـن الدبابيس ، حيث تربط بها اللوحة المكتوبة لتدفن معه . تحدثنا إحدى البـرديات التي ترجع إلى بداية القرن الرابع الميلادي عن وصفة سحرية للعشق صنعت لرجل أحب امرأة وأرادها أن تحبه[٢٦] . وتنصح البردية بعمل تمثالين من الطين أو الشمع لذكر وأنثى بحـيث يشبه الرجل الإله آريس Ares الذي يشهر سيفه مشيراً به إلى رقبة الأنثى التي تصور راكعـة ومكبلة اليدين خلف ظهرها . ويغرز في جسدها ثلاثة عشر دبوساً من الحديد في أماكن متفرقة من الجسم ويؤمر الرجل بأن يرتل ما معناه : "أنني أغرس هذا الدبوس في جسمها لكي لا تفكـر فـي أحد غيري" . ثم يكتب طلسماً سحرياً على لوح من الرصاص ويربطه بالتمثالين بخيط معقود ٣٦٥ عقدة . وعند غروب الشمس يدفن العمل بالقرب من مدفن شخص مات ميتة عنيفة أو مات شاباً وهو يرتل : "إنني أحفظ هذه التعويذة معكم يا آلهة وشياطين العالم السفلي

كــورى Kore وبرســيفونى Persephone وإريسخيجال Ereschigal وأدونيس Adonis وهرميس Hermes وأنوبيس Anubis . إننى أتضرع إليكم أن تحضروا إلى فلانة بنت فلانة ، وأن تملــؤوا قلــبها ولهــاً بى أنا فلان بن فلانة ، أجعلوها لا تحس بالمتعة مع أحد سواى ، واحرموها من الطعام والشراب والنوم والحب إلا إذا كانت معى ، وجروها من شعرها وأحشائها لــتظل معى إلى الأبد ، ولتكن أمة لى بحق أدوناى Adonai حاكم السماء سيد العالم" . ولدينا تمــثال مــن التــراكوتا محفوظ بمتحف اللوفر لامرأة مقيدة وتخترق الدبابيس جسمها بالشكل المشار إليه فى البردية (صورة رقم٧)[٢٧] .

مــن هــذه البــردية نستطيع التعرف على الكثير من الإجراءات السحرية ، فالتماثيل الســحرية كانــت عنصراً هاماً فى سحر العشق يتبع فيها مبدأ التماثل فالرجل يكون مثل آريس عشيق أفروديت Aphrodite الذى أحبته إلهة الحب والجمال والمرأة راكعة مقيدة أسيرة له . ثــم اللوحة والتعويذة والعقد فى الخيط ودلالة الأرقام كما أشرنا آنفاً . ودفن العمل فى المقبرة اســتنفاراً لأرواح الموتــى كى تساعد على تقوية العمل واستثارة آلهة العالم السفلى التى يريد الساحر الاستفادة من قواها وقدراتها. كذلك نلاحظ لجوء الساحر إلى آلهة مختلفة فمنها الآلهة اليونانــية كبرســيفونى وهــرميس . والآلهة الرومانية مثل كورى (وهى نفسها برسيفونى) ، والمصرية مثل أنوبيس والآلهة الشرقية كأدونيس وإريسخيجال فضلاً عن إله اليهود أدوناى . والواقع أن تداخل الآلهة وبخاصة الأجنبية منها كان أمراً مطلوباً فى السحر ، وكانت مصر بيئة مناســبة لهــذا الــتداخل حيث التنوع السكانى والزخم الفكرى الدينى . أما غرس الدبابيس فقد ارتــبط فــى مصر فى العصرين البطلمى والرومانى بسحر الشر أو السحر الأسود . فى المثال الســابق كــان الســحر للعشق ولكن فى إحدى التمائم المصنوعة من الجاسبر الأحمر المعرق بالأسود نجد الدبابيس تغرس فى عمل يقصد منه موت الضحية ، والتميمة محفوظة فى المتحف البريطانى (صورة رقم٨)[٢٨] . وقد نقش على وجهها وظهرها شكلان آدميان مغطيان باللفائف علــى هيــئة الموميــاوات ، بينما غرست فى كل رأس ثلاثة دبابيس تنتهى بحلقات . تقف كل مومياء أيضاً على دبوس له حلقتان فى نهايتيه ، ويظهر فى منتصفه خطاف يتجه إلى الأسفل. الاخــتلاف بين الشكلين يظهر فى اتجاه القدمين حيث المومياء الممثلة على وجه التميمة تتجه قــدماها نحــو اليسار والممثلة على الظهر تتجه نحو اليمين . حول مومياء الوجه نجد النقش "Ηεμερας γονος Με μνων κοιμαται" ويعنى : "ممنون بن النهار فلينم" ، ثم إلى الداخل نجد الطلسم : κραβαζαζγραβιραθκγβαιαωεω أما الظهر فقد ظهر حول الشكل من الخارج النقش : "Φιλιππας γονος Αντιπατρος κοιμαται" أى : "أنتيباتروس بن فيليبا فلينم" وعلى جانبى الشكل النقش : "εγω ο ων" وترجمتها : "أكون من أكون" .

فــي هــذه النمسيمة يظهــر مبد التماثل بأوضح صوره ، فالذى صنع السحر ، يتمنى موت أنتيلتروس بن فيليبا مثلما مات ممنون بن النهار . والمقصود بممنون بن النهار هو ممنون بن إيوس Eos إلهــة الفجر الإغريقية التى ورد فى الأساطير أنها تتحول إلى النهار عندما يظهر أخوها هليوس Helios إلــه الشمس(٢٩) . وقد مات ممنون بن إيوس صريعاً على يد البطل أخيليس Achilles أثناء حرب طروادة الشهيرة(٣٠) . لقد استخدمت كلمة "فليتم" بمعنى "فليمت"، وصور أنتيلتروس محنطاً مثلما صــور ممــنون . وقــد أضيفت الطلاسم السحرية الغامضة للاستزادة من قوة العمل ، ويظهر التأثير الــيهودى فى استخدام عبارة مأخوذة من التوراة كثيراً ما استعملت للأغراض السحرية ألا وهى جملة εγω ο ωv . وكــان النبــى موسى قد سأل الصوت الذى ناداه : "من أنت؟" فأجاب الصوت الذى هو الــرب ســبحانه : "أكون من أكون"(٣١) . ومن الملاحظ أن هذه الصيغة لازالت مستخدمة حتى اليوم فى الطلاســم السحرية بصورتها العبرية مكتوبة بحروف عربية : "أهيا أشر أهيا"(٣٢) . هذا فضلاً عن دور الدبابيس المعدنية فى قوة العمل(٣٣) .

يلاحــظ كــذلك من المثالين السابقين استخدام اسم الشخص منسوباً إلى أمه ، وقد تكرر ذلك فى الأعمال السحرية المختلفة الواردة فــى البردى والتمائم واللوحات حيث يذكر الشخص باسم أمه(٣٤) . كــذلك يمثل المثالان السابقان نوعين مختلفين من السحر الأسود وهما سحر العشق، وسحر تدمير الأعــداء غير أن السحر الأسود لم يكن سوى واحد من المجالات التى مورس فيها السحر لدى القدماء ، فقــد تنوعت أهداف السحر حسب حاجات، وآمال وأهداف من يسعون إلى السحرة حتى تطرق السحر إلــى كافة شئون الحياة ، فكان هناك السحر النفعى والسحر الوقائى . وعُرفت أيام سعد وأخرى نحس ، وكــذلك ســاعات للســعادة وأخرى للشقاء(٣٥)، وتمت جدولة هذه الأيام وتلك الساعات فيما سمى فى العصــر الحــديث باســم الرصــد(٣٦) . كــذلك استخدم السحر فى تفسير الأحلام فى العصرين البطلمى والرومانــى وعرفت له بعض القواعد ، فمن يرى نفسه ميتاً سوف يعيش ومن يرى نفسه على سارية مركب سوف يرفع الإله قدره وهكذا(٣٧) .

أما التنبؤ بالغيب فقد كان واحداً من المجالات الواسعة للسحر . لقد عرفت الحضارات القديمــة الكثيــر مــن وسائل التنبؤ بالغيب كالأحلام أثناء النوم الاعتيادى أو فى معابد الآلهة واستشــارة معابــد الوحــى(٣٨) ، أو عن طريق مراقبة حركات الطيور، وأصواتها ، أو بفحص أحشــاء الحــيوانات فــور ذبحهــا ، كما كان يمكن التنبؤ عن طريق الظواهر الطبيعية كالرعد والبــرق(٣٩) . مــن الوســائل التــى يمكــن اعتــبارها سحرية أكثر منها دينية ، قراءة الكف Chiromancy وهــو ما ذكره الكاتب بولوكس Pollux فى القرن الثانى الميلادى(٤٠) . كذلك فــتح المندل وقراءة الطالع بالنظر فى إناء يحتوى على سائل Hydromancy ، أما استخدام الــبلورة الزجاجية فلم يعرف قبل العصر البيزنطى وهو المسمى Crystallomancy(٤١) . فى بــردية من العصر الرومانى من مصر ، ذكر المندل المائى حيث أعد إناء به ماء وجئ بطفل لم

يبلغ الحلم ، وتليت تعاويذ للإله سيرابيس Serapis ، ثم ينظر الطفل فى الماء ويصف ما يراه، ثــم تتلـــى تعـــويذة أخرى لحماية الطفل وصرف الإله[٤٢] . وفى تعويذة أخرى تستدعى الإلهة أفروديت التى تظهر صورتها فى الإناء لتسأل عما يرغب فيه السائل[٤٣] .

أمـــا أكثـــر المجالات الحيوية لاستخدام السحر فى العصرين البطلمى والرومانى فكان السحر النفعـــى والوقائـــى ، إذ تتـــناول الكثير من الأعمال السحرية أغراض الحماية من الحيوانات المفترسة والـــزواحف والحشرات واللصوص وكذلك الوقاية من الأمراض أو الشفاء منها . وقد وردتنا فى إحدى البـــرديات مـــن العصر الرومانى تعويذة لاستعادة شخص لذاكرته[٤٤] ، وأخرى لمنح القوة[٤٥] ، وثالثة لاكتســـاب محبة الناس[٤٦] ، ورابعة لرواج العمل[٤٧] ، وخامسة لاكتساب الثقة بالنفس[٤٨] . كذلك وردت فـــى البـــرديات السحرية من العصر الرومانى الكثير من التعاويذ للحماية من لدغة العقرب[٤٩] ، ولطرد الـــبق والبـــراغيث من المنزل[٥٠] ، ولإبطال مفعول السحر[٥١] ، والقبض على اللصوص[٥٢] ، وللشفاء من الكحة[٥٣] ، ومن الحمى وما يصاحبها من هلوسة[٥٤] .

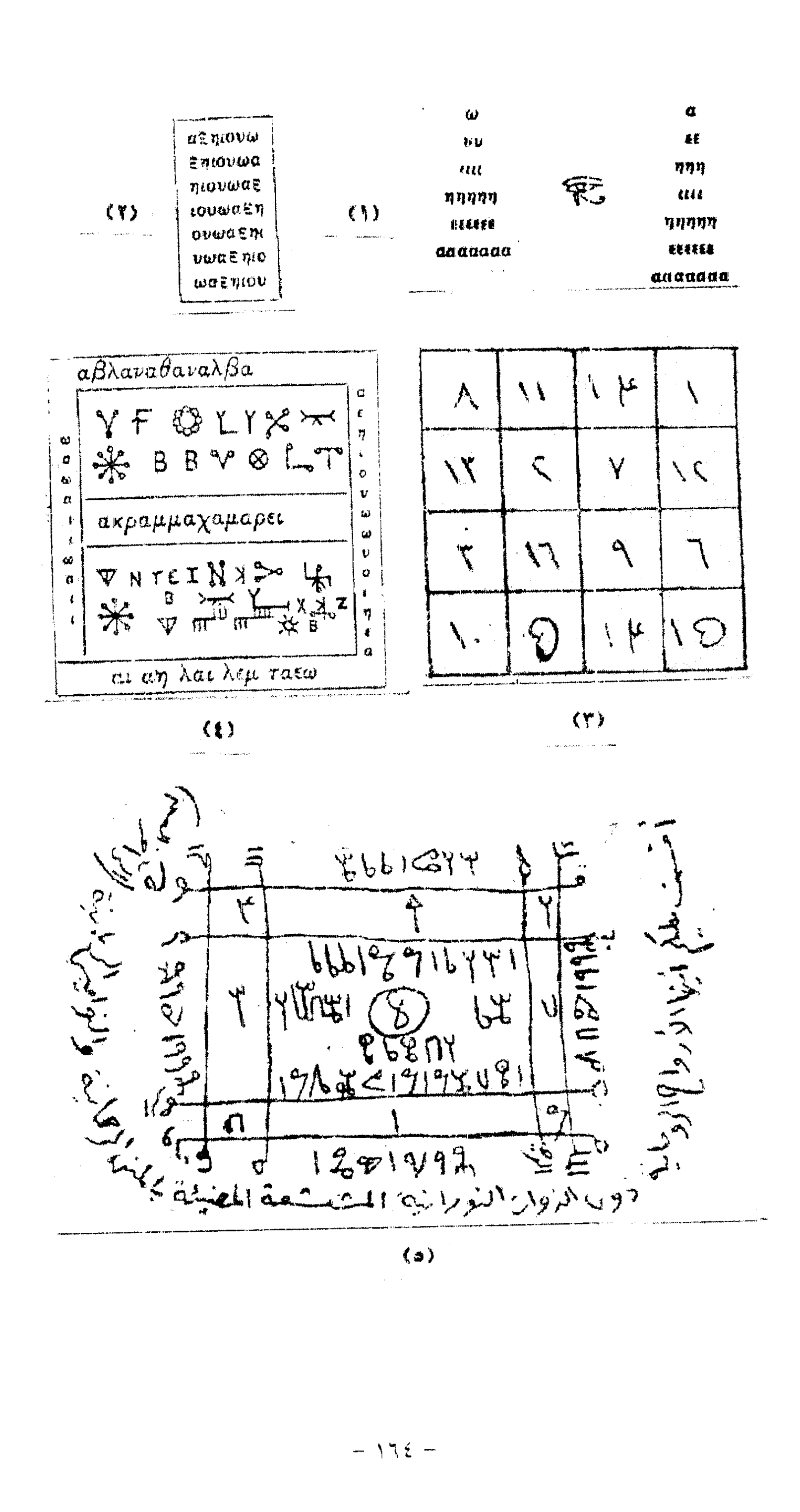
ومـــن أشهر التمائم الخاصة بالوقاية تلك اللوحات التى عرفت باسم "لوحات حورس" وهـــى عـــبارة عـــن لـــوحات مـــن الحجر أو البرونز كانت توضع فى أفنية المنازل لدفع أذى الحـــيوانات والهـــوام وغيرها وقد ظهرت نحو نهاية العصر الفرعونى واستمر استخدامها حتى العصر الرومانى ومن أشهرها تلك اللوحة المعروفة باسم لوحة مترينخ Metternich Stele والتى ترجع للأسرة السادسة والعشرين[٥٥] ، أما الأمثلة الموجودة من تلك اللوحات من العصر الرومانـــى فقـــد احـــتوت على الكثير من عناصر تلك اللوحات ومنها لوحة صغيرة من البرونز صـــور عليها حورس واقفاً على تمساحين ويمسك بكل يد ثعبانين وحيوان ، ويعلو رأسه رأس الإلـــه بس وإلى يساره زهرة لوتس يعلوها صقر وإلى يمينه أخرى تعلوها ريشتان . أما ظهر اللوحة فقد ظهرت عليها رموز سحرية مختلفة نتعرف فيها على الشكل اليونانى المعروف باسم Ouroborous وهـــو ثعبان يلتف مكونـــاً دائراً حيث يدخل ذيله فى فمه (صورة رقم٩)[٥٦] .

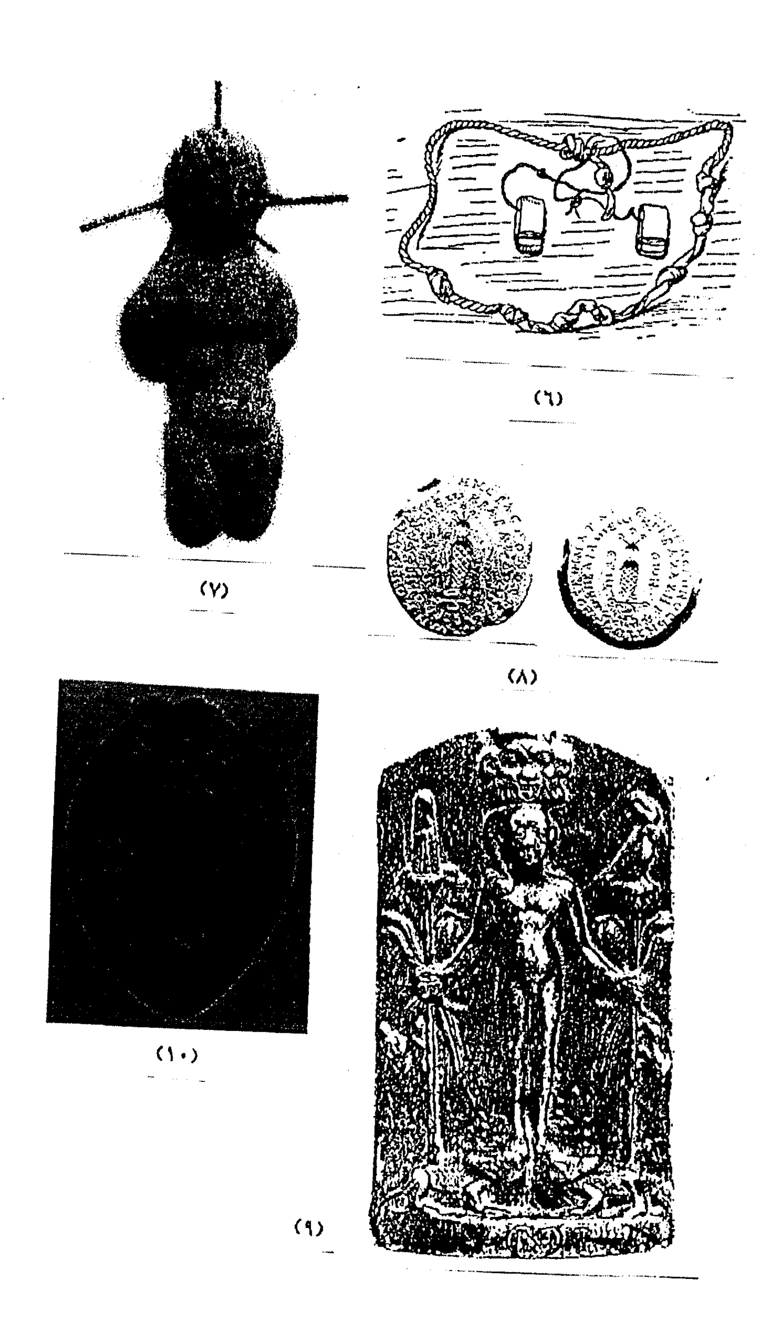
وقـــد انتشـــرت فـــى التمائم السحرية الخاصة بالشفاء من بعض الأمراض صورة خنوبيس Chnoubis ، وهـــو إله اختص بالسحر ابتدع فى العصر الرومانى بجسم ثعبان ورأس أسد تحيط بها هالـــة شمســـية ، ويـــبدو أن خنوبـــيس اختص بالشفاء من أمراض المعدة والمثانة ، ففى تميمة من الحجـــر الصابونى Steatite (صورة رقم١٠)[٥٧] محفوظة بمتحف جامعة ميتشيجان، صور خنوبيس علـــى الـــوجه وطائـــر الأيبـــيس Ibis على الظهر الذى يظهر أمام مائدة أو مذبح وضعت عليه بعض النـــباتات، وصـــورت أعلى هذا المنظر نجمة وأسفله النقش : IAW . يلاحظ فى هذه التميمة وجود بـــروز مـــثقوب أعلاهـــا لكى تعلق، لكن يبدو أنه عند كسر أراد الصانع أن يصنع ثقباً آخر فوق رأس خنوبـــيس ولكـــنه لم يكمل . لقد كانت التمائم من هذا النوع يفضل لها أن تعلق حتى تصل إلى موضع

الأســم أو بالقــرب مــنه . ويلاحظ تداخل العناصر المختلفة فالأيبيس والمذبح مصريان ، بينما الكتابة يونانية ، وخنوبيس نفسه هو مزيج من الأشكال المصرية والإغريقية .

والواقــع أن الطــب فى العصور القديمة وحتى عهد قريب تداخل تداخلاً كبيراً واعتمد بشــكل أو بآخــر على الوصفات السحرية . فإذا سلمنا باستخدام النباتات والعقاقير المستخرجة مــنها فــى الوصــفات الطبية فإننا نستطيع أن نربط استخدام أجزاء حيوانية فى هذه الوصفات بالطب السحرى، وبالرغم من أن هذا الأمر كان شائعاً على نطاق واسع باعتباره طباً شعبياً ولم تمارس معه أى طقوس سحرية أو تصاحبه طلاسم إلا أن تلك الممارسات وبسبب شيوعها بدأت تفقــد تدريجياً تلك الطقوس والطلاسم وأصبح المعروف منها استخدام تلك الأجزاء الحيوانية . فالبردى الديموطيقى والإغريقى يمتلئ بمثل تلك الوصفات، وقد أورد المؤرخ الرومانى بلنيوس كمية هائلة منها احتلت أربعة كتب من الثامن والعشرين حتى الواحد والثلاثين ولا يتسع المقام هــنا للإسهاب فى الكتابة عن تلك الوصفات ومحتوياتها فقد احتوت على ما لا يمكن تخيله من مواد مثل صملاخ الأذن وبراز الكثير من أنواع الحيوانات .

وفــى الختام فإن ما يمكن قوله عن السحر فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى هو أنه لم يخرج عن نطاق المألوف منذ أقدم العصور وفى كثير من الثقافات وحتى عهد قريب غيــر أنــه شــهد ثــراءً وحيوية نتيجة لتلاقح ثقافات مختلفة وخاصة فى العصر الرومانى ، فبالإضــافة إلى العناصر المحلية السائدة فى مصر جاءت الثقافات الوافدة بتأثيرات جديدة سواء فى أشكال الآلهة أو أسمائها أو فى الصيغ السحرية أو فى الطقوس والممارسات ، حيث وجدنا ملامح مصرية ويهودية وإغريقية ورومانية ممتزجة تلتقى من أجل هدف واحد .


αξηιουω
ξηιουωα
ηιουωαξ
ιουωαξη
ουωαξηι
υωαξηιο
ωαξηιου
(٢)
(١)
αβλαναθαναλβα
ακραμμαχαμαρει
αι αη λαι λεμ ταεω
(٤)
١ ١٤ ١١ ٨
١٢ ٧ ٢ ١٣
٦ ٩ ١٦ ٣
١٥ ٤ ٥ ١٠
(٣)
(٥)



(٦)

(٧)

(٨)

(٩)

(١٠)

هوامش البحـث

١- E.A.W. Budge, Egyptian Magic, Dover Edition, New York, 1971, p.2 .

٢- Acts, VIII, 22 .

٣- صورة الأعراف ١١٣، ١٢٠؛ سورة الشعراء ٣٧ - ٣٨، ٤٠ - ٤١، ٤٦ .

٤- Budge, op. cit., pp. 25 ff .

٥- J. G. Frazer, The Golden Bough, Abridged Edition, London, 1967, pp. 37 ff .

٦- A. Kiev, "The Study of Folk Psychiatry", in: Magic, Faith and Healing, ec. by A. Kiev, New York, 1964, p. 9 .

٧- أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى، القاهرة، ١٩٩٧، ص ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

٨- Budge, op. cit., p. 177 .

٩- Budge, op. cit., p. 178, no. 1.

١٠- Ibid., no. 2.

١١- انظر على سبيل المثال:

عبد الفتاح الطوخى ، المندل والخاتم السليمانى والعلم الروحانى، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ص ٣٥.

١٢- F. Kenyon, Greek Papyri in the British Museum, London, 1893, p. 123.

١٣- Budge, op. cit., p. 179; Idem, Amulets and Superstitions, Dover Edition, New York, 1978, p. 211.

١٤- وراجع: عبد الفتاح الطوخى، الخاتم السليمانى، ص ٨٦.

١٥- C. Bonner, Studies in Magical Amulets, Chiefly Graeco-Egyptian, Ann Arbor, 1951, pp. 110, 191, 202.

١٦- Ibid., pp. 111, 145.

١٧- إرمان، نفس المرجع، ص ٣٤٧ رقم ١٢٨.

١٨- Bonner, op. cit. p. 2, note 4.

١٩- Plinius, Historia Naturalis, XXXVII, 54.

٢٠- Plinius, H. N. ,XXXVI, 40.

٢١- Budge, Amulets and Superstitions, 1978, p. 310.

٢٢- Ibid., p. 313.

٢٣- Ibid., p. 314.

٢٤- Ibid., pp. 315 ff.

٢٥- Bonner, op. cit., pp. 11, 27.

٢٦- Preisendanz et al, Papyri Graecae Magicae (PGM) 3 Vols., Leipzig, 1928 - 1941, I, 83, 87.

٢٧- G. Pinch, Magic in Ancient Egypt, London, 1994, fig. 48.

٢٨- Bonner, op. cit., pp. 108 - 110, 278, pl. VII, no. 150.

٢٩- Homer, Odyssey, V, 1, XXIII, 244 - 6.

٣٠- H. Von Geisau, "Memnon", in : Der Kleine Pauly, Munnich, 1979, cols. 1189 - 1190.

٣١- Bonner, op. cit., p. 31.

٣٢- انظر: عبد الفتاح الطوخى، الخاتم السليمانى، ص ٦٣.

٣٣- ظل غرس الدبابيس فى التماثيل والصور ممارساً فى مصر حتى عهد قريب، ففى أمراض الحمى بالذات التى تصيب الأطفال كانت بعض الأمهات تلجأن إلى قطع ورقة بشكل إنسانى وتتلو رقية على طفلها: "رقيتك واسترقيتك من كل عين رأتك ولم تصل على النبى" ثم تبدأ الأم بغرس الدبابيس فى الشكل الورقى قائلة "من عين فلان ومن عين فلان ..." وهكذا حتى تفرغ من ذكر كل من مر فى خاطرها وتعتقد فى أنه أصاب طفلها بالحسد. بعد ذلك تحرق الشكل الذى يسمى بالعروسة. ثم ترسم بالسناج الناتج عن الحرق صليباً على جبهة الطفل، ويلاحظ فى هذا الصدد أن الأم المسلمة تستخدم رمزاً مسيحياً وهو الصليب، فالرموز الدينية تستخدم لتقوية التأثير، بصرف النظر عن ديانة القائم بالعمل، وهكذا كان الحال قديماً.

٣٤- انظر: إرمان، نفس المرجع، ص ٣٤٩.

وجدير بالذكر أن ذكر الشخص باسم أمه مازال متبعاً حتى اليوم فى السحر وفى الدعاء.

٣٥- المرجع السابق، ص ٣٤٩.

٣٦- راجع هذه الجداول فى: عبد الفتاح الطوخى، تسخير الشياطين فى وصال العاشقين، القاهرة، بدون تاريخ، ص ص ٧٩ - ٨٢.

٣٧- إرمان، المرجع السابق، ص ٣٤٩.

٣٨- G. Luck, Arcana Mundi, Baltimore and London, 1985, pp. 231 ff.

٣٩- Ibid., pp. 250 - 251.

٤٠- Pollux, 2. 152.

ومن المعروف أن هذا الأمر لا يزال مستعملاً حتى اليوم، راجع على سبيل المثال: خليل حنا تادرس، أسرار فن التنجيم، القاهرة، بدون تاريخ، ص ص ٦ - ٧٣؛ جريجوار شكريان، راءة خطوط اليدين، ترجمة لفيف من المترجمين، دمشق، ١٩٩١، مواضع متفرقة.

٤١- Luck, op. cit., p. 254.

٤٢- PGM, V.

٤٣- H. D. Betz, The Greek Magical Papyri in Translation Including the Demotic Spells, Chicago, 1986, IV, 3209 – 3254.

وقد ذكر إدوارد وليام لين أن هذا الأسلوب كان متبعاً فى مصر فى القرن التاسع عشر:

E. W. Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, East - West Publications, London, 1989, pp. 271 ff.

ويبدو أن هذا المندل لايزال مستعملاً حتى اليوم . راجع : عبد الفتاح الطوخى ، الخاتم السليمانى، ص ٨٨.

٤٤- Betz, op. cit., I, 232 - 247.

٤٥- Ibid., LXIX, 1 - 3.

٤٦- Ibid., XCII, 1 - 16.

٤٧- Ibid., M, IV.

٤٨- Ibid., XII, 182 - 189.

٤٩- Ibid., XXVIII a, 1.

٥٠- Ibid., VII, 149 - 154.

٥١- Ibid., XXXVI, 250 - 64.

٥٢- Ibid., V, 70 - 95.

٥٣- Ibid., VII, 199 - 201.

٥٤- Ibid., LXXXIX, 1 - 27.

٥٥- Budge, Egyptian Magic, pp. 147 ff.

٥٦- Bonner, op. cit., p157, fig. 5.

٥٧- Ibid, pp. 51 ff., 266, pl. IV, 81.



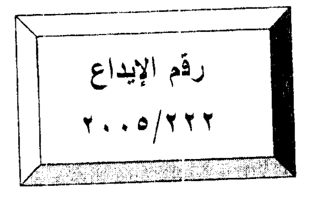
تم بحمد الله تعالى طباعة الكتاب الخاص بهذه الندوة
بمطبعة معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة

تحت إشراف

السيد / حامد إسماعيل حامد (أمين المعهد)

السيد / حسنين محمد عبد العال (رئيس قسم التصوير)

السيد / محمد صلاح الدين غازي (فني تصوير بالمعهد)



رقم الإيداع
٢٠٠٥/٢٢٢